# خواطر من وحي سورة الفاتحة

# خواطر من وحي سورة الفاتحة

Copyright©2015 Dar Al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

**الترقيم الدولي**

ISBN: 978-977-801-002-2

**رقم الإيداع**

2015/23092

**رقم النشر**

1034

**دار النيل للطباعة والنشر**

**الإدارة:** 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

**القاهرة - 2015م**

# خواطر من وحي سورة الفاتحة


تأليف

محمد فتح الله كُولَنْ

ترجمة

أجير إشِييُوكْ *(Ecir İşiyok)*

# فهرس


**مقدمة** ..... ٩

**مدخل** ..... ١٣

**الفصل الأول**
**جولة قصيرة في الآفاق القرآنية**

**اشتقاق كلمة "القرآن"** ..... ٢٣

**القرآن الكريم: نغمةٌ أبديّة خالدة** ..... ٢٧

**جَمعُ القرآن وحفظُه** ..... ٢٩

**القرآن "كلام الله"** ..... ٣٥

**نظرة خاطفة إلى إعجاز القرآن الكريم** ..... ٣٩

**القرآن من حيث مضامينه** ..... ٤٣

أ. القرآن تفسيرٌ لِكتاب الكون ..... ٤٣

ب. القرآنُ مفتاحُ خزائنِ الأسماء الإلهية ..... ٥٨

ج. القرآن ترجمان للصفات الإلهية ..... ٥٩

د. القرآن تفسير للشّؤون الإلهية ..... ٦٠

هـ. القرآن خارطةٌ مقدَّسةٌ لعالم الآخرة ..... ٦١

و. القرآن كتابُ شريعةٍ ..... ٦٢

ز. القرآن كتابُ حكمة ..... ٦٢

ح. القرآن كتابُ دعاء ..... ٦٣

ط. القرآن كتابٌ مقدسٌ نَزَل من العرش الأعظم ..... ٦٣

## الفصل الثاني
## الاستعداد الروحي للفاتحة


**تأمّلات حول الاستعاذة** ..... ٦٥

أ. شرح المفردات وتحليلها ..... ٦٦

ب. ما تنطوي عليه الاستعاذة من الغايات والحِكَم ..... ٦٨

ج. أحكام فقهية تتعلق بالاستعاذة ..... ٨٠

**البسملة** ..... ٨٣

أ. الباء ..... ٨٣

ب. كلمة "اسم" ..... ٨٥

ج. لفظُ الجلالةِ الأشرف: "الله" ..... ٨٧

د. الاسمان الجليلان: الرحمن، الرحيم ..... ٩٣

هـ. مقارنة بين كَلِمَتَي "الرحمن" و"الرحيم" ..... ٩٤

و. البسملة: حبلٌ نورانيٌّ يَربط قلبَ الإنسان بالعرش الأعظم ..... ٩٦


## الفصل الثالث
## تأملات في ثنايا سورة الفاتحة


**المناسبة بين الآيات والسور** ..... ١٠١

**المناسبة بين البسملة والفاتحة** ..... ١٠٥

**المناسبة بين البَسْمَلَةِ و"الحمدُ لله"** ..... ١١١

**آيةُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** ..... ١١٧

أ. مقارنة بين كلمات "الحمد" و"الشكر" و"المدح" ..... ١١٧

ب. مقامُ الحمد ..... ١١٩

ج. الحمد ومفخرةُ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ ..... ١٢٠

د. كلمةٌ تملأ الميزان: الحمد لله ..... ١٢١

هـ. كلمة "رَبّ" ..... ١٢٢

و. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وأركانُ الإيمان ..... ١٢٦

ز. كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ..... ١٣٨

ح. تعبير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من الناحية التربويّة..... ١٣٩
ط. سير الكون نحو الكمال، وتعبيرُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾..... ١٥٠
**آيةُ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**..... ١٥٣
أ. ما في تكرار اسمي: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من الحِكَم..... ١٥٣
ب. معنى رحمانيّة الله ورحيميَّتِهِ..... ١٥٥
ج. ألطافٌ تتجلَّى في أفقِ الرحمانيّة والرحيميّة..... ١٥٦
د. نعمةُ "الإرادة" التي تُشْرِقُ من بُرج الرحمانيّة والرحيميّة..... ١٥٨
**آيةُ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾**..... ١٦١
أ. القيامة: اليوم الذي يقوم فيه كلّ شيءٍ..... ١٦٢
ب. يومُ الدين: يومُ يَظهر الدينُ..... ١٦٣
ج. الدينُ والتديُّنُ..... ١٦٤
د. كلمة: ﴿مَالِكِ﴾..... ١٦٦
هـ. إن اللَّه هو المالكُ الوحيدُ ليوم الدين..... ١٦٨
**آيةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**..... ١٧١
أ. العِبادة – العُبوديّة – العُبُودة..... ١٧١
ب. العِبادة – الطاعة – القُربة..... ١٧٢
ج. العبادة وروحُ الإنسان..... ١٧٣
د. النيَّةُ روحُ العبادة..... ١٨٠
هـ. المناسبةُ بين العبادةِ والاستعانة..... ١٨٢
و. العبادة والوعي الجَماعي..... ١٨٧
ز. توحيد العبوديّة وتوحيد الربوبيّة..... ١٩١
**آيةُ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾**..... ١٩٥
أ. ماهية الهداية..... ١٩٦
ب. أنواع الهداية..... ١٩٧
ج. كلمةُ ﴿الصِّرَاطَ﴾..... ١٩٩
د. الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم..... ٢٠١
هـ. روح الإنسانِ والصراطُ المستقيم..... ٢٠٥

و. الصراطُ المستقيمُ والنظرةُ الصحيحةُ إلى الطبيعة ..... ٢٠٩
ز. التنوُّع في طلب الهداية ..... ٢١٢
**آيةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ..... ٢١٥**
أ. الإنعامُ، ونعمةُ الاستفادةِ من النعمة ..... ٢١٥
ب. أنواع النِّعَم ..... ٢١٧
ج. صراطُ الذين أنعمَ الله عليهم ..... ٢٢٠
د. صراطُ غيرِ المغضوبِ عليهم ..... ٢٢١
هـ. صراطُ غير الضالين عن الحقّ ..... ٢٢٢
**"آمِين" ..... ٢٢٧**
**الخلاصة ..... ٢٢٩**
**مصادر ..... ٢٣٧**

# مقدمة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

يستهلُّ القرآنُ بسورة الفاتحة، وتُستَفتَحُ الصلاة بها، ومغاليقُ كلِّ أمرٍ ذي بالٍ تُفتَحُ بهذا المفتاح الألماسي، وإنما تتنوَّرُ الظلمات وراء الأبواب المفتوحة بهذا المنبعِ النوراني.

فهي تُسمى "**الفاتحة**" على معنى أنها رأس الأمر وأساسُه، وتُدعى "**الشافية**" على اعتبار أنها شفاء لكلِّ الأمراض الماديّة والمعنويّة والفرديّة والاجتماعيّة، و"**الكافية**" من منطلقِ أنها وصفة كافية لحلِّ كلِّ مشاكل الإنسانية وهمومِها، و"**أم الكتاب**" باعتبارها فِهْرِسًا لكلِّ الكتب وخلاصةً أزليَّةً للحقائق القرآنيّة.

إن الفاتحة سورة مباركةٌ قصيرة، ولكنها من حيث الشمول والاستيعاب بمثابة كتابٍ كاملٍ يحتوي على المبادئ الرئيسة والمقاصد الأساسيّة

للقرآن الكريم؛ وبالتالي للكتب السماوية بأكملها، فإذا كانت أمَّهاتُ المقاصدِ القرآنية تنحَصِرُ في مسائل العقيدة والعبادات والمعاملات (أو قل: نظام حياةٍ)، فإنا نستطيع أن نجد في سورة الفاتحة الجليلة ما يتعلَّق بكلٍّ منها إما على سبيل التصريحِ أو التلميحِ أو الدلالةِ أو الإشارةِ.

ليست الأُسُس التي يجبُ التصديقُ بها في الإسلام عبارةً عن بعض الأفكارِ المجرَّدَةِ، بل إنها "قِيَمٌ حياتيّة" يجب العلم والتفكيرُ والإيمانُ بها، ثم التخلُّقُ بها، ثم الوصولُ عن طريقها إلى "إسلام الوجه لله"، فهذه "القِيَمُ الحياتيَّةُ" تزدادُ عمقًا بالذِّكر والتفكُّرِ بمعناهما الأوسع والأشمل، وتتغذَّى بالعبادة؛ حتى إن المعاملات تُؤطَّر بأُطُر وتُضبَطُ بضوابطَ منعًا لتدخُّلِ النوازعِ البشريَّةِ فيها، وهكذا يظلُّ المؤمنُ في علاقةٍ دائمةٍ بالدائرة الإيمانيّة، ويظلُّ دائرًا على الدوام حول المحورِ الأساسيِّ للإيمان.

فكلُّ هذه القضايا تتآزَرُ في سورةِ الفاتحةِ وتتعانَقُ، وتَربطُ بينها صِلَةٌ عميقةٌ.

إن هذه السورة الجليلة تَلفِت الأنظارَ -بادئَ ذي بدءٍ- إلى الذَّاتِ المقدَّسةِ المستحِقَّةِ للحمدِ والثناءِ بالمعنى الحقيقيِّ، وتُعَرِّفُها بِذِكْرِ بعض صفاتها التي هي بمثابةِ مَنشإٍ وأساسٍ للوجود، وتُركِّز على حقيقةِ أن زمامَ كلِّ شيءٍ بيدهِ تعالى، ثم تُنبِّه إلى وجوب الخضوعِ والطاعةِ له، وتدعو إلى الاستعانةِ به وحده تجاه ما قد يعرض من مشاقَّ ومصاعبَ وعقباتٍ وحاجاتٍ أثناء القيام بالطاعة وأداء سائر التكاليف، وتُذَكِّرُ قارئها بأن يطلب الهداية منه تعالى؛ فإنها أهم المعونات بالنسبة لِبَنِي الإنسان على الوجه الأخصّ، ثم تُقدِّم هذا المطلب الأسمَى في إطارٍ يُغبَط صاحبُه عليه؛ إطار الذين حباهم المولى تبارك وتعالى نِعَمَهُ، فلم يتردَّوْا في مهاوي الطغيان والضلال.

وكما يلاحَظ، فإن هذه السورةَ الجليلةَ تبدو وكأنّها مقدِّمةٌ للقرآن؛ فكم من حقيقةٍ سامية سُرِدَتْ بتفاصيلِها في سُورٍ مختلفةٍ قد تضمَّنَتْها الفاتحةُ إيجازًا أو إشارةً أو تلويحًا.

إلا أن ذكرَ الأمثلةِ لكلِّ ما ذكرنا يتطلَّبُ جهدًا كبيرًا، فإننا نُحيلُ أَمْرَهُ إلى كتبِ مئات المفسِّرين من أهل التحقيقِ وإلى هذا الكُتَيِّبِ الذي لا يُعَدُّ إلا قطرةً صغيرةً كَدِرة من هذا البحر العظيم، فنقول عن إعداد هذا العمل المتواضِعِ:

- لم يُجمَع محتوى هذا الكتاب في بادئ الأمر لِيُصْبِحَ كتابًا، بل فُرِّغَ من دروسٍ صوتيّةٍ أُلْقِيَت في المساجد وخُوطِبَ بها عامةُ الشعب.
- روعيَ في الأسلوب المستوى الفكريّ والحسّي للعوام الذين يرتادون المساجد، إلى جانبِ المحافظة على الأسلوب الخطابيّ، اللهم إلا في نقاط ومواضع قليلة.
- ولأنَّ الأداءَ كان بأسلوبٍ وعظيٍّ وفي حلقات متعدِّدَةٍ متفرّقة كان لا بدَّ -لربطِ الموضوعاتِ بعضِها ببعضٍ- من التذكير في كلّ حلقة بما ذُكر في سابِقَتِهَا ولو بإيجاز، ممّا أدَّى إلى نوعٍ من التكرار، ولم يَتَسَنَّ إزالته من الكتاب تمامًا.
- ولإيضاح ما يتميز به القرآن الكريم من الأسلوب الرفيع؛ كان لا بدَّ من التطرُّق أحيانًا إلى القضايا الصَّرْفِيَّةِ والنحويَّة وأوجُهِ البيان والبديع، مما أضفى على العبارة في بعضِ المواضعِ أسلوبًا ثقيلًا على بعض القراء.

- مــع أنني لم أكنْ واثقًا تمامًا من أن مثلَ هذا العمل سـيفيدُ الأمة المحمدية أو لا، ولكني احترامًا لمشاعر إخواني الفضلاء، قمتُ بتلبيةِ ما طلبوه مني في هذا الصدد، فإن كنتُ قد أخطأْتُ في ذلك فإني أَسْتَشْفِـعُ بِصِدْقِ نوايا هؤلاء حتى يغفر الله لي زلتي هذه.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

# مدخل

﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا القرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/٢١).

إن القرآنَ كلامٌ أزليٌّ أُنْزِلَ على الإنسان المزوَّدِ باستعدادٍ وقابليَّةٍ تؤهِّلُهُ لتلَقِّي الخطابِ الأزليّ، وكان مَظهرًا لسرِّ "أحسن تقويم"... نعم، إنه أُنزل على الإنسان! ولو أنه أُنزل بِعَظَمَتِهِ وثِقَلِهِ على الجِبالِ، لرأيتَ الجبالَ متفتّتَةً منهارةً مندكَّةً بسببِ ما تَشعُر به من الخشية العميقةِ تجاهَ **الله**... ولكن يا لَلمفارقة! إن القرآن لا يؤثّرُ في الإنسان الذي ينأى ويبتعد بقلبِهِ وعقلِهِ عنه، فهذا الذي استوحَشَ من القرآن بمشاعرِهِ، ولم يفتحْ في عالَمِ مشاعره وأفكاره وقلبِهِ مجالًا لذلك الخطابِ الإلهيّ؛ لا ريبَ أنه محرومٌ من القرآن ولا حظَّ له منه:

*إن القرآن بحرٌ زاخرٌ بالجواهر لِمن كان من الغوّاصين*

*ومن يستغنِ عنه فإنه من التُّعَساءِ المحرومين*

إن القرآن كتابٌ مقدَّسٌ ذو بَرَكَةٍ عظيمةٍ، لا نظيرَ له في قدسيَّتِهِ وعُلويَّتِهِ، والحقُّ ﷻ أنزله -بكمالِ عَظَمَتِهِ وجلاله- بحيث يستجيبُ لكلّ حاجات بني الإنسان المادّيّةِ والمعنويّة.

والقرآن هو عينُ البَرَكَةِ؛ إذا ما انقادَ قومٌ لأوامِرِهِ بُورِكَ لهم في أعمارِهِم، واخضرَّت وازدهرت شتّى نواحي حياتهم، وتفوَّقوا على سائر الأمم، فهو يأتي بِفَسَائِلِهِ وبراعِمِهِ لِيُحَوِّلَ الدنيا إلى جِنانٍ.

والقرآن الذي أُرسل إلينا لنفكِّرَ في كلِّ ذلك بِدِقَّةٍ وإمعان؛ يَتطلَّبُ منا مواصلةَ التدبُّرِ في آياتِهِ؛ إذ لا بدَّ لنا أن نستفرغَ الجهد والطاقة حتى نستنبط من القرآن ما يتماشى مع متطلَّبات كلِّ عصرٍ، ولن يَتَأَتَّى فَهْمُ القرآن إلا بهذه الطريقة.

وللإشارة إلى هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ (سورة ص: ٢٩/٣٨) فقوله تعالى: ﴿**لِيَدَّبَّرُوا**﴾ يعني تناوُلَ أيِّ أمرٍ من جميع جوانِبِهِ، والوقوفَ على كلِّ نقطةٍ من نقاطِهِ واحدةً تلوَ الأخرى، وإعمال الفكرِ فيه بإمعانٍ ورويَّةٍ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ يفيدُ أن أصحابَ العقولِ السليمةِ يستفيدون من القرآن بمثل هذا التفكُّر والتدبُّر، ويسبرون أغوارَه فيستخرجون منه حقائق دقيقةً ويكتشفون معاني عظيمةً عميقةً.

ولماذا لا يَتَفكَّرُ الناسُ في القرآن ولا يتدبَّرونه مع أن فيه تبيانًا لكلِّ شيءٍ، والحالُ أنه لا يُعقَلُ أن يكون هناك إنسانٌ يَقرأ القرآنَ ولا ينخرِطُ في سبيل الله، ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (سورة مُحَمَّدٍ: ٢٤/٤٧) أي فَهَلْ خُتِمَ على قلوبهم فلا يدخلُها شيءٌ من الحقائق القرآنية؟

إن القرآن روحُ الحياة، ولا تنطوي حياةُ الإنسان على الخير والبركة إلا بقدرِ ما يجعل القرآنَ الكريم دستورًا لحياته، ولا بركةَ في الحياة البعيدة عن القرآن، وبقدرِ ما تبتعِدُ الأمّة عن القرآن بقدرِ ما تَسُود حياتَها النميمةُ والإرجافُ، ويختل فيها النظام، وتعمّها الفوضى.

قال رسول الله ﷺ: "**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**"(١)، ويُفهَمُ من نصِّهِ على التعلُّمِ والتعليمِ التعمُّقُ في حقائقِ القرآن ودقائقه، فإذا كنا نريد أن نكون خيرَ الناس فعلينا أن نبذلَ الجهد في تعلُّمِهِ وتعليمِه، ونراجعَ التفاسير في هذا المجال، ونحاولَ سبرَ أغوار ما تفيده من الحقائق وما تُقدِّمُه من الدقائق، حتى نُثبِت للعالم أننا نهتمُّ بالقرآن، وإلا فالذين يتعاملون مع القرآن "عَلَى حَرْفٍ" -حَسَبَ التعبيرِ القرآني- لا يمكنهم الاستفادة من نوره وفيضِه كما ينبغي.

إن القرآن -إن جاز التعبير- "غَيورٌ" لا يعطي شيئًا مما عنده للذين لا يعشقونه بصدقٍ وإخلاصٍ؛ فإذا أصبحتَ "مجنون القرآن" بكلِّ قلبِك ومَشاعرِك وأقبلْتَ عليه؛ فهو أيضًا سيُقْبِلُ عليك، وإلا فإن أخذتَ بالقرآن من الأطراف والحوافّ فلن يَكشِف لك أسرارَه؛ لأنّ هذا الكلام الإلهيّ لا يَعكسُ الأنوارَ والفيوضات إلّا على القلوب العاشقة التي تتوجَّه إليه بكلِّ كيانها، فإذا أنت لم تقرأه وتتعمقْ في فهمِ معناه فإنك ستُحرَمُ من فيوضاته وبركاته، ونرى هذه الحقيقة جليّة في حديث الرسول ﷺ: "**اَلْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ**"(٢)، ويعني ذلك أن الذي لا ينطلق لسانه بالقرآن ولكنه يحاول أن يقرأه بنيّة خالصة سيؤجر مرتين: مرةً من أجل التلاوة، ومرة لبذله الجهد على أداء هذا الأمر ولو بصعوبة.

إن القرآن كنز إلهيٌّ، وهو معينُ الخير الذي لا ينضب، فإذا تلوتَه بمهارة تليقُ بشأنه سموتَ إلى مستوى الملائكة، وإذا كنت مبتدئًا في ذلك ولا تُحسِنُ القراءةَ فلن تُحرَم أيضًا، بل ستؤتَى أجرَك مرتين.

(١) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٢١؛ سنن الترمزي، فضائل القرآن، ١٥.

(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٤؛ سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٢.

ويقـول الرسـول ﷺ في الحديث الذي رواه الشـيخان: "**مَثَـلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّـذِى لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ؛ لَا رِيـحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّـذِى يَقْـرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُها طَيِّبٌ وَطَعْمُهَـا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ ليس لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**"[٣].

فالرسـول ﷺ يُشَـبِّه المؤمـنَ الذي يقـرأ القرآن بالأترجـة ذات الطعم والرائحةِ الحسنتين؛ فلا بد للمؤمن من قراءة القرآن والتزامِ نظامِه، وإذا لم يفعل فهناك أنظمةُ حياةٍ لا يعرفها ستُضلُّهُ عن الطريق وتجرفُهُ عن المَسَارِ، وكلّمـا ابتَعَـد عن القرآن فسـيبتعد عن الله من حيث لا يشـعر، لأنّ القرآنَ موجّهُ الإنسـانِ ومرشـدُه، والرسـول ﷺ يبين لنا هذا بقوله: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القرآن مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ".

فيترتـب على هذه الحالة الطيّبة الناتجةِ عن اجتماعِ الإيمان مـع قراءة القرآن أن تَعْلَق رائحةٌ زكيَّة بما حوله ويظلّ ما حوله واقعًا تحت تأثير هذه الرائحة.

ولَمَّـا ضاقـت مكـةُ ذرعًـا بالمومنيـن ولم تعُـدْ صالحـةً لإقامتهم في ربوعهـا، كان أبـو بكر ﷺ من جملة هؤلاء الذين ضاقـت بهم مكة، فأراد أن يهاجـرَ إلى الحبشـة كغيره مـن المؤمنين، وفي طريقـه إليها لقيَ رجلًا من المشـركين يُدعى ابنَ الدَّغِنَة -وهو سـيّدُ قبيلة اسـمها "القارة"-، فَقَالَ له ابنُ الدغنة:

- أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

فقال أبو بكر:

- أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي.

(٣) صحيح البخاري، الأطعمة، ٣٠؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٤٣.

قال ابن الدغنة:

- إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ (وكلامه يعني: أن إخراج رجلٍ مثلك من مكة يُؤدّي إلى حرمان مكّة من قيمةٍ مثلِك، ولا يليقُ بك أن تخرجَ ولا يليق بهم أن يُخرجوك).

فارتحل ابنُ الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم:

- إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ؟

فأَنفذت قريشٌ جِوارَ ابن الدغنة، وآمَنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مُرْ أبا بكر فليَعبُدْ ربَّه في داره، فليصلِّ، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذنا بذلك، ولا يَستعلنْ به، فإنا قد خَشينا أن يَفتِن أبناءَنا ونساءَنا.

قال ذلك ابنُ الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءةِ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وبَرَزَ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيزدَحِمُ عليه نساءُ المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بَكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فبينما كانت النشوةُ تغمره من حلاوة القرآنِ كلَّما تلاه؛ كان المشركون يستشيطون غضبًا ويفزعونَ فَرَقًا؛ فكلما كانت تلك الحال تعبقُ في ربوعِ مَن حولَه الروائحَ الطيبةَ كانت الحلقةُ حول الرسول ﷺ تتَّسِعُ، وهذا -بطبيعة الحال- هو ما كان يزيد المشركين حنقًا وغيظًا، فأفزعهم ذلك، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فَقَدِمَ عليهم فقالوا له:

- إنا كُنّا أَجَرْنا أبا بكر على أن يعبد ربَّه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءَنا ونساءَنا، فَأْتِهِ، فإنْ أَحبَّ أن يَقتصر على أن يعبد ربه في داره فعلَ، وإنْ أبى إلا أن يُعلِن ذلك، فسَلْهُ أن يردَّ إليك ذمّتَكَ، فإنا كَرِهْنا أن نُخْفِرك، ولَسْنا مُقِرّين لأبي بكر الاستعلانَ...

فَأَتَى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ:

- قد علمتَ الذي عَقدتُ لك عليه، فإما أن تَقتصر على ذلك، وإما أن تَردَّ إليَّ ذمتي، فإني لا أُحِبّ أن تَسمع العربُ أني أُخْفِرْتُ في رجلٍ عَقدتُ له.

قال أبو بكر ﷺ:

- إِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ[٤]، أي كيف يكون لي أن أتخلى عن تلاوة القرآن؟ هذا كلام الله... إنما أُنزلَ ليبلَّغَ للناس... فإن كنتَ لا محالة متخلّيًا عن جواري فإني سأواصِلُ مسيرتي في جوارِ الله ﷻ.

نعم، إن القرآن حلو المذاقِ، من ذاق طعمَهُ عَشِقَه... وله رائحةٌ من شمَّها لزمه، بل وحامَ حوله كما يحوم الفراش حول النور...فهذا هو حال المؤمن الحقيقيّ؛ وهكذا يتجلّى القرآن بأجملِ معانيه في روحِهِ وقلبِهِ وعلى لسانِهِ.

وأما المؤمن الذي لا يقرأُ القرآن فمَثَله كما قال الرسول ﷺ: "مَثَلُ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ"؛ فهذا المؤمن ذاقَ طعم الإيمان وأَدْرَكَ حلاوة القرآن، ولكن بِما أنه لا يقرأ القرآن فلن يستطيع أن يؤثِّرَ فيما حوله، وبالتالي لن يستفيد مَن حوله مِن تلك الرائحة الزكيّة، وهكذا يبقى

(٤) صحيح البخاري، الحوالات، ٧.

القرآن محصورًا، وهذا الإنسان مؤمنٌ ولكنَّه حَصَرَ روائحَ "القرآن المعجزِ البيانِ" في حدودٍ ضيّقة، وحَبَس في نطاقٍ محدودٍ ما عسى أن يَنشره القرآن من الأنوار في الآفاق، فهذا مثالٌ للمؤمن القاصرِ الفهمِ الذي لا يقرأُ القرآن، ولا يتمسَّكُ بحقائِقِهِ ودقائقه، ولا يحاول نشره.

ويواصل الرسول ﷺ حديثه قائلًا: "وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِى لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ".

فثمَّةَ حقيقةٌ عُظمَى ماثلة أمامنا، ألا وهي حقيقة القرآن، ونحن مكلَّفون بواجبات تجاهها، ولكن هذا الواجب لا ينحصر في حفظ المصاحف فقط. نعم، هذا شيءٌ مهمٌّ، ولكن يجب الحفاظ على المظروفِ أكثر من الظرفِ، بمعنى احترام الكنز أكثر من صندوقه، ولن نكون قد أدَّينا واجبَنا حقيقةً في تعظيم القرآن إذا وضعناهُ في غلافٍ وعلَّقناه في أحسن زاويةٍ من زوايا منازلنا... فلو وصلتكم رسالة من السلطان فهل ستقبّلونها وتضعونها على الرؤوس ثم تحتفظون بها في مكانٍ ما دون اهتمامٍ بمضمونِها، أم أنّكم ستفتحونها بكلِّ اهتمامٍ وتقرؤونها بكلّ دقّةٍ حتى تَطَّلعوا على ما يوجَّه إليكم من الأوامر!؟

فالله تعالى مَلِكُ الملوك، قد أرسل إليكم رسالة... رسالةً لها أهمية قصوى بالنسبة لكم، وفيها قضايا تتعلق بدنياكم وآخرتكم، فإن أخذتم هذه الرسالة وقبّلتموها ورفعتموها على هاماتكم ثم وضعتموها على الرفِّ، فهل -يا ترى- ستكونون قد أرْضيتموه؟!

إن القرآنَ المعجزَ "مرسومٌ سلطانيٌّ" ورسالة إلهيّة أُرسلت تكريمًا وتشريفًا لكم ولطفًا ورأفةً بكم، حتى تُنظِّموا حياتكم في ضوئها، وتصحِّحوا مسارَكم على منوالِها.

والله ﷻ يقول في هذه الرسالة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (سورة الإسْرَاء: ٧٠/١٧)، لقد كَرَّمَنا اللهُ بالقرآن، لأنه ﷻ يقول في حقِّ الغافلين المحرومين من القرآن: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾ (سورة الفُرْقَانِ: ٤٤/٢٥)، وهذا يعني أنَّ كونَ أحدِنا إنسانًا بقالَبِهِ وجِسْمِهِ لا يكفي لإحرازِهِ هذه الكرامة، فاهتمامُك بالقرآن المعجِزِ البيانِ سيكون له أكبرُ الأثر لِنيلِكَ إيَّاها.

ويقول الرسول ﷺ: "**اَلْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**"(٥).

كما أنه يُهدَف أحيانًا في إبداء الصدقات والجهرِ بها تحفيزُ الآخرين وترغيبُهم في الخوض والمشاركةِ في السباق إلى الخير؛ فكذلك يُقصد بالجهر بالقرآن جذبُ اهتمام الآخرين وتشويقُهم إليه.

وأما الاختلاء بالقرآن في جنح ظلام الليل فهو مِثْل الإسرار بالصدقة؛ فالمؤمن حينما يظفر بمثل هذا الخفاء، يبحث عن مكانه في القرآن ويحاول أن يجده فيه، فمن الأهمية بمكان بالنسبة للمؤمن أن يبحث لنفسه عن مكان له في القرآن حتى يضبط نفسه على منواله، فعمر بن عبد العزيز ومحمد بن كعب القرظي وكثيرون غيرهم كانوا يقرؤون القرآن طوال الليالي بهذا الشكل، وبلغوا بهذه الروح إلى أعماق القرآن ومعانيه الحقة.

والقرآن إذا تُلي بأداء جيّدٍ صادقٍ أضفى الحياةَ على روحِ الإنسان وقلبِهِ وأحاسيسِهِ، وعلى الخصوص إذا استمَعَ الإنسان إلى القرآن متخيّلًا أنّ دُرَر هذا الكتاب الكريم تتناثر من الفمِ المبارَكِ للرسول ﷺ، فإنه سيجدُ نفسه غارقًا في طمأنينةٍ لا حدَّ لها... وإذا ارتقى درجةً أعلى وتَخيَّل أنه يستمع إلى الفرقان بديعِ البيان من جبريل عليه السلام لحظةَ نزولهِ بِهِ غضًّا طريًّا

(٥) سنن أبي داود، الصلاة، ٣٢٢؛ سنن الترمذي، فضائل القرآن، ٢٠.

من عند الله ﷻ، فإن الروحَ عند ذاك ستتنسَّمُ نسائمَ يَعِزُّ وصفُها... وفوق ذلك كلِّه أنْ يتخيلَ الإنسانُ أن ربَّ العزة يخاطبه مباشرةً وأنه يستمع إلى القرآن من المتكلِّم الأزليِّ ﷻ الذي هو صاحب هذا الكلام -ولست أدري هل للقلب البشري طاقة لتحمُّل ذلك- فحينئذ ينقلبُ الإنسانُ إلى كائنٍ سماويّ.

## الفصل الأول

# جولة قصيرة
# في الآفاق القرآنية

## اشتقاق كلمة "القرآن"

القرآن لغةً: مصدر "قَرَأَ" بمعنى القراءةِ وبمعنى الجمعِ والضمِّ.

إنه كتابٌ جامعٌ يجمعُ الأجزاءَ المتفرِّقة ويؤلِّفها ويصوغُ وحدةً متكامِلَةً منها، ليس هناك أمرٌ لم يتطرَّقْ إليه القرآن، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (سورة الأَنْعَام: ٣٨/٦)، أي ما تركنا شيئًا لم يُذكر في القرآن، بل ذكرنا فيه كلَّ شيءٍ، ولكن جرى الحديث عن بعض الأمور صراحةً، وبعضِها بإشارة، وآخر برَمْز، وآخر بطَرف العين...

وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (سورة يُوسُف: ١١١/١٢)، ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سورة الأَنْعَام: ٥٩/٦)؛ فكل شيء -بدءًا من الذرات والجُزَيْئات وانتهاءً بالمجرَّات- مذكورٌ في القرآن، ولكن كلٌّ على حسب قدرِهِ وقيمته ومستواه؛ وحسبَ موقعه بين الحقائق القرآنية.

والرسول ﷺ يقول: "**مَا فِي كِتَابِ اللهِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ**"(٦).

(٦) **عبد الله بن المبارك**: الزهد والرقائق، ٢٣/٢؛ **الطحاوي**: شرح مشكل الآثار، ١٠٩/٨.

فلكلِّ آيةٍ ظاهرٌ وباطنٌ؛ ولكل حرفٍ وتفسيرٍ وتأويلٍ وقراءةٍ وكيفيةِ إنزالٍ حدٌّ، فيها تكمن حقائقُ إلهيّةٌ، فالباطنة منها لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، ولكل حدٍّ معنى سيُطْلعه الله تعالى ويُظهِرُه حيث يشاء.

ويقول الإمام جعفر الصادقُ ﷺ: "واللهِ لقد تجلّى اللهُ تعالى لِخَلقه في كلامه (أو: بِكلامه) ولكن لا يشعرون"(٧). نعم، إنّكم عندما تقرؤون القرآن كأنّكم تَرون الله تباركَ وتعالى، لأن القرآن ترجمانٌ يُظهر جميعَ الشؤون الذاتية لله ﷻ، واللهُ أشعرَ في القرآن بمظاهر وتجلّياتِ أفعاله وصفاته بشكلٍ يليقُ بِعَظَمَتِهِ ويتناسبُ مع استعدادات القلوب، فإذا قُرئ القرآن بالترتيل والتأني، ومع التدبّر في معانيه، وإعطاءِ كلِّ حرفٍ وكلمةٍ حقَّها؛ فإنّ القارئَ يترقّى ليصلَ إلى مقامِ "القُرْبِ من الله" إلى أن يتجلى الله له، وفي النهاية يتحقَّق له مقام "الجَمْع"(٨)... وهذا المعنى هو مما تنطوي عليه كلمة "القُرْآن".

وأما كلمة "الفُرْقان" فلها معنى غير الذي في كلمة "القرآن"، فإنها تشير إلى "الفرق" بين الخَلْق والحَقِّ تعالى، وتكشف عن سِرِّ العلاقة بين "العبد" و"المعبود".

---

(٧) **الزركشي**: البرهان في علوم القرآن، ٤٥٢/١.

(٨) "الجمع" لدى أرباب التصوّف هو تخصيصُ النظر ووقفه على الحقّ تعالى وحده، وتخصيصُ الشعور به وحده، وتخصيصُ الحسّ به وحده، والتبرّي ذوقًا وحالًا من الدنيا وما فيها من الأشياء، بحيث لا يراها ولا يشعرُ بها، والانغلاقُ دون ما سوى الله تعالى قلبًا، والتوجُّهُ إليه تعالى وحده، ومعرفتُه وحده والشعورُ به وحده ومشاهدتُه -حسب درجةِ معرفتِهِ- ونجاةٌ من الوقوع في التفرُّق والتشتُّتِ قصدًا بالنظر لغيره تعالى والانشغال به.

أما "الفرق" فهو مشاهدةُ الوحدة من خلال الكثرة، ومشاهدةُ الكثرةِ من خلال الوحدة بوضوح تام، وهو رؤيةُ الخلق منظورًا إليه من أفق المعرفة التامة لذات البارئ سبحانه، والحفاظُ على التوازن بين معية الحقّ تعالى وبين التواجد بين الخلق.

ففي "الجمع" المعرفة والمحبة والأذواق الروحانية، أما "الفرق" الذي يحتوي على "الجمع" فهو إبلاغ الآخرين هذه المعرفة، والمحبة، والذوق الروحاني والأحوال التي تعقبها، ولهذا قالوا: "إن من لا فرق له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له"، ولأجل هذا فلدى أربابه: "لا بد للعبد منهما". (فتح الله كولن: التلال الزمردية-٢، مقالًا: "الجمع" و"الفرق").

و"القرآنُ" يُعَبِّرُ عن معرفة العبدِ بالله، لأن القرآن "جَمْعٌ"، وكلَّما اقترب الإنسان من الله تعالى على الوجه الذي يقدّمه القرآن عَرف الله، ويصل به هذا الحال إلى أنه كلَّما قرأَ القرآنَ شعرَ وكأن الله هو الذي يُكلِّمه.

فبهذا المعنى سواء أقلنا: "القرآن" أم "الفرقان" فسنعلم أن ما يتمّ التفكُّر فيه في هذا الكتاب المقدَّسِ هو صفات الله وأسماؤه وآثاره، وسنُدْرِكُ أنه أقرب إلينا من حبلِ الوريد... وفي هذه النقطة النهائية التي هي أفق الكمال سيكون الله ﷻ سَمْعَنا الذي نسمع به، وبَصَرَنا الذي نُبصِرُ به، ويدَنا التي نبطشُ بها -بعبارة الحديث القدسي-، وكذلك يكون لسانَنا الذي ننطق به، وفؤادَنا الذي يستوعب الحقائق العظيمة... وهكذا سنسمع ونبصر باسم الله، ونفكر ونتكلم باسم الله، ونتخذ القرارات بحيث تُرضي الله... فالقرآن يتحدث عن هذا، وهو ترجمانٌ لمعرفةِ الإنسان بالله.

أما "الفرقان" فمِن "الفَرْق"، فالإنسان مخلوقٌ لا خالقٌ، وبهذا الاعتبار عليه أن يقوم بالعبودية لله خالقِه، إنه بمعرفته لخالقه يترقَّى إلى أفق الكمال، ويصلُ إلى أفقٍ يُدْرِكُ فيه أسرار الألوهيّة، ثم يرجع ويقول: "إنني لستُ بإلهٍ، بل أنا عبد!".

فـ"الفرقُ" ترجمان لحال العبد هذه، وتعبيرٌ عن رؤية الإنسان لـ"الخلق" وفنائِهِ بينهم، واحتجابِ الحقِّ عنه، وهذا أدنى مراتب "الفرق"، وبالمقابل هناك مقامٌ عالٍ لـ"أرباب المستوى" هو مقامُ مشاهدةِ الله في وجه كلِّ مخلوق، يعبَّر عن هذا بـ"مشاهدة الوحدة في الكثرة"، حيث تتحقَّقُ مشاهدةُ صفات الله الكمالية والجمالية وهي تتجلَّى في كلِّ شيءٍ وعلى مراتبَ شتّى، فالحُلوليُّ يقول ههنا: "كلُّ شيء هو الله"، وأما نحن تلاميذَ القرآن فنقول: "كلُّ شيء منه تعالى"، وبذلك نكون قد عبَّرنا عن أكبر مراتب "الفَرْقِ".

وينبغي للإنسان أن يتشبَّثَ بـ"القرآن" و"الفرقان" حتى يُحْرِزَ مقامَهُ عن طريق العبودية، وإلا فالعملُ والجهد الأحاديُّ الجانبِ لن يرقى بالإنسان إلى مثل هذا المقام السَّامي.

وهناك مقامٌ آخر يسمى "جَمْع الجَمْع"، مَن يصِلُ إليه يضمحلُّ عن عينه كلُّ ما سوى الله، بل إنّه يرى كلَّ الأشياء "عدمًا" من حيث ذواتها، فمن وجد في نفسه مشاعرَ كهذه لا يرى نفسَهُ ولا يشعرُ بها ولا بغيرها، ويبتعد عن "الفرق" تمامًا، فينسى كلَّ شيءٍ حيث إن كلَّ شيءٍ ظلٌّ لِظلِّ ضياء وجود الحقّ تبارك وتعالى، فيترك الانشغالَ بالظِّلِّ ويتوجه بكلّ كيانِهِ إلى الأصْل.

نعم، إن الكون عبارة عن تجليات الأسماء الإلهية، ومهما فسر البعضُ هذا الأمر بتفسيرات خاطئة، فإني أعتقدُ أن عرض الموضوع بهذا الشكل سيكون تعريفًا ملائمًا لروح القرآن.

## القرآن الكريم: نفمةٌ أبديّة خالدة

لم يُجِزْ بعضُ الفقهاء التغنّي بالقرآن، بمعنى تلاوتِه في أداءٍ ومقاماتٍ موسيقيّةٍ، وممّن ذهبَ إلى ذلك التابعيُّ الجليلُ الإمامُ سعيدُ بنُ المسيّب، والمجاهدُ الكبيرُ الذي استشـهدَ على يدِ الحجَّاج سعيدُ بن جبير، وكذلك من أئمّة ذلك العصر الذهبي الإمامُ النخعي، والمفسِّـرُ الكبير ابنُ سـيرين، ومن أئمة المذاهب الإمامان الجليلان: مالك وأحمد بن حنبل[٩].

ولكـن قـد يكون من الأنسـب لـروح هذا الديـن -الذي يأخـذ بعين الاعتبـار تلبيـةَ كلّ نوعٍ من حاجات الإنسـان من كلِّ المسـتويات- أن يتمّ تناوُلُ الموضوع وتقويمُه من زاويةِ تلبيةِ القرآن لحاجةِ الإنسان إلى استماعِ الترانيمِ العذبة والشدوِ الندِيّ، وأن يُدْرَسَ الحكمُ بناء على هذا الأساس.

فقد صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسـلم أن النبي ﷺ سمع أبا موسـى الأشـعري يقرأ القرآن ويتغنَّى به فقال: "**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْـتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**"[١٠].

فتـلاوة القـرآن الكريـم بأداءٍ حسـنٍ، وصـوتٍ جميلٍ، ونيـةٍ خالصةٍ؛ ستكونُ باعثةً لمحبَّةِ الآخَرين للقرآن الكريم، ولذا نَدَبَ الرسولُ ﷺ إليها.

وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي والإمام أحمد عن البراء بن عازب ﷺ قال رسول الله ﷺ: "**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**"[١١].

(٩) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ١٠/١؛ بدر الدين العيني: **عمدة القاري**، ٤٠/٢٠.

(١٠) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ٣١؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٣٦ (واللفظ لمسلم).

(١١) **سنن أبي داود**، الوتر، ٢٠؛ **سنن النسائي**، الافتتاح، ٨٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٤٥١/٣٠.

وقال ﷺ في حديث آخر أخرجه الشيخان: "**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**"(١٢).

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: "**اِقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**"، قلت: أَقْرَأُهُ عليك وعليكَ أُنْزِل؟ قال ﷺ: "**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**"، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتَّى إذا بلغتُ ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (سورة النِّسَاء: ٤/٢٥) قال ﷺ: "**أَمسِكْ**" فإذا عينَاه تذرفان(١٣).

فكأنَّ ثقلَ الآيات التي تلاها ابن مسعود أنهكَ الرسولَ ﷺ، ولو أنه واصَلَ قراءته لذابت الذاتُ الشريفةُ صلوات ربي وسلامه عليها.

وفي حديث آخر يقول ﷺ: "**اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ بِالْحَزَنِ؛ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِالْحَزَنِ**"(١٤).

أجل، لقد نزلَ القرآنُ بالحَزَنِ، فينبغي تلاوته بقلبٍ حزينٍ منكَسِرٍ، والإنسان العاجز الفقير الذي يتقلَّب بإمكاناته المحدودة وقدرتِهِ الضئيلة في صحراء الوحشةِ هذه، إذا تمسَّكَ بالقرآنِ ذلك الحبلِ المتين فسيرتقي إلى سماء "الإنسانيّة"، وسيسمو إلى آفاق "الإنسان الكامل"، وسينجو بنفسه من هذه الدُّوامة، ويتخلَّصُ من الجوّ الخانق لِتيهِ الدنيا، ومن وحشة العُزلة والوحدة، فالقرآن يجعلُ الإنسانَ يعيش هذا الجوَّ ويشعر بهذه المشاعر، فلا بدَّ لقارئ القرآن أن يقرأه في مثل هذا المناخ، وذلك منوطٌ بمدى تعمُّقِهِ في معانيه الجليلة، فالإنسان ما لم يسبرْ أغوارَ معاني القرآن، وخصوصًا إن لم يبحث فيه عن المقاصِدِ الإلهيّة؛ فإنه لا يستطيعُ أن يُبْحِرَ في أسراره، ولا أنْ يَشْعُرَ في قلبِهِ بتأثيرِهِ وآثارِهِ.

---

(١٢) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ١٩؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٣٣ (واللفظ لمسلم).

(١٣) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ٣٣، ٣٥؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٤٧-٢٤٨.

(١٤) **معجم أبي يعلى**، ١/١١٣؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٣/١٩٣.

## جَمعُ القرآن وحفظُه

إن الصحابة الكرام والتابعين العظام كانوا يقطعون المفاوز والقفار في سبيل تَجْلِيَةِ حقيقةٍ واحدةٍ من حقائق القرآن؛ وفي هذا الخصوص يَروي الإمام الشعبي حادثةً من سِيرةِ مسروق بن الأَجْدَع؛ يقول:

"ما رأيتُ أَحَدًا أَطْلَبَ للعلم في أُفُقٍ من الْآفَاق من مَسْروقٍ، خرج مسروق إلى البصرة إلى رجلٍ يسأله عن آيةٍ، فلم يجد عنده فيها علمًا فأخبره عن رجل من أهل الشام فقدم علينا ههنا ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها"(١٥).

فهيا نفكر قليلًا: إنَّ عملاقًا مِثلَ مسروق يَجُوبُ المَهامِهَ والبواديَ، في ظروف تَشقُّ فيها الأسفارُ، ويَقطع المسافرُ بحارًا من الرِّمال، ولا توجد فيها مِن وسائل النقلِ السريعةِ إلا الخيلَ والآبالَ... ولكنه يخاطر ويتحمّلُ كلَّ ذلك حتى يتعلمَ تفسير آيةٍ من كتاب الله غيرَ مبالٍ بما قد يتعرَّضُ له من المهالك والأهوالِ، ومع ذلك حينما لا يجدُ ما يطلبه لا يستنكف من أن يستأنف الرحلة ثانية بكلِّ عزيمةٍ وراحةِ بال.

(١٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ٢/٩٥.

وها هو المفسر الكبير عِكْرِمة تلميذُ ابن عباس ﷺ ومولاه، يقول:

"طلبتُ اسمَ الرجل المعنيّ بقول الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ أربع عشرة سنة حتى وجدتُه"(١٦).

ولا شك أن السبب في بذلِ سيدنا عكرمة كلَّ هذا الجهد في البحث عن اسم هذا الشخص طوالَ هذه المدة هو أن العثور عليه والتعرّفَ على طبيعته وموقعِه الاجتماعي سيُلقي الضوء على تفسير الآية الكريمة.

وعن ابن عباسٍ ﷺ قال: مكثتُ سنةً أريد أن أسأل عمرَ بن الخطاب عن آيةٍ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له، حتى خرج حاجًّا فخرجتُ معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقفتُ له حتى فرغ ثم سِرتُ معه، فقلتُ:

"يا أمير المؤمنين مَن اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه (أي اللتين تعنيهما الآية الكريمة: ﴿**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ (سورة التَّحْرِيم: ٦٦/٤)؟".

فقال: "تلك حفصة وعائشة"، فقلت: "والله إن كنتُ لَأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك".

قال: "فلا تفعلْ، ما ظننتَ أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علمٌ خبَّرتُك به"(١٧).

(١٦) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ٢٦/١؛ أبو حيان: **البحر المحيط**، ٤٤/٤.

(١٧) **صحيح البخاري**، تفسير القرآن، تفسير سورة التحريم، ٢؛ **صحيح مسلم**، الطلاق، ٣١.

وهنـاك آلاف من الأمثلة يمكن سـردها على هـذا المنوال؛ فالصحابة والتابعـون كانـوا يكِـدُّون في سـبيل الكشـف عن حقيقـة قرآنيّـة واحدة، ويَقْضُون في ذلك أيامًا بل أسابيـع وشهورًا وسنين... لا يعرفون كللًا ولا ملالًا.

إن القرآن الكريم نزل منجّمًا على ثلاثة وعشـرين عامًا، وطوالَ نزولِهِ كان يُكتب إمَّا على العُسب وقِطـع الأحجار أو العظام، أو جريد النخل، أو الرقاعِ حسب الإمكانات الضئيلة لتلك الحقبة، وكذلك كان في تلك الفترة عـدد غيرُ قليل من الذين يسـتظهرون القرآن كامـلًا، لأنهم كانوا يحفظون كلَّ آيـة مـن القرآن فورَ نزولِها؛ فقد كان ابن مسـعود وزيد بن ثابت وأُبَيّ ابـن كعب وسـيدنا عثمان ﷺ ومئات غيرهم قد حفظـوا القرآن كاملًا عن ظهـرِ قلـب، وكان للنبـيّ ﷺ كُتَّاب يكتبـون الوحيَ، فـكان إذا أنزلت عليه الآيـة أو الآيـات دعـا بعـض كُتَّابه، فأملى عليـه ما نزل، فكتـب بين يديه، وكان يأمرهـم بوضـع الآيات في مواضعها المخصوصة من سُـوَرِها، فهم بِدَورِهِـم كانـوا يضعونَهـا موضعَها ويحفظـون القرآنَ على هـذا الترتيب، فكانَ ترتيبُ السور أيضًا من الأمور التوقيفيّة التي تمّت بالوحي.

ولما استُشهد في واقعة "اليمامة" عددٌ كبيرٌ من القرّاء؛ قَلِقَ سيدنا عمر ﷺ قلقًا شديدًا فقال لسيدنا أبي بكر ﷺ:

"إنّ القَتل قد استحرَّ -أي اشتدَّ وكَثُرَ- يومَ اليَمامة بقُرَّاء القرآن، وإني أخشـى أن يسـتحرَّ القتلُ بالقرّاء بالمَواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني أرى أن تأمرَ بجمـعِ القرآن".

أمـا أبـو بكـر ﷺ فقـد كانـت فرائصه ترتعـد تجاه هـذا الأمـر البالـغ الحساسيّة، فهو الذي سبقَ له أن قال: "أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني،

إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم"[١٨]. نعم، لقد ارتبكَ الصِّدِّيق أمام هذا الاقتراح، وزأرَ مثل الأسد الهصورِ قائلًا: "كيف تفعلُ شيئًا لم يفعله رسولُ الله ﷺ؟".

ولكن سيدنا عمر ﷺ شرحَ له بالتفصيل مدى حساسيّة هذا الأمر وأهمّيّته مما دفعَ بسيدنا أبي بكر ﷺ إلى أن يقول: "فلم يزل عمرُ يراجعني حتى شرح اللهُ صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمرُ"، أي إن عمرَ ﷺ مصيبٌ في هذا الأمر؛ فلا بدَّ مِن جمعِ ما تفرَّق من صحف القرآن بين دفّتي مصحف وعلى هيئة كتاب.

ولكن من ذا الذي كان سينهض بهذه المهمّة!؟

تذاكرا وفكَّرا في الأمرِ مليًّا، إلى أن اجتمع رأيهما على زيد بن ثابت، حيث كان ﷺ من الذين يَثِقُ رسول الله ﷺ بحفظهم وضبطِهم للقرآن، يقول زيدٌ ﷺ:

قال لي أبو بكر: إن عمرَ أتاني فقال: إن القتلَ قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرّاء في المواطن، فيذهبَ كثيرٌ من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تَجمع القرآنَ، فقلتُ لِعُمَر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله صدري، ورأيتُ الذي رأى عمر، إنك (يا زيد) رجلٌ شابٌّ عاقل ولا نتّهمك، كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعِ القرآنَ فاجمعْه.

يقول زيد ﷺ: فوالله لو كلَّفَني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كانَ أثقلَ عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلتُ: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله

(١٨) موطأ الإمام مالك، ١٦٦/٢؛ ابن أبي شيبة : المصنف، ١٣٦/٦.

النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزلْ أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرحَ الله له صدرَ أبي بكر وعمر، ورأيتُ في الذي رأيا فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَنْسَخُهُ مِنَ الصُّحُفِ وَالْعُسُبِ وَاللِّخَافِ (الحجارة الرِّقاق) وَصُدُورِ الرِّجَالِ[١٩].

وكذا فقد جُمِعَ كلُّ ما كان متفرِّقًا من القرآن، وتمَّ هذا تحت إشراف سيدنا أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة ﷺ، فحصلَ الإجماع على القرآن الذي جُمِعَ على شكلِ كتاب.

وفي عهد سيدنا عثمان ﷺ ظهر نزاعٌ سببُهُ اختلافُ وجوه القراءات، فقد روي عن رسول الله ﷺ "**إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**"[٢٠]، فمهما كان المقصود بـ"سبعة أحرف" -على اختلاف ما قيل فيها- فقراءة القرآن بأشكال مختلفة أدَّى إلى حدوثِ خلافٍ بين المسلِمين.

يقول أنسُ بن مالك ﷺ:

إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان وكان يغازي أهلَ الشأم في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأَفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمان: "يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأُمَّةَ قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى"، فأَرسلَ عثمانُ إلى حفصة ﷺ زوج النبي ﷺ: أنْ أَرسِلي إلينا بالصُّحُف نَنسخها في المصاحف ثم نردَّها إليك، فأَرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمان، فأَمر عثمانُ زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمانُ للرهط القرشيِّين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش،

(١٩) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣.

(٢٠) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٥؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ٢٧٠.

فإنما نزل بلسانهم"، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمانُ الصُّحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يُحرق[٢١].

فما زال القرآن محفوظًا إلى يومنا هذا بالرسمِ العثماني الذي أُقِرَّ في عهدِ عثمان ﷺ طبقًا للأصل الذي أُخِذَ منه... والواقع أن الله تعالى هو الذي تولَّى حفظه كما بيَّن ذلك في قوله الكريم: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: ٩/١٥)، وسيحفظه إلى يوم القيامة، وإذا نحن رعيناه وتولَّيناه فسنكون نحن وسائل حفظه، وبذلك ستتنوَّرُ بيوتُنا وبلادُنا بنورِهِ.

نعم، إننا إذا اتخذناه تاجًا ورفعناه فوقَ هاماتِنا، فسنرتقي إلى مستوى نكون فيه التيجانَ على رؤوس الإنسانية.

(٢١) صحيح البخاري، فضائل القرآن، ٣.

## القرآن "كلام الله"

إن "الكلامَ" صفةٌ من صفات الحق تعالى، وهو ﷻ "المتكلّم الأزلي".

واللهُ تعالى خلقَ الكائنات بما فيها من بني الإنسان، ثم بيَّن حقيقةَ الكون وشرحَ لنا أنفسَنَا وذواتنا، وبيَّن ماهيّةَ الإنسان تلك التحفة الفنية، ووضّح وحلّ معنى ذلك اللغزِ المحفوفِ بكوامن الأسرار، وهو تعالى يتحدَّثُ عن ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ، لكن لا يُمكننا إدراك كُنْهِ كلامِ الله، حيث إننا عندما نقول "كلام الله" نعني به واحدًا من معنَيين اثنين:

الكلامُ النفسيُّ، وهو صفة لله قديمة أزليّة مثل سائر صفاته تعالى، وهو معنًى قائم في نفسه تعالى لا نستطيع إدراك كنهه ولا نصلُ إلى فهمِهِ.

الكلام اللفظيّ، وهو النَّظْم المصوغ من الحروف والأصوات، والمُعبَّرُ به عن الكلام النفسي.

نعم، إن صفةَ الله "الكلام" صفةٌ قديمةٌ قائمةٌ بذات الله تعالى، فلم يكن هناك شيءٌ بعدُ، لم يكن الكونُ والعوالم والأشياء والإنسان موجودًا، ولكن الله تعالى كان "متكلِّما" متَّصفًا بصفةِ الكلام.

إن القرآن أزليٌّ، وكان القرآنُ موجودًا حيث لم يكن سوى الله شيءٌ، ولكن بمعنى "الكلام النفسيّ".

وهذه النقطة دقيقةٌ جدًّا ومن مزالقِ الأقدام، نريد أن نلفت النظر إليها بإيجاز:

حينما يُتلى القرآن أو يُسمع أو يُكتب؛ فإنَّ الكلامَ النفسيَّ يُفْهَمُ من خلالِ الألفاظِ؛ فإذا قلنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مثلًا، فكلمة "إنَّ" تحتوي على الهمزة والنون، والكلمات الأخرى أيضًا تألَّفَتْ من حروف مختلفة، وهي تراكيب لفظيّة، وحينما نكتب هذه الحروف أو ننطق بها؛ يتجلّى لنا كلامُ الله النفسيُّ ويُشعرنا بذاتِهِ بكلّ ثِقَلِهِ.

ولو فرضنا أن التراكيب اللفظيّة والحروفيّة قد يسأمُ الإنسان من إعادَتِها وتكرارها، ولكن الذي ينفذ إلى معانيها القرآنية القدسيّة لن يسأم ولن يعتريه المللُ قطعًا، فالإنسانُ يشعر بهذا المعنى النفسي مجهولِ الكيفيةِ بالنسبة إلينا، لكن ليس له أن يحيط به علمًا، وأما اللذة الروحانية التي يلمسها القارئ فليس إلى شرحها ووصفها من سبيل؛ فكما أننا لا ندركُ ماهيّة الوحي ومَبْلَغُنا من العلم به هو الوقوفُ منه موقف الحيرة والاندهاش؛ فكذلك القرآنُ إذا تلوتَه واستمَعْتَ إليه على الوجه اللائق فإن هناك وراءَ ظاهِرِ الألفاظ والمعاني معانيَ مستَتِرة يُدْرِكها الإنسان ويشعر بها بحيث لا نستطيع في هذا الباب إلا أن نقول: إن نصيبَنا من "المعرفة" في هذا المقام ليس إلا الاندهاش والانبهار.

وإنا إذا فهمنا الأمر على هذا المنوال، أيقنَّا أنّ ما تقوله المعتزلة من "أن المتكلم يعني مُوجِد الكلام"، وما يجازف به الحشوية من "أن كل ما بين دُفَّتَي المصحف قديمٌ أزليٌّ من الخطِّ إلى الورق الذي يُكتب عليه"؛ ليسَ إلا لغوًا من الكلام.

فالأصوات والحروف والكلمات والجمل مخلوقةٌ باعتبارها أدواتٍ خُلِقَتْ كي نستعملَها نحن البشر. أجل، فالقرآن يحتوي حروفًا وأصواتًا،

مهمّتُها أن تُعبِّرَ لنا عن الكلام النفسيّ الذي يفوقُ إدراكَنا بما لا يُقاس، لكنّنا نشعرُ به ونتلقَّاه من ثنايا هذه الحروف والكلمات، وبهذا الاعتبار فإن "كلام الله" ذلك الكلامُ الأزلي ذو الأبعاد الخاصَّة -أو قلْ: ذو شأنٍ يفوقُ كلَّ الأبعاد والكيفيَّات-، ويعبّر عنه كلٌّ مِما بين دفّتي المصحف وما يُتلى على أفواه الناس وما تحتويه صدورُ الحفّاظ.

## نظرة خاطفة إلى إعجاز القرآن الكريم

إن القـرآن الكريـم مُعجِـزة، والمعجزةُ: أمرٌ خارقٌ للعـادة، يُجريه الله تعالى على يدِ الأنبياء لإثبات دعوى النبوة؛ حيث يَخرُج إلى الناس شخصٌ فيقولُ لهم: "إني رسول الله"، فيتوقَّـعُ الناسُ منه أمورًا خارقةً للعادة لتكون دليـلًا علـى نبوَّتِهِ، فيُجـري اللهُ على يديه أمورًا يَعجز الإنسـانُ العاديُّ عن الإتيان بمثلها، فهذا ما نسميه "معجزة".

ويُشترَط لتسمية مثل هذه الأمور "معجزة" أن تكون خارقةً للعادةِ وأن يكون صدورُها متزامنًا مـع دعوى النبوة وموافقًا لها.

لقد ظلَّ القرآن يتحدّى البشـرَ منذ أربعة عشـر قرنًا فيقول: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُـورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ (سـورة البقرة: ٢٣/٢)، ولكن البشرية لم تستطـع بتاتًا أن تأتي بمثلِهِ، ولن تستطيـع.

نعم، إن القرآن الذي أنزله الله، واستمرأَتْهُ الأفئدة والقلوب، وسُطر في الصحف، واستظهره الحفّاظ؛ لهو كلام الله المعجزُ!

والآن لنَعْرِض الجوانبَ الإعجازية للقرآن الكريم بإيجاز:

١- نَظْمُ القرآن...

فنظمُه بديعٌ مختلفٌ عن كلِّ أشكال النَّظْم المعروفة، حيث إن أهلَ الجاهلية لما سمعوه وجدوه غريبًا، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسندوا إليه أي نقصٍ ولم يعثروا فيه على مثلبة... فنظمُه معجز من هذه الناحية، ومن جانب آخر نراه قد أثرى اللغة العربية وأثَّر فيها، واستخدَم كلَّ كلمةٍ في مكانِها المناسب، وضَبَطَ القواعدَ النحويّة والبلاغية، وقعَّد قواعِدَهَا وكأنه نزلَ بِأُسُسِ قواعدِ علمِ الصرفِ والنحوِ والبلاغةِ... ومع ذلك إنه واجه الناسَ بأسلوبٍ تعبيريٍّ مختلفٍ وفريدٍ.

٢- يتمتَّع القرآن بجزالةٍ خارقة لا ندَّ لها... فالقضايا التي تناولها القرآن كبيرةٌ جامعةٌ منطويةٌ على معانٍ شتى، فليس بمقدور البشر أن يحيطَ بها عِلمًا، فالذي تناولَ الحقائقَ التاريخيَّةَ كلَّها بأحكَمِ شكلٍ منذ بداية خلقِ الكونِ إلى يومنا هذا هو القرآن المعجِزُ البيانِ.

٣- إن القرآن الكريم نزلَ في ثلاثةٍ وعشرين عامًا، وفي مناسباتٍ مختلفةٍ، وخاطبَ فئاتٍ متنوّعةً وشرائحَ متعدّدةً، لكنه بانسجامه الخارقِ وتَناسُبِه القويّ يبدو وكأنه نزلَ مرَّةً واحدةً ولسببٍ واحدٍ ولمخاطَبٍ واحدٍ، وقولُه تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (سورة النساء: ٨٢/٤) يشيرُ إلى هذه الحقيقة، أي أفلا يتفكّرون في أوَّل القرآن وآخرِه، ويُمعِنُون فيه النظرَ المرَّةَ تلوَ الأُخرى، حتى يتبيّنَ لهم أن القرآنَ لو كان كتابَ غيرِ الله، لكان فيه من الأحكام ما يُناقِضُ بعضُه بعضًا... والحال أن فيه من التناسب والانسجام، بحيث إن الذي يملك أقصى مستوى من الذكاء والمواهب لن يقدرَ على أن يكتبَ سطرين على هذا المستوى من التناسب، فإن القرآن بدءًا من "الْحَمْدُ للهِ" وانتهاءً بـ"مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ" وحدةٌ متكاملةٌ كأنها تتحدّث عن قضيّةٍ واحدةٍ.

ومع أن هناك من ادَّعى "أن الله صَرَف الهِممَ عن معارضة القرآن ولذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلِهِ"، إلا أنَّ القلبَ لا ينصاعُ لتقبُّل هذه المقولةِ، فالقرآن بكلماتِهِ وآياتِهِ وجُمَلِهِ يتحدى في الميدان، فليتفضَّل أهلُ هذا العصر وليأتوا بنظيرِهِ، أو -على الأقل- بعشرِ سورٍ تنافسُ سورَه، أو حتى بسورةٍ من مثله... كلا! إنهم لن يَقدِروا على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا.

## القرآن من حيث مضامينه

### أ. القرآن تفسيرٌ لِكتاب الكون

لا بدَّ لكتابِ الكونِ هذا -الذي رُصِفت سطورُه وصفحاتُهُ بِدِقَّةٍ وانتظام- من قارئٍ يقرؤُهُ ويُمعِنُ النظرَ فيه، وهذا القارئ هو الإنسان، والذي يفسِّرُ للإنسانِ هذا الكتاب ويُساعِده على فهمِهِ هو القرآن، فالله ﷻ مِن فضله أنعمَ بالقرآن الكريم -الذي هو ترجمةُ هذا الكتاب وتفسيرُه- على الإنسان الذي لا يستطيع أن يُدرِكَ ويستوعبَ تلك المعاني الكبيرة العميقة التي يحتويها كتابُ الكون، فلا يمكننا أن نلحظ هذه المعاني الكبيرة لأوَّلِ وهلةٍ على صفحات الكون العريضة وطبقاتها الشاسعة، ويمكن رؤيتُها في القرآن الكريم على شكل فهرس، وهذا في الوقت نفسه لون آخر من رحمة الله بالإنسان؛ لأن الذي خلق الكون هو الله ﷻ، والذي جعل كتاب الكون يتحدَّث عن نفسه هو الله؛ فكما أن أحكامَ غير الله في حقِّ الكون تحتمِلُ الخطأَ؛ فكذلك الحُكم حول الإنسان.

إن الكون ملك الله... والقرآن كلام الله... والإنسان عبد الله... والذي يؤسّس العلاقة بين هذه العناصرِ الثلاثه هو الله... وفي هذا السياق يقول الله: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٥٣).

يعني -والله أعلم- أن الناسَ مهما حاولوا أن يتخصَّصوا في أيّ علمٍ من العلوم، فإننا سنوضّح لهم من خلال هذه العلوم بكلِّ وضوحٍ وجلاءٍ آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم، وسيُخبِرهم العِلْمُ بأنَّ ماهيَّةَ الإنسانِ ليست عبثًا أو دون نظام، وأن الفرضيات والنظريات الأخرى المطروحة في هذا المجال خاليةٌ عن أيّ سندٍ أو دليل، وأن هناك وراءَ لُغْزِ الإنسانِ حقائقَ، وأنهم سيستشعرون بهذه الحقائق في أنفسِهم، والذين يُدَقِّقُون في الكون من شتى جوانِبِهِ سيستشعرون هذه الحقائق ناصعةً جليَّةً، وسيُطْلِعون الآخرين على ما عَثَرُوا عليه من حقائق.

إن القوانين المختلِفَةَ الموجودةَ في الكون تُسَمَّى "الآيات التكوينيّة"، ومهما كانت أسماءُ هذه القوانين فلن تؤثّر على ماهية الأمر... وكلُّ قانونٍ من هذه القوانين آيةٌ من آيات الله تعالى، فالقرآنُ الذي هو نابعٌ من صفة الله: "الكلام"؛ إنما هو ترجمانٌ أبديٌّ لهذه "الآيات التكوينية" النابعة من صفة الله تعالى: "التكوين".

نعم، إن القرآن يقف على الكون متحدِّثًا عنه فيقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠/٣)... فخلْقُ السماوات والأرض، وتَداوُلُ الليل والنهار في انتظام واطِّراد، والمناسبةُ بين السماء والأرض بتبخُّر مياهِ البحار وإنزال السماء قطراتِ الغيث على الأرض المحتاجةِ إلى الماء، وشقُّ النبات للتراب وخروجُه إلى وجه الأرض بارزًا، ونموُّ كلِّ شيءٍ حسب قانون النشوء والنماء... كلُّ ذلك من آيات الله تعالى، فالقرآن يُفَسِّرُ لنا شتّى آيات الله وقوانينَه الساريةَ في الكون ويبيّنُها لنا.

والآن لنتطرَّق -ولو بإيجازٍ- لكيفيةِ شرحِ القرآن لهذه الآيات:

**١- معجزةُ اللبَن:**

**﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾** (سورة النَّحْلِ: ١٦/٦٦).

إن الأغذية التي يتناولها الحيوان تُلبي حاجةَ جسمِهِ من البروتين والفيتامين والكالسيوم والحديد وغير ذلك... وأيُّ نقصٍ في واحدةٍ من هذه يؤدّي إلى بعض الأعراض الجانبيّة في الجِسْمِ، وإذا حان الوقت المحدَّدُ فإنّ الله يستخرِجُ من بين لحمِ هذا الحيوان ودمِهِ وعروقِه وشراييِنه وأعصابهِ لبنًا مستساغًا لذيذَ المذاق.

والمواد التي يأكلها الحيوان بعضُها يتحلَّلُ في فمِهِ وبعضُها في معدَتِهِ، ومعظمُها يُهضَمُ عَبر الأمعاء الدقيقة، وبعد أن تتمّ عملية امتصاصها من قِبَل الشُّعيرات الموجودة في الأمعاء، تمرّ مع الدم من خلال الغدد الحليبية، فتخضع لعمليّةِ تصفيةٍ ثانيةٍ، وبعضُ المواد المغذية تُساق إلى المراكز التي تحتاج إليها، وتوزَّع في الخلايا حسب الحاجة، وبعضها يصير لبنًا في الغدد الحليبية، وهذا اللبن يذهب بعد ذلك ويتجمَّعُ في الثدي، ونحن نحلب هذا اللبن الذي هو بالنسبة لنا مصدر البروتين ونشربه فيمنحنا الطاقة.

وهذا الأمر الذي عرضناه باختصار هو ظاهرةٌ يعترف بها العلمُ والمشاهدةُ والاستقراء، أي إنه أمر يقول به البحث العلمي...

والآن، تعالوا بنا نُلْقِ نظرةً على الآية المتعلقة بالموضوع، في ضوء هذه المشاهدات العلمية:

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ (أي في حياتها وكيفية تناوُلِها الغذاءَ) لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ (أي من بعضه لا كله، فـ"مِن" في قوله "مِمَّا" للتبعيض)، ثم تشرح لنا الآيةُ كيف يتكوّن ما في بطونِ الأنعام فتقول: مِنْ

بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ (أي إن هنالك شيئين: الفرث والدم، فالفرزُ الأول يكون من بينهما، والفرز الثاني يكون في الدم خاصّة؛ فالمواد المغذّية تتحوَّل إلى دمٍ تمتصُّه الأمعاء، ثمَّ تبدأ الغدد الحليبيّة بممارسةِ مهامّها وتصفية الدم واستخراجِ الحليب منه، وهذه هي عمليّة التصفية الثانية)، "لَبَنًا خَالِصًا" (أي يكون لبنًا نظيفًا بكلّ معنى الكلمة، صافيًا خالصًا من الشوائب).

فالمادة التي تخرج من الفرث يَعافُها الإنسان، ولكي يزيل القرآنُ هذا قال أولًا: "خَالِصًا"... ومن جانب آخر قد يُخَيَّلُ للمرءِ أنه غير مستساغٍ لأنه يخرجُ من بين الفرثِ والدمِ وأن الشاربَ سيَغَصُّ به، قال: "سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ"، فاللبنُ يخرجُ من بين الفرثِ والدمِ لكنَّه لا يحمل أيَّةَ صفةٍ كريهةٍ لا من الفرث ولا من الدم.

فالرسول ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتبُ، وقد أجمعَ على ذلك كلّ مَن عاصره، من مؤمنٍ وكافرٍ ومنافقٍ، كانوا متَّفقين على أنه لا يعرفُ القراءةَ ولا الكتابة، ورغم أمّيَّتِهِ نسمعُ آياتٍ كهذه صدرت من فمِهِ المبارك، وبعد أربعة عشر قرنًا نرى أن هذه الآيات تشير إلى حقائق علمية لا يمكن إدراكها إلا عن طريق الأشعة أو البحث العلميّ الدقيق!

فهذه الحقيقة تدل بكل نَصَاعةٍ ووضوحٍ على أن القرآن كلامُ علّامِ الغيوبِ ﷻ، وبنظرةٍ خاطفةٍ يمكن للإنسانِ التحقُّقُ من هذا الأمر، شريطةَ أن يتحرَّرَ من الأحكام المسبقة.

### ٢- تقلّ نسبةُ الأكسجين كلما صعد الإنسان إلى الأعلى

**﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** (سورة الأَنْعَامِ: ١٢٥/٦).

أي مَـن أراد الله هدايته مِن الذين اسـتعملوا إرادتهـم في الخير؛ بَعث في قلبه الطمأنينةَ وجعله يستسـيغ الإسـلام، ومن أراد ضلالتَه مِن الذين اسـتعملوا إرادتهـم في الشـر؛ ضيَّق صدرَه كالـذي يكابِدُ مشـاقَّ الصعود إلى السـماء، فالأوَّلُ سـيطمئن قلبه ويهدأُ فؤادُه بالإسـلام، والثاني سيظلُّ متخبّطًا في حالاتٍ من القلق والاضطراب.

لكـنَّ القرآن صورَ حالةَ الأخيرِ بطريقةٍ فريدةٍ وتشـبيهٍ بديعٍ لم يُسـبَق إليه، فقال: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تتقطَّعُ أنفاسه ويبَحُّ صوتُه ويضيقُ صدرُه كأنه يعاني من قلّة الهواء وندرةِ الأوكسجين.

فنلاحظ في هذه الآية تشـبيهًا، ومن المسـلَّمِ به أنَّ وجهَ الشَّـبَهِ لا بدَّ أن يكون أقوى وأوضح في المشـبَّه به منه في المشـبَّه، فنحن إذا أردنا أن نتحـدَّثَ عـن صفاء الجوِّ وقلنا: "الجوّ هنـا مثل الجوّ في المريخ" لم نأتِ بمثالٍ يفي بالغرض، لكن يفيد المخاطبَ ما يحكيه المتكلِّمُ عما تحقَّق منه وعاينه بحيث صار واضحًا عنده.

فالقـرآن فـي هذه الآية يشـبِّه ضِيقَ الصدر بشـيءٍ مجهولٍ لأهلِ ذلك الزمان، لكنَّ ذاتَ الشـيءِ توصلَت إليه البشـرية عن طريق البحثِ العلمي إلى أنّه قانون علميٌّ صرف.

وما اختاره القرآنُ من الكلمات يعين على المعنى، منها:

طبيعـة كلمة "يَصَّعَّد"، حيـث إن هذه الصيغة تدلُّ على التكلُّف، فتفيد أن هناك معاناة وإرهاقًا.

المدّ في كلمة "السـماء" يُشـعر عند تلفُّظها بما يَشعُر به من يصعد إلى السماء.

والجملة بصياغتها وطبيعتها تعطي هذا الشعور، وتخلقُ هذا المناخ.

ولم يكن أحد يعرف آنذاك أنَّ صدر الإنسـان يضيقُ وتتقطَّع أنفاسُـه

كلّما صعد وارتفعَ إلى الأعالي، وهذه الحقيقة إنما تَبيَّنت بعد أن استفاد الناس من تقنيّات القرن العشرين وقاموا برحلاتٍ جوّيّة بواسطةِ المناطيد والطائرات.

والقرآن الكريم حينما تحدَّث قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان عن ضِيق صدر الإنسان غير المؤمن استَعمل تشبيهًا لطيفًا، وأشار بأسلوب يليقُ بمقامِهِ السامي إلى أن نسبة الأكسجين تقلُّ تدريجيًّا كلّما صعد الإنسان إلى الأعلى.

وهكذا يبين القرآن ما يعانيه إنسانُ عصرنا هذا من شتى أنواع الاكتئابات والإرهاقات الروحيّة والنفسيّة، فيخاطبنا نحن بالذات، لأن إنسان هذا العصر يمكنه أن يَعرف هذه الحقيقة العلميّة.

### ٣- خَلْقُ كلّ شيء زوجين

يقول الله ﷻ: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٤٩).

إن لفظة "كُلّ" إذا أُضيفت إلى معرفةٍ أفادت عموم الأجزاء، وإذا أضيفت إلى نكرة أفادت عموم الأفراد، بمعنى أن كلَّ فردٍ من أفراد المضاف إليه يدخل تحت الحكم، فكلمة "شيء" في هذه الآية نكرةٌ تعمُّ كلَّ الموجودات، وهذه الكلمة تأتي بمعنى "موجود" لذا يصح إطلاقُه على الله تعالى أيضًا باعتبارِهِ موجودًا بل واجب الوجود، ولكن بما أن المتكلم هنا هو الله تعالى فهو خارج عن هذا الحكم، فما عدا الله تعالى من الموجودات خَلقَه اللهُ زوجين.

فكما أن هذا الحكم جارٍ على بني الإنسان فكذلك على سائر الحيوانات، والنباتاتُ كذلك خُلِقَتْ زوجين؛ فيها الذكر وفيها الأنثى،

حتى إن الذرَّات التي هي المادة الأصليّة لكلِّ الأشياء زوجان: موجبٌ وسالبٌ، وتتجلّى الزوجية في الأشياء من جانب آخر وهو وجود القوّة الجاذبة والدافعة في كلِّ شيءٍ، إذ لو انعدمت هذه الخاصية من الأشياء لم يكن بمقدور الموجودات أن تحافِظَ على استمراريّة وجودِها.

وقولُه تعالى في سورة يس: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة يس: ٣٦/٣٦) يبين هذه الحقيقة بمزيد من التفصيل.

فمِن الملاحَظ أن هناك أمورًا يشير إليها القرآن كانت خارجَ نطاقِ ما يشاهده المخاطَبون الأوّلون بالوحي في تلك المرحلة، ولم تكن معلومةً في تلك الحقبة، فيقالُ لهم: إن هناك أشياء أخرى لا تعلمونها قد خلقها الله "زوجين"، ولم تكن الذرّة والإلكترون والنترون والبروتون معروفةً في ذلك الوقت، وأما في زماننا فقد ظهرت حقيقةُ أن قِوام كلِّ موجود إنما هو بما يشتمل عليه من الأزواج، وأنها تتعانق وتتآزر حتى يظلَّ النظام قائمًا ودائمًا، ولسنا ندري بماذا سيأتي لنا علم الفيزياء الذرّية في قابل الأيام.

### ٤- عالَم الذَّرَّة

يقول الله تعالى: ﴿**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سورة سَبَإ: ٣٤/٣).

إن هذه الآية تُبيّن -أوّلًا وبالذات- أنه لا يخفى على اللهِ تعالى شيءٌ، ولا يخرج عن حدود إحاطة علمه وسمعه وبصره شيءٌ. نعم، إن كلَّ شيءٍ -بدءًا من أدقِّ العوالمِ الذَّرية وأصغرِها، وانتهاءً بعوالم أكبر الأجرام السماوية- لهي في يدِ قدرتِهِ بمثابة خرزات السُّبحة يقلبها كيف يشاء، فالآية تحدِّثنا عن هذا، ولكنها في الوقت نفسه تلْفِت أنظارنا إلى بعض الحقائق العلمية.

والذرة هي في لغة عصرنا -كما في لغة السابقين- تعني ما يسمونه *(Athom)*، ولكن الناس في العصور الغابرة من حيث إنهم ما كانوا يعرفون حقيقة الذرة كانوا يفهمونها على أنها أجزاء الغبار التي تلوح أمام النوافذ إذا دخل منها أشعة الشمس، لأنها كانت أصغرَ أجزاء المادّة في نظرهم في تلك الأزمان، والذي يهمّنا هنا هو إطلاق هذه الكلمة على أصغرِ أجزاء المادة.

ولكن في زماننا هذا صارت كلمة الذرة تُطلَق تمامًا على ما يسمونه *(Athom)*، ومما يجلب النظر في هذا المقام أربعة تعبيرات:

**الأول**: "الذرة".

**والثاني**: ما هو أصغر من الذرة ومن مكوّناتها، وهو "الإلكترون".

**والثالث**: ما هو أكبر من الذرة، وهو "الجُزَيْء".

**والرابع**: تعبير "مثقال ذرة" ويشير -والله أعلم- إلى "الوزن الذَّرّي".

فلن يخرج شيءٌ عن دائرة إحاطة علم الله تعالى؛ سواء كان ذلك ذرةً أو إلكترونًا أو جُزَيْئًا.

وأما عن "مثقال ذرة" فمِن المعلوم أن موضوع الوزن الذرّي من الأهمّيّة بمكان في علم "الفيزياء الذرية"، والعلماء في الماضي كانوا قد وضعوا على الهيدروجين رقم (١) وعلى اليورانيوم رقم (٢٢٨)، فالوزن الذرّي للهيدروجين هو الأخفّ، في حين أن الوزن الذري لليورانيوم هو الأثقل.

إن العلم الحديث وَضَعَ ضوابطَ وأصولًا لِما أشار إليه القرآن قبل عصور من اكتشاف الوزن الذرّي، وبيَّن الوزنَ الذرّي لكل واحد من المواد (العناصر).

وفي الآيات الثلاث الأولى من سورة الذاريات ما يلقي الضوء على هذا الموضوع بإشارتها؛ قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ (سورة الذاريات: ١/٥١) أي أُقسم باللواتي تذرو الترابَ وتُثير الغبار... والنظريةُ الإلكترونية التي وضعها لورنز تقول: إن المحورَ المتناهيَ الصِّغَرِ للذرة يُشْبِهُ المنظومةَ الشمسيَّةَ، وكأنه منظومةٌ شمسيّة صغيرة.

وقُطرُ ذرّة الهيدروجين التي هي أخفّ الذرات وزنًا، هو عشرة بالمليون للميليمتر، وفي مركزه نواةٌ محمَّلةٌ بتيَّارٍ كهربائيٍّ موجبٍ، وفي حواليه إلكتروناتٌ محمَّلةٌ بتيَّارٍ كهربائيٍّ سالبٍ، وهذه الإلكترونات محيطة بالنواة على شكل سحابةٍ، ويدور إلكترونُ الهيدروجينِ بسرعةِ حوالي ألفي كيلومتر في ثانيةٍ واحدةٍ، بينما يدور إلكترون اليورانيوم بسرعة مائتي كيلومتر... وكان من المفترَضِ أن تنعدم هذه الطاقةُ شيئًا فشيئًا، وأن تنعدم -بالتالي- الحركةُ بسبب ذلك بعد مدَّةٍ وتتوقَّفَ، ولكن لم يحصل شيءٌ من ذلك.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ (سورة الذاريات: ٢/٥١) أي أُقسِم باللواتي تحملُ أحمالًا ثقيلةً، والتيَّار الموجبُ الذي في النواة يكونُ في البروتون لأنه هو الذي سيتحمَّلُ الثقل، وأما النترون فمن المعلوم أنها لا تيّار فيها.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (سورة الذاريات: ٣/٥١) أي التي تجري بسهولة.

والنترونات على نوعين:

منها ما هو في غايةِ السرعة الفائقة، وتقرُب سرعتُها من سرعة الضوء، وتملكُ طاقة هائلةً بحيث إن منها ما يثقبُ اللائحات الرصاصيّة التي سَمْكُها ثلاثون سنتيمترًا، وتمرّ من خلالها بسهولة.

وقسمٌ آخر من النترونات بطيئة، سرعتها تفوق سرعة الجزيئات قليلًا، فهي تُضبط مِن قِبَل النواة التي تَمُر هي بها في طريقها، فتنشطر النواة،

فتتولَّد من التيار الذي يحصل نتيجة هذا التفاعل نترونَاتٌ تتراوح سرعتُها بين (٥-١٠) مليون إلكترون فولت *(electronvolt=e)*، ففي قوله تعالى ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ إشارة إلى هذا -والله أعلم-.

**٥- السحاب - الرياح - اللقاح - والمطر**

إن الهواء يمتصُّ النداوة والرطوبة بنسبةِ حرارتِهِ، والهواءُ الحارُّ حينما يلتقي بطبقةٍ دافئةٍ فإنه سرعان ما يمرّ عبرها بسهولةٍ ومن دون عراقيل، وكثافةُ الهواء تتناسبُ عكسيًّا مع الحرارة، بمعنى أن الهواء حينما يتعرَّض لعمليّة التسخين يصير أخفّ مما حوله من الهواء العادي، وينبعثُ إلى الأعالي، وكلّما انبعث إلى الأعالي ووَجَدَ بيئة تُمَكِّنه من التوسع توسَّعَ، وهو يحتاج إلى الطاقة حتى يتوسع، ويؤمِّنُ هذه الطاقةَ من حرارته، ويظلُّ يرتفع إلى الأعالي في إطار هذا القانون، فهو يتوسّع مِن جانبٍ، وكلّما توسع استَهلك الطاقةَ، وَفَقَدَ مِن حرارته، وكلما فَقَدَ الطاقةَ صَعِد إلى الأعالي، ووصل إلى نقطة الندى، وكلّما كانت حالةُ الجوّ غير مستقرّة كلّما صعد إلى الأعلى أكثر... -وما أروع ما يراه راكبُ الطائرة حينما ينظر مِن عَلٍ فيُشاهِدُ مَنظرَ السحبِ على هيئة الجبال، وتبدو كأنها ركامات من القطن المندوف!- وإذا توقفت السحبُ في موطنٍ واستقرَّت فيه، وانتهى صعودها وهبوطها، فهذا يعني أن السماء ستُمْطِر وستعصف العواصف، وأحيانًا يصعدُ الجوُّ الدافِئُ إلى أعلى من هذه المرحلة نتيجةَ التضييقِ، فيأخذُ شكلَ سندانٍ أو ربوةٍ، ويكون التضييقُ هناك أشد وأكثر...

والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (سورة الْحِجْرِ: ١٥/٢٢).

الرياح تقوم بوظائف كثيرة، فتلقيح النبات كما أنه يتحقّق عن طريق بعض الحشرات وطرائقَ أخرى، فإنه يتحقق بواسطة الرياح أيضًا، إذا

تناولنا أول الآية فقط "وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ" نفهم منه هذا المعنى أيضًا، وأمرُ لقاح النبات عن طريق الرياح كان معروفًا ومشهورًا منذ زمنٍ بعيدٍ، إلا أن أمرًا بقي مستورًا خفيًّا لم يكشف العلمُ اللثامَ عن وجهِه إلا في أيامنا العلميّة هذه، وتُشير إليه الجملة التالية: "فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه"، وحملُ اللقاح في هذا السياق على لقاح النبات والشجرِ غيرُ مناسب؛ لأن ذِكر نزول المطر في سياق ذكر النبات ولقاحِه أمرٌ لا يتناسب مع أسلوب القرآن المتناسِبِ الراقي الجذاب، فالفاء في قوله "فَأَنْزَلْنَا" يدلّ على أن نزولَ المطرِ يترتَّب على هذا اللقاح، وهو أمرٌ مختلفٌ تمامًا عن لقاح النبات.

وقولُه تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ (سورة النُّور: ٤٣/٢٤) يدلُّنا على هذا المعنى بشكلٍ أوضح ومن منظار آخر.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا" أي يسوق قِطَعَ السُّحُب، ومن يتابع مراحلَ تَشَكُّلِ السحب يَفهم ما في تعبير "الإزجاء" من "الدفعِ بلطف".

"ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ" أي بين السحاب، والتأليفُ يكون بالتوفيق بين شيئين مختلفين والجمعِ بينهما.

"ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا"، وأجزاءُ السحب في الجو متقطِّعَةٌ ومنفردة لا تَجاذُبَ فيما بينها لأنها محمَّلة بنفس القطب الكهربائي، وبعد ما يتم اللقاح بينها بواسطة الرياح تتجمعُ فتصير: "رُكَامًا".

"فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ" أي فإذا بك تَرى المطرَ يتقطر من خلال أجزاء السحاب الركام بعدما تمّ الوصول إلى نقطة الندى.

"وَيُنَـزِّلُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَـرَدٍ"، إنَّ وَضْـعَ البرَدِ مختلفٌ؛ فهـو لا ينـزل من حيـث ينزل المطر؛ فإنه يتشـكل في أعالي السـحب في المناطق التي تُشْبِه في شكلها ذُرى الجبال والتي يصل فيها الضغط أقصى حـدوده، حيث إن قطراتِ الأمطار تَبقَى مترددة، ولا تسـتطيـع النزول إلى الأسـفل من شـدة الضغـط، ولِأنها تبقى فـي الطبقة الباردة فإنهـا تتجمَّدُ، وكثيرًا ما يؤدّي تردُّدُها في تلك الطبقة إلى أن تصير حبّاتُها كبيرةً في فترة نزولِها.

والقـرآنُ الكريم في هذه الآية يصرح بأن الطبقة التي ينزل منها المطر تختلف عن الطبقة التي ينزل منها البَرَد.

ونسـتفيد مـن روح الآيتيـن الكريمتين أن القرآن يقول لنا: إنا أرسـلنا الرياح لتؤلِّفَ بين أجزاء السـحبِ المحمَّلة بالطاقة الموجبة وبين السُّحُبِ المحمَّلَةِ بالطاقة السـالبة، ولتلقِّحَ بينها، فلو لم تؤلِّف بين أجزاء السحاب المحمَّلـة بِطاقتيـن مضادتيـن لـم ينزل المطر من السـماء إطلاقًا، وسـواء أكان التأليف بين قطرات المطر الموجبة والسـالبة أم بين أجزاء السـحاب الموجبة والسالبة، فإن كل ذلك يتحقَّقُ بتأليف من الله تعالى.

### ٦- توسيع السماء

يقول الله تعالى: ﴿**وَالسَّـمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ**﴾ (سـورة الذَّارِيَاتِ: ٤٧/٥١).

معلـومٌ أنَّ الجملة الاسـمية تفيدُ الثبوت والـدوام، وقولُه تعالى: "وَإِنَّا لَمُوسِـعُونَ" جملـةٌ اسـميّة غير منحصرة في زمان معيـن، بل تعمّ الماضي والحـال والاسـتقبال، فليس المراد هنا "أوسـعناها" أو "نوسـعها الآن" أو "سنوسـعها في المسـتقبل" فقط، بل المراد -والله أعلم- عموم الكل، أي إنَّ توسيعنا لها ما زال مستمرًّا على الدوام وبدون توقُّف منذ بنائها... وقد

كَشَف عالِمُ الفضاء "هبل" *(Edwin Hubble)* سنة (١٩٢٢م) أن المجرات -باستثناء أقرب خمس أو ست مجرات- تتباعد عن الأرض بسرعة متناسبة طرديًّا مع المسافة بينها وبين الأرض، وحسب ما قاله "هبل" فإن السحابية (السديم) التي تبعد عنا مسافة مليون سنة ضوئيّة تبتعد عنّا في سنة واحدة بسرعة (١٦٨) كم، والتي تبعُد عنا بمسافة مليوني سنة ضوئية تبتعد عنا في السنّة الواحدة ثلاثة أضعاف ذلك... وهذا يدلّ على أن الكون في حالةِ تَوَسُّعٍ *(expansion)*، كما ادّعاه عالِم الرياضيات البلجيكي الراهب "جورج لومتر *(Georges Lemaître)*"...

وقضيةُ "توسُّعِ الكون" التي لا تزال تحتفظ بمكانتها في المحافل العلمية قد عبَّر عنها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا... وكان يجدرُ بكافة المحافل العلمية وعالَم المعارف والعلوم أن يعلنوا تَتَلْمُذَهم على يد القرآن فيخرّوا سجَّدًا حائرين أمام عظَمَةِ هذه الحقيقة العلمية، ولكن -يا للأسف- ما كان منهم إلا أن أصرُّوا على كفرانهم وجحودهم.

### ٧- كُرويةُ الأرض

يقول الله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ (سورة الزُّمَرِ: ٣٩/٥).

شكلُ الأرض كرويٌّ مفلطحٌ عند القطبين، والتكويرُ في العربية يعني لفَّ الشيءِ على شيءٍ دائريّ مثل تَكْوِيرِ العمامة، والدورانَ حول دائرة، فمعنى الآية -والله أعلم-: يلفّ الليلَ على النهار والنهارَ على الليل، فـ"التكوير" يُعَبِّر عن كرويّة الأرض.

وفي سورة النازعات: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٧٩/٣٠)، و"الدَّحو": البَسْط، ومنه: "الأَدْحِيَّةُ أو الأُدْحُوَّةُ": الموضع الذي تبيض فيه النَّعامة، وفي اختيار هذه الكلمة إشارة إلى أن الله تعالى بعدما

وضع السماوات في نظامٍ معيَّنٍ، بَسطَ الأرضَ على هيئةِ بيض النعام أي بيضاوية، فالأرض كرةٌ مفلطحةٌ عند القطبين على هيئة بيض النعامة.

**٨- انفصال السماوات والأرض وانفتاقُهما**

قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٠).

في الفضاء سُدُم *(Nebuleuse)* كثيرة: فمنها ما هو شبهُ مائي لا شكل له، ومنها ما هو شبه دائري، ومنها المسطح واسع الأقطار، ومنها الحلزوني... إلى أشكال عديدة معروضة أمام الأنظار... وكما أن الله جلَّتْ قدرتُهُ قد جَعَلَ من هذه السدم الهائلة مجموعاتٍ نجميّةً، كذلك جَعل منها منظومةً شمسيَّة.

فمِن المحتمل أن منظومتنا كانت سَدِيمًا بخاريًا، وعلى مرّ الزمن فَقَدَتْ هذه الكتلةُ الغازيةُ -بإرادة الله تعالى- حرارتَها فانكمشت، وزادت سرعةُ دورانها، وبسبب زيادة سرعة الدوران وبتأثير قوَّةِ الطردِ المركزيّ هذا تفكَّكت الكتلة الأصلية الحلزونيةُ الشكلِ وانقشعت، فخلق الله تعالى الكواكبَ السيارات من هذه الأجزاء، فبتأثيرٍ من جاذبية الشمس التي هي في الوسط جعلها تدور حول الشمس، وجعلها تدورُ حول أنفسها أيضًا.

فـ"الرَّتْق" في اللغة: الضمّ والالتحام، وهي توحي بمعانٍ: "الكتلة المائعة، المادة اللَّزِجَة، المادة التي يجذب بعضها بعضًا"، وحينما يقال: إن السماوات والأرض كانتا كُلًّا مجتمعًا، في حالة مائعة أو غازية، يكون المراد بـ"فَفَتَقْنَاهُمَا": فتحناهما وجزَّأناهما وفصلناهما عن بعضِهما.

وكلمةُ "فتق" تشير أيضًا إلى أن السماء كانت جافَّةً لا تُمطِر، والأرض قاحلةً لا تُنبِت، ففتقهما؛ أي فتقَ السماءَ بالمطر والأرضَ بالنبات بإنشاء

علاقة بينهما، فجَعل الأرض مُنبِتةً ملائمةً لعيش الأحياء عليها، والسماء ممطرة مانحة.

و"الكافر" هو الذي يَكْذِب تجاه وجدانه وضميرِه، ويَكبت استعداداته وقابليّاته، ويتناقض مع قلبه... ومن المحقق أن القرآن الكريم حينما يقول: "الَّذِينَ كَفَرُوا" فإنه لا يقصد بذلك أولئك الكفرة الذين عاشوا قبل أربعة عشر قرنًا فقط، الذين كانوا عاجزين عن رؤية مَواطِئِ أقدامِهم، ولم يكونوا قد خرجوا خارج حدود الصحراء، وكانوا يحاولون أن يفهموا عالم النجوم بالاعتماد على مجرد المشاهدة بالعيون، فإن إنسانَ ذلك العصر لم يكن له أن يفهمَ من هذا الكلام معنًى في مستوى ما يفهمه إنسانُ عصرِنا، فـ"الَّذِينَ كَفَرُوا" في الآية تتناول كفارَ عصرِنا الذين يتعامَوْن عن الحقائق أكثرَ من كفارِ تلك العصور.

### ٩- خَلْقُ كل شيء من الماء

ويقول الله تعالى في الآية نفسها: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٣٠).

إن الماء هو أهم عنصر في خلق الحيوان والنبات، بدءًا من أصغر خليّة وسلاسلِ بروتيناتها، وانتهاءً بأكبر أشجار الصنوبر بِـ"كاليفورنيا"، ولا يمكن تصوُّر الحياة بمعزل عن الماء، لأنَّ الحياة -بأمرٍ مِن الحي القيوم- تكونت حول المياه.

إن القضايا التي تَطَرَّقْنا إليها آنفًا -ولو بشكلٍ وجيزٍ- تؤكِّد حقيقةً واحدةً، وهي: أن الله جعلَ الكونَ يتحدَّثُ عن نفسِهِ، وجعلَ القرآنَ ترجمانًا له.

**ب. القرآنُ مفتاحُ خزائنِ الأسماء الإلهية**

إن القرآن الكريم كما أنه ترجمانٌ للآيات التكوينيّة، كذلك يَكشِف عن الأسماء الإلهية المكنونة في السماوات والأرض ونَفْسِ الإنسان... أي يُظهر لنا كيف وأين يتجلّى ويتموَّج كلٌّ من أسماء الله الحسنى، أيُّ اسمٍ يتجلّى على الإنسان، وأيُّ اسمٍ على التراب، وماذا وراء مختلف الحوادث الجارية في الكون... نعم، القرآن يكشف كنهَ هذه الأمور ويُبَيِّنُ أن وراءَ كلٍّ من ذلك اسمًا من الأسماء الإلهية.

﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٢٢/٥٩).

لا يستطيع أن يؤَمِّن لنا المُقام في هذه الدار إلا من يَعرِفنا مِن كِلا الجانبين؛ إذ إنَّ لنا علاقة بعالَمَي الغيب والشهادة، أي بما يُعلَم وما لا يُعلَم، وما يُبصَر وما لا يُبصَر، وما يُشعَر به وما لا يُشعَر.

"هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ"، فكم هناك مِن الذين يحتاجون إلى الرزق وإلى رعاية الله وعنايته والتغذّي من معينِ نِعَمِهِ، فهؤلاء يتغذَّون من رحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، ونلاحظ رحمانيّةَ الله ورحيميّتَهُ في تَغَذِّي الأجنّة في أرحام أمهاتها، وشقِّ النبات لوجه الأرض الصلب، وسبرِ بعض أنواع الجذورِ بطنَ الأرضِ وضربِها في الأعماق، وأيُّ شيءٍ استمدَّ قوَّتَه من الله فإنه سيشُق كلَّ ما يعترض طريقه شقًّا، ويواصلُ مسيرته مردِّدا: "الله".. "الله".. فالقرآن المعجز البيان هو الذي يبين لنا كلَّ هذا.

﴿**هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ اَلْمَلِكُ**﴾ (سورة الحشر: ٢٣/٥٩) أي الذي بيده نظام الكون، ﴿**اَلْقُدُّوسُ**﴾ أي إن الكونَ تَسُودُه عمليةُ تنظيفٍ شامل؛ فالتحولُ الكيميائيّ الذي يجري في ملايين الحيوانات الميتة، والغازاتِ في الهواء، وامتصاصُ الأشجار لِما يُخرجه الإنسانُ، واستنشاقُ الإنسانِ

لما تُخرجه الأشجارُ، وتدخُّلُ البحارِ في الأمر حينما يختلّ التوازن، وكونُ مياه البحار مالحة، والحفاظُ على نظافة الأرض والسماء... كلُّ ذلك من تجلّيات اسم الله: "القدوس"، والقرآنُ المعجز البيان يُبَيّنُ لنا قانونَ النظافةِ السائدَ في الكون بربطِه باسم الله: القدوس.

﴿اَلسَّلَامُ﴾ إننا نشاهد في الكون سلامًا شاملًا وهدوءًا واضحًا، ومع أن الكون في ظاهر أمرِهِ يُخيّل إلينا ما يخيّل وكأنَّ هناك صِراعًا وصِدامًا بين الموجودات؛ إلا أن الحقيقة هي أن النباتات تُنْجِدُ الحيواناتِ كما أن الحيوانات تعِين بني الإنسان، وفي هذا الموقع يبدو وكأنّ الإنسان عَقَدَ صلحًا مع جميع الكائنات، فالقرآن يشرح لنا هذا اللغزَ باسم الله الجليل: "اَلسَّلَامُ"... فالكون الذي يعتمدُ على هذا الاسم يكون مَحلًّا للسلام.

﴿اَلْمُؤْمِنُ﴾ إن الله تعالى قد أسَّسَ من خلال هذه التعاقدات والمصالحات أمنًا، ومَنَحَه للكلِّ، فكما أنه بالإيمان أَنزل السكينةَ والطمأنينةَ في القلوب المؤمنة؛ فكذلك أَوجد نوعًا من الأمن بين بني الإنسان، فبذلك يَثِقُ الناس بعضُهُمْ بِبَعْضٍ، وفي كلِّ الكون أمنٌ سائد؛ فمِن المَلَكِ إلى السَّمَكِ، ومن سدرةِ المنتهى إلى أعماق الأرض هناك أمنٌ سائدٌ، ونحن نلاحِظُ أن هذا معتمِدٌ على اسم الله: "المؤمن". نعم، إننا لا نتعرف على الأسماء التي تكون وراء ما يجري في الكون من الأحداث إلا من خلال القرآن "الترجمان"، ترجمان الأسماء الإلهية والترجمة الأزلية للآيات التكوينية.

### ج. القرآن ترجمان للصفات الإلهية

إننا إنما نأخذ المعلومات الكافية حول ذات الله وصفاته وشؤونه من القرآن، فهو يحوي مئاتٍ من الآيات بهذا الصدد، نكتفي بذكرِ بعضِها:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإِخْلَاصِ: ١١٢/١-٤).

أي قل: إن الله واحدٌ أحدٌ، وكلُّ شيءٍ مدينٌ له في وجودِهِ وبقائِهِ، وكلُّ العوالم محتاجةٌ إليه ولكنّه لا يفتقر إلى أحدٍ، وهو الموجود الوحيد الذي يَلجأ إليه ويَستعين به كلُّ موجود، والنظام بفضله يقوم، والكون على قيُّوميَّتِهِ يستند؛ ولولا قيُّوميَّته لانقلبَ النظامُ رأسًا على عَقِبٍ، والإنسان في كلِّ أحوالِهِ محتاجٌ إليه، وإذا لم تُسَدَّ حاجاتُه من قِبَل الله تعالى فإنه ستخمد ناره، ولن يبقى على وجه الأرض شيء، إن الله تعالى ليس والدًا لأحدٍ، وليس أحدٌ والدًا له، ولم يكن له ندّ ولا شريك ولا نظير.

والقرآن ببيانه هذا يعلِّمنا أهمَّ القضايا المتعلقة بالألوهية، ولولاهُ لَتورَّطنا إما في عقيدة "الروح الكلي" التي تورط فيها الأفلاطونيون، أو انجرفنا إلى عقائد أخرى من أمثال عقائد الإشراقيين، أو اتخذنا اللهَ ﷻ -كما فعل النصارى- أبًا لأَحدٍ وزوجًا لآخر تعالى اللهُ عن ذلك كله علوًّا كبيرًا، ولَكِنَّنا بفضل القرآنِ المعجزِ البيانِ أحرزنا أحكَمَ العقائد وأرصنَها وأصلبَها وأرسخَها حول الذات الإلهيّة ﷻ.

### د. القرآن تفسير للشؤون الإلهية

إنَّ أحسن مَن يُفسِّر الشؤون الذاتيّة الإلهية هو القرآن أيضًا، يقول مثلًا: ﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/٣٦-٣٧).

فالقرآن يتحدَّثُ في هاتين الآيتين وفي غيرهما عن مثل هذه التصرفات التي تَعجِز العقولُ عن إدراكها، على أنها شؤونٌ للذات الإلهية، ولا قِبَلَ لنا أن نعرفَها وندركَ كنهَها لولا القرآن.

### هـ. القرآن خارطةٌ مقدَّسةٌ لعالم الآخرة

إن القرآن المعجزَ البيانِ كتابٌ فريدٌ لا نظيرَ له في عرض عالم الآخرة على أنظار الناس أيضًا، فالمراحل الأخروية تُعْرَض في القرآن صفحةً صفحةً كلٌّ في مكانها المناسب، بأسلوب جذَّابٍ وآخذٍ بالقلوب والألباب، ولكن لا يتَّسع هذا المقام لِسَرْدِها كلِّها.

فسورة الحاقة مثلًا تتحدَّثُ عن الساعة التي تأتي فيها تلك الداهية فتَقرع الهامات، فتبدأ السورة بـ﴿**الْحَاقَّةُ ۞ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ (سورة الْحَاقَّة: ٦٩/١-٢)؛ فتستهلّ بموسيقى القيامة التي يدوِّي صوتُها في الأسماع، وتأخذُ بِيَدِ الإنسان فتذهب به إلى الوقت الذي تقوم فيه القيامة، ثم تُصوِّر الجبالَ المدكوكة تصويرًا بديعًا تجعلُ الإنسان معه وكأنه يشاهدها بالعيان، ثم يبعث الله بني الإنسان، ويضعُ الميزان، ويزنُ الحسناتِ والسيِّئات، فمن رجحت حسناتُه يَحظَى بحياة سعيدة، ومن رجحت سيِّئاتُه يُلقَى في النار...

والقرآنُ إذ يَعرض هذا المشهد على أنظار الإنسان يرسُمه في صورةٍ يَعجِزُ عن تصويرِها أحذقُ الفنانين... وعندما يقول: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ (سورة الْحَاقَّة: ٦٩/١٨) يَعْرِض لأنظارِ الإنسانِ ما يحاول الإنسانُ أن يخفيه عن الآخرين، فيجعلُه يخجل أمام ما يقترفه من الآثام... وفي الوقت نفسه يدفعه إلى أن يأخذ بالحيطة والحذر حتى لا يتعثَّرَ ولا ينزَلِقَ.

إنَّ مَن أهدرَ عمرَه كلَّه ولم يسجِّل في صحائفِ أعماله شيئًا نافعًا فإنه سيؤتَى كتابَه بِشِمَاله أو من وراءِ ظهرِه وسيقول في ذلك اليوم: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي**

﴿مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/٢٥-٢٩) ولكن شيئًا من أمانيّه لن يتحقَّق، وبالمقابل من سجَّل في كتابه أعمالًا صالحةً فإنه سيؤتى كتابَه بيمينه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ ۞ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٦٩/١٩-٢٠)، وهذا أبلغ ما يعبَّر به عن فرحة الإنسان ونعيمِه...

أجل، إن القرآن الكريم يصوِّر مَشاهد الآخرة بحسابها وميزانها، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها... تصويرًا في غاية الدقّة والروعة لا يفوقه بذلك أيُّ تصويرٍ وتعبيرٍ.

### و. القرآن كتابُ شريعةٍ

إن القرآن الكريم كتابُ شريعةٍ من حيث بيانُه للأحكام الدينية، وتوضيحُه بجلاءٍ للحلال والحرام، وتناولُه وتحليلُه لمنظومةِ الحقوق والقوانين المتعلّقة بالأسرة والمجتمع والدولة وبالأفراد الذين هم اللبنة الأساس للأسرة والمجتمع والدولة.

### ز. القرآن كتابُ حكمة

لا أحدَ من المفكّرين والفلاسفة لم يتحدَّث عن حقيقة الوجود ومناسبةِ الموجودات فيما بينها، ولقد تناول الفلاسفة -من أول فيلسوف إلى آخره- هذه القضيّة وعالجوها، ولكن هناك بون شاسع بين تناولهم لهذه الحقيقة وشرحِهم لها، وبين شرح القرآن وبيانِه.

نعم، هناك فرقٌ واضحٌ؛ لأن القرآن كلامُ مَن أَبدعَ الوجودَ وأنشأه، وأنشأ العلاقة بين الأشياء والموجودات... فبينما يتحدَّثُ غيرُه تعالى عن هذه الأمور بالفَرَضِيَّات والنظريّات؛ يبيّنها القرآن بأسلوبٍ قطعيّ، وبينما تنطوي مقولاتُ هؤلاء على تناقضات عدّة تُشوّش الأذهان؛ نلاحظُ أن القرآنَ مبرَّأٌ من نقاط ضعفٍ من هذا القبيل.

**ح. القرآن كتابُ دعاء**

عندما نرفع أكفَّ الضراعة إلى مَلِك الملوك فندعوه بتعبيرات القرآن المعجزِ البيانِ نفسِهِ؛ نكون قد رفَعْنا سُؤْلَنَا إلى الله بكلماته هو... والرسول الكريم ﷺ كذلك كان يسأل ربه بلسان القرآن، فالقرآن كتابُ دعاءٍ، ولا نظيرَ له في ميدانِ التضرُّعِ إلى الله تعالى.

**ط. القرآن كتابٌ مقدسٌ نَزَل من العرش الأعظم**

إن للهِ ﷻ عرشًا وهو العرش العظيم: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ١٢٩/٩)، ولكل شيءٍ عرشٌ أي غايةٌ تنتهي إليه، ولكلٍّ من الصفات عرشٌ يتمثَّل فيه في أعلى مراتِبِهِ، ولكلٍّ من أسماءِ الله وصفاتِهِ عرشٌ أي مرتبةٌ عُليا، فالقرآن نَزَلَ من العرشِ الأعظمِ ومن أعلى وأعظمِ مراتبِ الأسماء الحسنى، فهو أسمى أنواع كلام الله تعالى، نزلَ على أكملِ إنسان، لتبليغه إلى أكمل مجتمعٍ من البَشَرِ.

والقرآنُ من حيث إنه نزل من العرش الأعظم، ومِن أعظمِ مرتبةٍ لكل اسمٍ من الأسماء الإلهية، يجدر بأن يسمَّى "كلام الله" بحقٍّ، وحينما يُطلق "كلام الله" فالذي يتبادر إلى الفهم هو القرآن لا غير.

## الفصل الثاني

# الاستعداد الروحي للفاتحة

## تأمّلات حول الاستعاذة

إن الإنسان إذا أراد أن يدخل في عالَم كلام الله فعليه أن يستعدّ لذلك بقلبِه وروحِه ومشاعرِه، وإنما يتأتى له ذلك بتنقية هذه الآليّات وتنظيفِها من سُلطة الشيطان؛ فإن الله تعالى انتزعَ الشيطانَ من بينِ صفوف الملائكة، وطَرَدَه من بابه، وحَرَمَه مِن رحمَتِهِ، وحرَّم عليه الصعودَ إلى السماوات... فعلى المؤمن أيضًا أن يطردَهُ من قلبه الذي هو أعظمُ حرمةً من الكعبة، حتى يكونَ متخلِّقًا بأخلاق الله، مستحقًّا للولوجِ إلى رحاب القرآن.

فبهذه المشاعر حينما نبدأُ بتلاوة القرآن نقول في البداية: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، واستحبّ بعضُ الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل زيادةَ: "السَّميع العليم" حيث تكون الصيغة: "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

## أ. شرح المفردات وتحليلها

### ١- أعوذ

هو مشتق من العَوْذ، وله معان عدة: الالتجاء إلى أحد، والاستجارة به، والتعلُّق والتشبُّث به، فيكون المعنى: إليه ألتجِئ، وبه أستجيرُ وأتشبَّث.

أي ألتجئ إلى لطف الله وعنايته وإحسانه، واعتمادًا على لطفه تعالى أستجير به من كلِّ شيءٍ يؤذيني ويضرُّني، ولاعتمادي عليه أتشبَّثُ به وأعتصِمُ بحبلِهِ.

أي إني في منتهى الضعفِ والضحالة، لكنّي باتِّكالي عليه تعالى أقاوم كلَّ شيءٍ؛ وهكذا أبوءُ بمنتهى القوَّةِ تجاه الشيطان الذي يتربَّصُ بي الدوائر، ولا يألو جهدًا في وضعِ مختلفِ الفخاخِ والمصائدِ في طريقي.

### ٢- بِاللّهِ

إن لفظة "الله" تختَزِلُ معانيَ جميع الأسماء الإلهيّة المتجلّية في الكون، ومسمَّاه هو الذات المنزَّهُ عن صفاتِ النقصانِ كلِّها، والمتَّصِفُ بصفات الكمال كلها، الذي تتموَّجُ جميع الكائنات بتجلّيات أسمائِهِ وصفاتِهِ، والذي لا يحيطُ به إدراكُ البشر، وليس كمثلِهِ شيءٌ.

ومعنى قولنا: "أعوذُ بالله": ألتجئُ وأعتمد على من بِيَدِهِ التصرُّفُ في كلِّ الكون، مِن كلِّ الشرور والأشرار والشياطينِ الذين يأتوننا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ومن تحتنا.

### ٣- الشيطان

كلمة "الشيطان" مشتق إما مِن "شَطَنَ - يشطُن" أي بَعُدَ، وإما مِن "شَاطَ - يَشِيطُ" أي هَلَكَ واحترقَ، وقال ابن عباس ﷺ: "الشيطانُ كلُّ متمرّدٍ من الجن والإنس والدوابّ".

وعلى الأول فكلُّ من ابتعد من رحمة الله فهو شيطان، سواء كان من الإنس أو الجن، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ (سورة الأَنْعَام: ١١٢/٦).

وأما إذا اعتبرناه مشتقًّا من "شاط - يَشيط" فيكون السبب في تسميته "شيطانًا" أنه كان بإمكانه أن يقوم بأعمالٍ مفيدةٍ له وأن يتقرَّب إلى الله بالسجود، لكنه تَمرَّدَ على الله وجمحَ، وبذلك أهلكَ نفسَه.

**٤- الرجيم**

الرجيم بمعنى المرجوم، كاللعين بمعنى الملعون... أي المطرود من باب الله، والمُبْعَد عنه تعالى.

إن الإنسان قد لا يَشعُر بوساوِس الشيطان، وحتى إنْ شعر ببعضها فلا يستطيع التخلُّصَ منها، فكأن الشيطان أَسَّسَ محطَّةً في قلب الإنسان، وقعدَ على رأسِهِ ليتحكَّمَ فيه، ومِن بعد ذلك ركَّز فيه لاقطًا أو جهازَ استقبالٍ خاصٍّ بالوساوِس الشيطانية.

فكما أن في قلب الإنسان جهازَ استقبالٍ أو آلةً يستطيع أن يتلقَّى بها ما يَرِد من الحقِّ تعالى؛ فكذلك هناك محطّة للشيطان.

فالشيطان يلقِّن مشاعرَ الإنسان وأحاسيسَه أمورًا قد لا يُحسُّ هو بها غالبًا، وإنْ أحسّ بها فالوساوس التي تستقبلها المشاعرُ لن يكون بمقدورِ الإنسان دفعُها في كثيرٍ من الأحيان، فحينئذٍ نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، ونلتجِئ إلى السميع الذي يَسمع ما يُلقيه الشيطانُ في قلوبنا من الوساوس التي لا نَقْدِر على سمعها، وإلى العليم الذي يَعلمُ حقيقةَ تلك الوساوس ويَقْدِر على دَفْعِها، لأنّه هو الأعلمُ والأحكمُ والأقدرُ والأبصرُ...

## ب. ما تنطوي عليه الاستعاذة من الغايات والحِكَم

### ١- الاستعاذةُ وماهيةُ الإنسان

الإنسان كائنٌ مُعَرَّض لكثيرٍ من البلايا، وله أعداء كُثُرٌ، إنه مخلوقٌ ذو كمٍّ هائلٍ من الأعداء المفتَرَضين، بدءًا من البعوضة مرورًا بالحمَّى ووصولًا إلى الأجرام السماوية، حتى إنه معرَّض -مثلًا- لأن يأتي نجمٌ من السماء فيصطدمَ بالكرة الأرضيّة التي يعيش هو عليها، فإذا كان لا يستطيع أن يدفعَ أيَّ واحدٍ من هذه الشرور والأخطار؛ فلا بدَّ له أن يلتجِئَ ويعتمدَ على مَن هو قادر على فعلِ ذلك، ومِن جانبٍ آخر؛ فالإنسانُ مضطرٌّ إلى كثيرٍ من الأمور، لعلَّ أبرزَها هو جلبُ ضياءِ جمال الله -ذلك الجمال الذي ليست الأرضُ والشمس والجنَّةُ وكلُّ الأضواء والأنوار إلا قبسًا من ضيائه-، وكلُّ هذه الأمور التي هو بحاجةٍ إلى دفعِها أو جلبِها تفوقُ طاقَتَهُ وتتوقّف عندها قدراتُه.

فإدراك الإنسان لهذا الوضع وشعورُه به يُسَمَّى "معرفة النفس" أي معرفته لنفسه، فالإنسان يبدأُ في كلِّ أعمالِهِ بهذه المعرِفة.

إن الإنسان عليه أن يدافِعَ عن نفسِهِ ولكنه لا يملك سلاحًا، وعليه أن يقاوم البلايا والمصائب، ولكنه لا يملك طاقةً وقوَّةً، وعليه أن يُشبع رغباتِه التي تمتدُّ إلى الأبد ولكن ليس بإمكانه ذلك.

فالإنسان الذي يصل إلى مستوى "معرفة النفس" يرى نفسه في البداية على الوجهِ الحقيقي مسكينًا عاجزًا ضعيفًا، فإذا بقلبِهِ يغمره التواضع والانكسار... فيعود كسيفَ البالِ، منكسرَ الروح والأحاسيس، مَهيضَ الجناح، مَحْنِيَّ الرأسِ؛ بحيث إنه بوضعه هذا حتى وإن لم ينبس ببنتِ شفة؛ فالمولى تبارك وتعالى سيَرْأَفُ بحاله وسيرحمه.

وهذا جانبٌ آخر من الموضوع...

وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام حالةٍ مختلفة، وهي ما نسميها "الفعل والعمل"؛ ففي القلب يبدأ تمنّي حفظ الحق تعالى وعنايتِه وكرمه، فكأن الإنسان بكلِّ كيانه يبحثُ في داخلِهِ عن سبلٍ للسموّ والارتقاء، واللسانُ يكون ترجمانًا لهذه الحالة التي تنبعث من الفؤاد ويقول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، والمعنى: "اللهم يا ذا الطَّول والقوة، إني ألتجئ إليك بكلِّ كياني، فلا ملجأ إلا إليك".

وكم من الناس من يتمنّى أن يكون مؤمنًا صادقًا، ذا عقيدةٍ قويّةٍ، وأن يحيا حياةً مستقيمةً، ولكن الشيطان الوسواس الخناسَ ينحرفُ به، فكما لا يستطيع أمثال هؤلاء أن يَحيَوا حياة مستقيمةً فكذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على عقيدتهم، فمَن هذه حالُه عليه أن يقول تجاه الأمور التي لا طاقةَ له بها: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، تلك الجملة التي تعني الالتجاءَ إلى عناية الله تعالى.

إن الله ﷻ أَدْرَجَ في ماهيّة الإنسان مشاعر طبيعيّةً مثلَ الشهوة والغضب وغير ذلك، وجبَلَهُ عليها حتى تكونَ مَدارًا لارتقائه وسُمُوّه، فهذه الأمور تكون منابع ووسائل لِتَرَقِّيه، فالله الذي خَلق النارَ ليستفيد بها الإنسان خَلق الشهوة أيضًا للغاية نفسها؛ حتى يتناسل الإنسان، ويَكثُر عددُ الأمة المحمدية، وتزيد أعداد مرايا الأسماء والصفات الإلهية، وتتحققَ بذلك المَقاصدُ الإلهية... فغريزة الشهوة التي مُنحت الإنسانَ لتحقيق هدفٍ سَامٍ كهذا نراها في كثيرٍ من الأحيانِ تُودِي بالإنسان في مَهاوي الظلمات وتُغرقه، والإنسانُ فُطِر على حبِّ التحليق في الذُرى، ومُنِحَ الاستعدادَ لذلك، فإذا بالشهوة تُجبره على الذوبان في مراجل الجسمانية، وتُحيط بكيانِهِ حتى تخنقَهُ في سجنها.

والغضب وسائر الغرائز الطبيعية كلها قد أُودِعت في ماهية الإنسان

وجَذرِهِ لأهدافٍ سامية؛ ولكنَّ الإنسان الذي يَنُوءُ بحمل ذلك كلِّه يضيق ذرعًا ويَبلُغ منه القلبُ الحنجرةَ، في حين أنه يودّ أن يرفرف بجناحيه مثل الحمائم ويحلّقَ في الأعالي، وحينما يَعجز عن ذلك يخطرُ على باله الالتجاءُ إلى الله والاستجارةُ به فيقول: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

**٢- الاستعاذة علامة صِدْقِ الولاء**

إن الاستعاذة في أحدِ معانيها: ضربٌ من ضروب الاعتذار، ومن جانبٍ آخرَ هي: علامةٌ على صدق المحبّة وسلامةِ الولاء، وحسب تعريفٍ آخر هي: تفويضُ المخلوقِ للخالقِ كل أمورِهِ وكلَّ ما يتعرّض له من الارتباك والحيرة، فها هو سيدنا نوح عليه السلام الذي كان من أولي العزم من الرسل، حينما نبَّهَهُ الحقُّ تعالى في ابنه بقوله: ﴿**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: ٤٦/١١) نراه على جناح السرعة يقول: ﴿**رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**﴾ (سورة هُودٍ: ٤٧/١١).

وسيدنا يوسف عليه السلام كذلك جابَهَ طلبَ امرأةِ العزيز وتهديداتِها بقوله: ﴿**مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ (سورة يوسف: ٢٣/١٢)، فنحن نلاحظ ههنا حالًا يعكس مدى الإخلاص وصدق المحبّة لله تعالى، فسيدنا يوسفُ الذي يصوِّره القرآن رمزًا للعِفَّةِ، كان قد أيقنَ بأنَّه إنما يتخلَّص من هذا الأمر بالالتجاءِ إلى الله، وهذا ما حصل فعلًا، فما خابَ ظنُّه ولا كَذَبَ رجاؤُه.

وسيدنا موسى عليه السلام لمَّا تردد قومه وتساءلوا في ذبح البقرة بقولهم ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ (سورة البَقَرَة: ٦٧/٢) قابلهم بقوله: ﴿**أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٦٧/٢).

فمن كان ذا معرفة بالله لا يسمى "جاهلًا" مهما قَلَّ نصيبه من العلم،

ولكـن من لـم يَعرِف اللهَ فإنـه "جاهلٌ" مَهْمَـا كان غزيرَ العلم، فهنا يُسـنَد الاسـتهزاءُ إلـى نبـيٍّ مـن الأنبيـاء وهو يسـتعيذ بالله مـن ذلـك؛ فإنه ليس مـن الممكـن قطعًـا أن يَصدُر الاسـتهزاء من نبـيّ؛ لأن ذلك ديـدنُ الذين لا يعرفون الله.

والحـقّ تعالـى يُعَلِّم نبيَّه بلسـان القـرآن أن يقول: ﴿**رَبِّ أَعُـوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ**﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/٩٧-٩٨).

ومن جانب آخر يوصيه ﷻ في سـورتَي الفلق والناس بالاسـتعاذة من جموع الشياطين إلى الله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِـقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِنْ شَرِّ حَاسِـدٍ إِذَا حَسَـدَ**﴾ (سـورة الفلق: ١١٣/١-٥)، ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّـاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ (سورة النَّاس: ١١٤/١-٦).

### ٣- الاستعاذة نداء إلى تفويض الأمور إلى الله تعالى

يروي معاذ بن جبل وغيرُه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم حادثة شاهدوها عند الرسول ﷺ، في حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من المحدّثين:

اسْـتَبَّ رَجُـلَانِ عِنْـدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْـدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُـبُّ صَاحِبَهُ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**" فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَـعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ"(٢٢).

وهذا الرجل أسـاء الأدب مـع الرسول ﷺ، ومن المحتمل أنه كان في

(٢٢) صحيح البخاري، الأدب، ٧٧؛ صحيح مسلم، البر، ١١٠؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٥٤.

قلبه نفاق أو أنه لم يَفهم كنهَ هذا الأمر، مع أن غرض الرسول ﷺ كان مختلفًا تمامًا، حيث كان يريد أن يبعده عن هذا الجوِّ الخانق الذي يعيشه، بمعنى أنه ﷺ:

كان يقول له: إنك إذا قلت هذا القول تكونُ قد فوَّضْتَ أمرَك وأمرَ الشيطان إلى الله، وتنبه! إن أنواع الانتقام التي تحيكها في خيالك تجاه هذا الرجل الذي غضبتَ عليه إنما هيَ ستؤثِّر فيك، وفي نهاية المطاف سيَرجع ضررُها إليك لا إليه، وفي المقابل إذا فوَّضْتَ الأمرَ إلى الله فإنه سينتقم لك انتقامًا لن تَقْدِر على مثله ولو عُمِّرتَ ألف عام، فلذلك عليك أن تستعيذ بالله.

إن الرسول ﷺ بقوله هذا يذكِّره بما يلي: أحيانًا يتخاصم اثنان ويترافعان، ولا يُدْرَى مَن المُحِقُّ منهما ومَن المُبْطِل؟ ففي مثل هذا يكون الأنسبُ تفويضَ الأمر إلى الله تعالى، فقولُ المرء في هذه الحالة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" يعني: "أعوذ بالله من شرِّ الشيطان، ومن أن أتَّخِذَ قرارًا خاطئًا، أو أنحازَ إلى أمرٍ بغير حقٍّ...". فقوله هذا سيَصبُّ الماء على هذا اللهيب الشيطاني الهائل...

والرسول ﷺ ضمنَ ذلك يشير إلى نقطةٍ مفادُها: إنك بما تملك من القوّة والطَّاقة والجبروتِ تتجاسَرُ وتُقْدِم على شَجّ هامة خصمك، والحالُ أنك مهما كنتَ قويًّا فالله أقوى منك، فالتجِئْ إليه ﷻ واسْتَجِرْ به.

فهذا الرجل -الذي يعاند تجاه هذه الجملة المباركة التي تَصْدُر من الرسول ﷺ، والتي تحتوي كلَّ هذه المعاني السامية- سيُحْرَم من ذلك كلِّهِ، ويصبحُ مغلوبًا ومقهورًا أمام نفسِهِ وشيطانِهِ.

**٤- الاستعاذة: الملجأ الوحيد تجاه كلّ شرٍّ وشرّير**

أخرج مسلم والترمذي عن خولة بنت حكيم أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: "**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: "أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ"، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلِكَ**"(٢٣).

هذا الحديث يلفت أنظارَنَا إلى النقطة التالية: هناك -من الملإ الأعلى إلى أسفل سافلين- صراع دائرٌ بين الأشرار والأخيار، وبين الأرواح الخبيثة والطيبة، وبين الشياطين والملائكة، فبينما الأشرارُ يَسْعَوْن للإضرار بالإنسانية يَكِدُّ الأخيارُ لخيرها، وفي حين أن الأشرار يُضِلّون الإنسانَ عن طريق الهدى؛ يدعوه الأخيار إلى الطريق المستقيم، فأينما ذهب المؤمن وحيثما حَلَّ فعليه أن يَلجأ إلى الله ويستجيرَ به من شرّ الجنّ والشيطان، ومن شرِّ الحشرات والهوام، لأن هذا يعني الابتهالَ إلى الله تعالى ليتكلَّل هذا الكفاح في نهاية المطاف بالتوفيق والنجاح.

يُروى أن أبا أمامة الباهلي ﷺ كان جالسًا في المسجد مهمومًا حزينًا، مكدَّرًا كسيفَ البال منحني الرقبة، فسأله الرسول ﷺ: "**يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟**" قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: "**أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**" قَال: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَال: "**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**"، قَالَ أبو أمامة ﷺ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي(٢٤).

(٢٣) صحيح مسلم، الذِّكر، ٥٤-٥٥؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٤٤؛ سنن ابن ماجه، الطب، ٤٦.

(٢٤) صحيح البخاري، الدعوات، ٣٦؛ سنن أبي داود، الوتر، ٣٢ (واللفظ لأبي داود).

إن كلَّ واحدٍ من هذه الأمور لَمِن الجواهر الفريدة التي تُعبّر عن حقائق عظيمة في غاية الأهمّية، فكأن الداعي بهذا الدعاء يريد أن يقول: اللهم إنَّ هناك كثيرًا من الناس لم يُضَحُّوا بحياتهم في مواطنَ يجب عليهم التضحية بها فيها، لكنهم اضطرُّوا في نهاية الأمر أن يُضَحُّوا بها وهم صاغرون، فأعوذُ بك اللهمَّ أن أضحِّي بحياتي هكذا بِذِلَّة... وكم من أناس كان بإمكانهم أن يُنفِقُوا أموالهم وهم أعزّة فيحافظوا على عزّتهم، لكنهم لم يفعلوا ذلك فسُلِبَتْ منهم أموالُهم عنوةً، فأعوذ بك ربي من هذا أيضًا، وأعوذ بك من أن يغلبني أعدائي... فهذا معنى الدعاء الذي وصَّى به الرسولُ ﷺ سيّدَنا أبا أمامةَ الباهلي ﷺ.

وفي القرآن الكريم مئات من الآيات تدل -دلالة واضحة أو خفية، على سبيل الصراحة أو الإشارة أو الرمز- على التعوذ بالله من شرِّ الشيطان والنفسِ ونوائب الدهر وكثيرٍ من الحوادث التي لا نعلم حِكمتها، ولن نسردَ كلَّ تلك الآيات حتى لا يؤدّي ذلك إلى التطويل بل سنجتزِئُ بما ألمَحْنا إليه، ونحاولُ بيانَ ما في الاستعاذة من الدقائق والنُّكَتِ فنقول:

### ٥- الاستعاذة، وحاجاتُ الإنسان الممتدَّةُ إلى الأبد

إن الإنسان كائنٌ تمتدُّ حاجاته إلى الأبد؛ فكما أنه يطلبُ زهرةً واحدةً فهو يطلب ربيعًا أيضًا، فهل -يا ترى- ستَشْبَع رغباتُه بالحصول على الربيع؟! إنه عند حصولِه على الربيع سيطلب الجنةَ، وهو لن يرضى بالحصول على جنة مؤقَّتة، إنه يطلب الخلود فيها، ولكن خلودًا في سعادة، إلا أنه بعد مرحلةٍ ما لن تُشبعه هذه ولن تشفيَ غليلَه، فسيطلب مشاهدة الحقّ تعالى؛ فكلُّ ما يُمنَح للإنسانِ يلفت نظرَه ويفتَحُ أفقَهُ إلى ما وراءه مما هو أكبر وأكثر، فيشرعُ هو بدورِهِ بالتَّطلُّعِ والنظَرِ إلى ما وراء ذلك؛ وهكذا دواليك أبدًا...

فالإنسان كائنٌ تتوالى طلباتُه، ولكنه مع هذا الشَّرَهِ ضئيلُ الإمكانات محدودُ الوسائل، فإمكاناته منحصرةٌ بما تطالُه يداه؛ حتى إنه قد يعجزُ عن بعض الأمور الخاصة بهذه الدائرة؛ فيُغلَب على أمره؛ فماذا على إنسان كهذا..؟! فمهما قال القائلون، فالطريق الأنسب والمعقول هو أن يقول: إنني ألتجئ إلى عناية الله، فالله تعالى يجعلنا نُعَبِّرُ عن هذا المعنى بأن نقول حينما نبدأ بتلاوة القرآن: "أَعُوذُ بِاللهِ".

### ٦- الاستعاذة اعتراف للإنسان بعجزه

إن الاستعاذة هي -في أحَدِ جوانبِها- اعترافٌ للإنسان بعجزِهِ، والإنسان المعترِفُ بعجزِهِ يتوجَّهُ بقلبِهِ المنكسِرِ إلى الله تعالى، فحينئذٍ تميط الرحمةُ الإلهية اللثامَ عن وجهها، فترتَسِمُ البسمةُ على مُحيَّا هذا الإنسان الذي هو بِأَمَسِّ الحاجة إلى الشفقة والرحمة، فهذا الإنسان المشرَّف بقربٍ كهذا سيُدْرِك معنى ما يُروَى أن داود عليه السلام قال: أَيْ رَبِّ أَيْنَ أَلْقَاكَ؟ قَالَ: "تَلْقَانِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم"[٢٥].

### ٧- الاستعاذةُ تخليةٌ وتزكيةٌ للقلب

لا بُدَّ لإحراز الإنسان مرتبةَ الطاعة التامّة من أن يَطرُدَ الشيطانَ المتربعَ على عرش قلبه، ويهيِّئَه لله تعالى، والإنسانُ إذا لم يَطرُد الشيطانَ مِن قلبه، ولم ينظِّف ضميرَه، ولم يزيِّن عالَمَه الداخليَّ؛ يكون ما يقرؤه من القرآن خارجًا من قلبٍ وَسِخٍ ولسانٍ دَرِن، فمن كان كذلك فلا بدَّ له من القيامِ بعملية التخلية والتزكية، وهذا ما يتحقَّق بالاستعاذة، فنحن حينما نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" نفكِّر في هذا المعنى العُلويّ، وبذلك ننظِّفُ القلبَ ونُنَقِّي اللسان، ونقول هذه الكلمةَ المباركةَ ونحن نؤمنُ بقوةِ تأثيرِها.

(٢٥) البيهقي: الزهد الكبير، ص ١٦٢.

إن القلب بيتُ الله، والسلطانُ يَنزِل إلى قصره في جنح الليالي، والرسولُ ﷺ يوصينا إذا أوى أحدنا إلى فراشه بأن يتوضَّأ، ويقرأ الدعاء المعروف، ويتوجَّهَ إلى الله، ويتعوَّذَ بالله من شرِّ الشيطان، ويقرأَ "المعوِّذتين"، ذلك لأنه من المحتمَل أن ينزل سلطانُ قلوبنا في تلك الليلة إلى بيته، فإذا كان القلب منغلِقًا وسخًا ولم يُنَظَّفْ لله، فذلك مستحيل ألبتة، يقول العارف بالله إبراهيم حقي رحمه الله:

*القلب بيت الله، فنظِّفه مما سواه*

*حتى ينزل السلطان إلى قصره في جنح الليالي*

وفي الحديث: "**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: "مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**"[٢٦].

لا ندرك كنهَ هذا النزول، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يشرِّف قلوبنا بنزوله إلا إذا جهَّزْناها له وأعدَدْنا العدّة لذلك.

إن الله تعالى أعدّ لنا الجنةَ، وسمَّاها دار السلام، فكأنه تعالى يقول لنا: "إنني أعددتُ ذلك المكان وجهزْتُه للطاهرين والنظيفين، وبَرَأْتُ فيه حورًا مقصوراتٍ لم تقع عليهن عيونُ الإنس ولا الجان، ولي أيضًا قصرٌ منيفٌ هو قلبُكَ أيّها المؤمن، فهل تحافظ لي على نظافة قصري ونقائِهِ مثلما أحافظ لكَ على نظافةِ الجنة ونقائها؟!

هناك أثرٌ مشتهر على الألسنة، يُروَى على أنه حديث قدسي: "مَا وَسِعَتْنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"[٢٧].

(٢٦) صحيح البخاري، التهجد، ١٤؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٦٨.

(٢٧) العجلوني: كشف الخفاء، ٢/٢٣٠.

إنَّ الله تعالى جعل القلبَ مَعْكِسًا ومرآةً لتجليّاته، واتخذه لنفسه عرشًا بكيفيَّةٍ لا ندرك كُنْهَها، إنه حَفِظ دارك ومأواك (الجنة) من الشرورِ والأشرارِ، فهلّا حافظتَ على نقاوةِ وطهارة قلبكِ الذي هو بمثابة بيتٍ له ﷻ.

فالاستعاذة ستحقّقُ هذا النقاءَ وستحافِظُ على هذه الطهارة، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه ينفثُ في كفَّيه بسورة الإخلاص والمعوّذتين جميعًا ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده"[٢٨]، وهكذا كان يتعوَّذ من كلِّ شيءٍ بالله، وكأنه يقول: لا يمسَّنّ الشيطانُ جسمي، ولا يدخلنَّ في قلبي.

يقول ﷺ: "**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ اٰدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**"[٢٩]، وكأنه يتَّخِذُ الكريات الحمراء والبيضاء مَركبًا، فيَنْفُذُ عبرها إلى قلب الإنسان، ويبثُّ فيها الوسوسةَ، وبذلك يُعَكِّرُ صفوَ القلبِ الذي هو محطّ التجليات الإلهيّة، فبسبب ذلك ينظر الإنسان إلى كلِّ ما حوله مما يُذَكِّر بالله، بنظرٍ عكرٍ وضبابيٍّ، وفي النهاية يتراءى كلُّ شيء في ماهيّتِهِ عَكِرًا وضبابيًّا، فالله تعالى يأمرنا بالاستعاذة ويقول: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/٢٠٠) (سورة النَّحْلِ: ١٦/٩٨) (سورة غَافِرٍ: ٤٠/٥٦) (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٣٦) ويذكر الاسم الشريف: "الله" الذي هو الاسم الخاص بالذات الإلهية ويتضمَّن سائرَ أسمائه الحسنى ويشملها، ولا يقول: "استعِذْ بالرحمن، أو استعِذْ بالرحيم، أو بالقدوس...".

### ٨ - الاستعاذة أمام نوعَي الجهاد

والآن لنذكُر نكتة لطيفة:

(٢٨) انظر: صحيح البخاري، الطب، ٣٨؛ سنن الترمذي، الدعوات، ١٤٣؛ سنن أبي داود، الأدب، ١٠٨.

(٢٩) صحيح البخاري، بدء الخلق، ١١؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٣-٢٤.

إن لكم صنفين من الأعداء، ولكم تجاه هذين الصنفين نوعان من الجهاد:

**فأولهما**: "الجهاد الأصغر"؛ وهذا النوع من الجهاد يكون تجاه أعداء مادّيّين يواجهون إيمانكم ودولَتكم ووطنكم، ويعملون على إزالة وجودِكم المادّي، ونَهْبِ ثرواتكم، واستعمار بلادكم، فهؤلاء يجابهونكم ببنادقهم ومَدافعهم ودباباتهم وطائراتهم، فكلما طلبتم النصر من الله تعالى أمام هؤلاء الأعداء؛ جاءكم نصرُه وأَرسَل ملائكتَه وهَزم أعداءَكم:

﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة الأَنْفَال: ٨/٩-١٠).

﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ۞ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٢٣-١٢٦).

نعم، إنكم طلبتم النصر من الله، والله أمدكم بألف أو بثلاثة آلاف أو بخمسة آلاف من الملائكة.

وفي معركة "جَنَقْ قَلْعَة" (الدَّرْدَنِيل)، وبشهادة الضابط الإنكليزي "هاملتون *(Hamilton)*": أرسل الله الملائكة على صورة رجال معَمَّمين، وجَعَلَهم يركضون أمام حفنةٍ من جيش المسلمين المُثخَنِ بالجراح، دَحَرَ بهم جيشًا عرمرمًا جرَّارًا لدولةٍ متغطرِسةٍ مثل الإنكليز، فحالوا دون عبورِهم من مضيق الدَّرْدَنِيل؛ فلما جاشت قلوب المفعَمين بالإيمان بنداءِ: ﴿**مَتَى نَصْرُ اللهِ**﴾ (سورة البقرة: ٢/٢١٤) أرسل الله ملائكتَهُ ونَصَرَ عِبَادَهُ.

**وثانيهما**: "الجهاد الأكبر"؛ وفي هذا النوع من الجهاد هناك حاجة إلى سندٍ أقوى؛ فالجهاد الأكبر نقوم به تجاه الشيطان الذي يتسلَّط علينا وتجاه النفسِ الأمارةِ بالسوء، وفي كفاحنا هذا الذي نُجريه أمام النفس والشيطان نُزيحُ كلَّ الوسائطِ ونلتجِئُ مباشرةً إلى الله تعالى؛ لأن هذا الكفاحَ ليس من النوع الذي يُقَدَّم تجاهَ العدوِّ الذي يحتلُّ البلاد، بل هو كفاحٌ تخوضُ فيه تجاه الشياطين والأشرارِ الذين يحتلُّون القلبَ الذي هو "بيت الله".

كم من فئة قليلة ضعيفةٍ مادّيًا غَلبت فئةً كثيرةً أقوى منها بإذن الله وعنايته وبقوة صِلَتهم بربهم في الجهاد الأصغر، كذلك لن يُحرِز الإنسانُ النصرَ في هذا الجهاد الأكبرِ أمام النفس والشيطان، ولن يتخلَّصَ من الهزيمة أمامهما إلا بعناية الله ونُصرَتِهِ، فالطريقة المُثلى في هذا الجهاد هي الاحتماء بالحق ﷻ والالتجاءُ إليه مباشرة، و"التعوُّذُ" -بالفعل- عنوانٌ لهذا الالتجاء والتوجُّهِ إليه تعالى بشعورٍ ووعيٍ...

### ٩- الشيطان الرجيم بين الماضي والحاضر

إن الحقَّ ﷻ يَصِفُ الشيطانَ بـ"الرَّجِيمِ" أي المطرود من باب الحضرة الإلهية، ومن هذا التعبير نفهمُ أنه في سابق عهدِهِ كان من المقرَّبين إلى الحضرة الإلهية ومن المطيعين، لأنه لو لم يكن مقبولًا لدى الحضرة الإلهيّة قبلَ ذلكَ لما كان يُتصوَّرُ كونه من المطرودين، والشيطانُ راحَ ضحيةَ كبرِهِ وغرورِهِ، فأدَّى عصيانُه وتمرُّدُه إلى رَجْمه، فطُرِد من الجنة التي أعدَّها الله لعبادِهِ المؤمنين، أي إن الله ﷻ طَرَد الشيطانَ من الجنَّةِ حفاظًا على عبادِهِ وسلامتِهِم، ولكن يا تُرى هل نَقَّيْنَا قلوبَنا -التي هي مرآةُ الصمدانيّة- من شرِّ الشيطانِ وَرِجْسِه؟! فهذا هو لبُّ القضية وبيتُ القصيد، وإنّ الاستعاذةَ لَتُذَكِّرُنا بهذا على الدوام.

"اَلشَّـيْطَان": هذه الكلمة مُعَرَّفة بأداة التعريف، وذلك يعني أنه شـيطانٌ معـروفٌ ومعهـودٌ، ذلك الشـيطان الذي عـادى آدم عليه السـلام وما زال يعادِي ذرِّيَّـتَـهُ إلى اليوم.

نعم، إن الشـيطانَ في الماضي، بتلك السـلطنة التي أَسَّسـها لِحِسـاب الكفـرِ والإلحـادِ، ولا يـزال يفعـل ذلـك في الحـال وسـيواصل ذلك في المسـتقبلِ، وسـيبقى إلى قيام السـاعة يعمـلُ جاهِدًا لِتحقيـق هذا الهدف، وفي كلِّ مرحلةٍ سيجدُ له من يمثِّلُون دعواه، ولن يألوَ جهدًا في سبيل هدمِ النظـامِ الإلهـيِّ، إنـه عدوكم القديم، ذلك الشـيطان الذي تَسـبَّبَ في طردِ أبيكم من الجنة، فأنتم تعرفونه جيِّدًا، ولكن اعلَموا أنه سـيحاول أن يفعلَ بكـم مثـلَ ما فعـل بأبيكم، فَحَذَارِ مـن أن تغفُلوا عن ذلك فتتَّخِـذُوهُ وليًّا، بـل تَعوَّذوا بـالله منه، وهذا المعنى على ما إذا كانـت "أل" التعريف للعهد الخارجـي، وأمـا إذا كان للجنسِ فيكون المعنى حينئذ: أعوذ بالله من شـرِّ كلِّ شيطانٍ إنسيٍّ وجنّيٍّ؛ مِمَّن أَخرَج سيدَنا آدم من الجنة، ومَن أغوى قومَ سـيدنا نوح، ومَن أطغى قومَ سـيدنا هود، وشـرِّ سـائر الشياطين الذين هم وراء كلِّ ضلالة ورذيلة وشناعة في عصرنا هذا.

**ج. أحكام فقهية تتعلق بالاستعاذة**

وأمـا الأحـكام الفقهيـة المتعلقة بالاسـتعاذة، فمن العلمـاء من يرون الاسـتعاذة بعـد الانتهاء من تلاوة القرآن وهم قلّـة، والجمهور يرونها قبل البَدْءِ بها، ولكلٍّ دليلُه ومستنده.

وللقراء والعلماء آراء مختلفة في صِيَـغِ الاستعاذة، نُجمِلُها على النحو التالي:

١- "أَعُـوذُ بِـاللهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيم"، بها يتعوّذ جمهورُ السَّـلَفِ من الصحابة والتابعين.

٢- "أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم"، وهي ما اختاره بعضهم.

٣- وبعضهم كان يتعوذ بـ"أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".

فالتعوُّذ بالله من شرِّ الشيطان في كلِّ الأحوال؛ في الصباح وفي المساء، وعند النوم وبعد الاستيقاظ، سيكون بمثابةِ وثيقةٍ للعيش في أمان، والوصولِ في أمنٍ إلى الجنة دارِ السلام.

والاستعاذةُ علامةُ الالتجاءِ إلى الله، وتقديمِ المعذِرَةِ، وأمارةُ الإخلاص، والقرآن المعجزُ البيانِ يوصينا بأن نقول: "أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، وأن نبحث عن مدى طاقتنا وحجمنا تجاه نوائب الدهر، وأن نتعلّم المهارات التي يتطلَّبها هذا الأمر، ويسوقنا إلى أن نتصرَّف وكأننا مهيضو الجناحِ كسيفو البالِ، وأن نحلِّق إلى آفاق الكمالات الإنسانية بجناحِ العجز والضعفِ، ونفهمَ أننا "لا شيء" حتى نعتمدَ عليه ونستعينَ به في كلِّ خَطْبٍ ونازلةٍ.

## البسملة

والآن لنحاول أن نَعْرِض معاني البسملة الشريفة:

إن البســملةَ فاتحــةُ كل خيــر، وهي عبارةٌ عــن خيطٍ نورانــيٍّ دُلِّيَ من العرش الأعظم، فمن يُمسِــك به يســتطيع أن يتحدّى الكائنات كلها، لأن البســملةَ تعنــي الثقةَ بــالله، والاتّكالَ والاعتمــادَ عليه تعالــى، إن بابَ هذا العالَم فُتِح بـ"بِسْمِ اللهِ"، وأُنْشِئَت الكائناتُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، وكلُّ الأحداث تقـعُ بـ"بِسْـمِ اللهِ"، والقيامة ســتقومُ بـ"بِسْمِ اللهِ"، والحشـر والنشور والجنة والنار ستتأسَّــسُ بـ"بِسْــمِ اللهِ"، والمؤمنون إذا قالوا "بِسْـمِ اللهِ" ستُفتَح لهم أبواب الجنان، وهناك سيرى المؤمنون الذات الإلهية الوارد ذكرها في ﴿**بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، و كما بدأَ العالمُ بـ"بِسْمِ اللهِ" فإنه سينتهي بـ"بِسْمِ اللهِ".

### أ. الباء

إن البســملة تبدأ بحرف الجر (الباء)، وحرف الجرِّ يجرُّ الاســمَ الذي يدخـل هـو عليه، وكلمة "اســم" هنا مجـرور بالباء وعلامةُ جرِّهِ الكســرةُ، والكســرةُ والانكســار من جذر صرفيٍّ واحد، وكأن الكســرةَ هنا في بادئِ الكلام تُعلِّمنا الولوجَ إلى بابه تعالى بقلبٍ منكســرٍ، والحقيقةُ أنه لا بدّ لنا ونحـن نباشِــرُ أيَّ أمرٍ ذي بالٍ أن تكون قلوبُنا منكســرةً تجـاهَ الحقِّ تعالى وأن نتبــرَّأ من حولِنا وقوَّتِنا معتمدين على حولِهِ وقوَّتِهِ، حتى يكون عجزُنا وفقرُنا بمثابةِ شافعٍ ومُسْتَدْعٍ لحولِهِ وقوَّتِهِ...

وللباء معانٍ، منها: "المصاحبة"، وباءُ المصاحبةِ لغةً: هي التي يحسنُ في موضِعِها (مَعَ)، فالإنسان إن كان يريد معيَّةَ اللهِ ورسولِهِ والقربَ منهما فليقل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ومِن معانيها: "الإلصاق"، فالإنسان بالبسمَلَةِ يلتصِقُ ويتشبَّثُ برحمانيّة الله ورحيميته، وهذا هو كمالُ المقصودِ، وكلُّ السرِّ يبدأُ بنقطةِ الباءِ، وينتهي عند ميمِ "الرحيم".

وإذا حذفنا نقطة الباء فسيخطر على البال خطٌّ كالألِفِ يمتد من الأزل إلى الأبد، والألِف عند الصوفية ترمز إلى الله تعالى، وقبل أن نضعَ نقطةً تحت هذا الخطِّ فنجعلَه باءً، كان ذلك النور العظيم اللامتناهي غيرَ معروف أو معثورٍ عليه؛ لأنه لم يكن هناك ظلٌّ في تلك المرحلة، إذ كل شيء يُعرف بضده.

والنقطة ترمزُ إلى سيدنا محمد ﷺ، والرسولُ ﷺ نواةٌ وخُلاصةٌ للكائنات، ولولاه ﷺ لما أمكننا معرفة الله، والله تعالى كان يَرَى ذاته في ذاته، ويَعلَم ذاتَه بعلمه الذاتي، ولكنه تعالى أراد أن يُرَى بعيون أخرى،ويُعرَفَ مِن قِبَلِ آخرين، ولذلك خَلق نورَ سيدنا محمد ﷺ وخَلقَ الكونَ من نورِهِ، وفي نهاية المطاف ظهر الإنسانُ وبرز للعيان كثمرةٍ للكون، وهذا هو مصداقُ المقولة المشهورة: "إن الله لَيُرى في المرآة المحمدية دائمًا"، إن المرآةَ وكلَّ ما يَتراءى فيها لَيُوجَد في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأوَّلُ اسمٍ في البسملة هو لفظُ الجلالة: "الله"، فنحن نبدأُ أعمالَنا باسم الله تعالى، و"الرحيم" في آخر البسملة هو من صفاتِ الله تعالى، إنه صفةٌ مشتركةٌ بينه تعالى وبين حبيبه صلوات الله عليه، فلقد وَصف حبيبَهُ الكريمَ في القرآن بصفتِهِ هو، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يعني بذلك سيِّدَنا محمدًا ﷺ.

وهـو تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (سـورة الأَنْبِيَاء: ١٠٧/٢١) فإنـه يؤكِّد رحيمية سـيدنا محمد ﷺ الـذي بُعث رحمةً للعالمين، ففي البسـملة يُتحدَّث عن الله، مـع الإشـارة إلى سـيدنا محمد الذي عرَّفَنَا بالله.

وللباء فِعلٌ يتعلَّقُ هو بِهِ، والحقيقة هي أن الكونَ كلَّه عبارةٌ عن أفعال، وهـذا الفعـلُ مقـدَّرٌ مقدَّمًا أو مؤخَّـرًا، فنحن نأتي بلفـظِ الجلالة "الله" في صـدرِ الـكلامِ، حيـث إن الله تعالـى كان ولم يكن فعلٌ، فـالله كان "فاعلًا" بِذاته، ويمكن أن نقول: إن أفعالَهُ كانت مُصاحِبةً لذاته، فحينما يَصِلُ الأمر إلى هذه النقطة فإننا نُمْسِكُ عن الكلام.

والمتعلَّـق المقدر هو "أبدأ"، ويمكن أن يقدَّرَ المتعلَّقُ: "ابتدائي"؛ فإن قدرنـاه: "أَبْـدَأُ" فالفاعل ضمير مسـتتر وجوبًـا تقديره: "أنـا"، وإن قدرناه: "ابْتِدَائي" فالفاعل هو ياء المتكلم.

**ب. كلمة "اسم"**

هـي مِن "سَـمَا - يَسْـمُو" أو من "وَسَـم - يَسِـمُ"، فعلـى الأول يكون معنـاه: الارتفـاع والعلـوّ؛ والله تعالى متعالٍ بذاته وأسـمائه، وهذا مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الأعراف: ١٨٠/٧).

وعلى الثاني يكون معناه: العلامةُ والأمارةُ، فلا تُطلَقُ لفظةُ "الله" على غيـرِهِ تعالى، فـإذا أطلقت هذه اللفظة فالذي يتبـادر إلى الذهنِ هو الذات الأَجَلُّ الأعلى الذي يَحْكُم الكونَ والذي نعرِّفه بـ"واجب الوجوب".

وينبغـي لنـا أن نقـفَ قليلًا عند كلمة "اسـم"؛ فـالله تعالـى يَذكُر هذه الكلمـة قبل اسـمه تعالى ليقول: "بسـم الله" ولا يقولُ -مثـلًا- "بالله"، مـع أنَّ لِقائـلٍ أن يقـول: كان بالإمـكان أن يـؤدَّى هذا المعنى لـو قيل: "بالله"،

إلا أنه لو قيل -بدلًا عنه-: "بالله" لَالْتَبَس بالقَسم، والحالُ أنه ليس المرادُ هنا القَسَم، بل المرادُ والمقصودُ هو الارتقاءُ من حضيض ظلمات الجسمانية إلى مستوى الروحانيات ونورانياتِ القلب، وذلك بعناية الله والتشبثِ بأوامره ﷻ، بمعنى أننا نقول هذه الكلمة ونتشبَّثُ بها للارتقاء والصعودِ بها إلى الكمالات الإنسانية.

وحينما تُطلَق كلمة "اسم" يتبادر إلى الذهن جميعُ أسماء الله الحسنى، ولله تعالى أسماءٌ بعدَدِ تصرُّفاتِهِ في الكون، فكأنَّ هذه الأسماءَ التي تمثُلُ أمام أنظارِنا بِذِكْرِ هذه الكلِمَةِ، قد تعلَّقَتْ النيّة بها أثناء ذكر لفظ الجلالة "الله"، وكأنّها كلُّها وردَ ذكرُها بتمامِها، وذلك على قدرِ سَعةِ النية واستيعابها؛ أي إنَّ من يقول: "بسم الله" يكون كأنه نوى أن يَذكُر: "الملك، القدوس، العزيز، الرزاق، الخالق... وغيرها مما لا يُحصَى من أسماء الله واستَشفَعَ بها... وبما أن كل الحركات والمَطالبِ منوطةٌ بهذا الاسم؛ فإن القوة الخارقة اللامتناهية التي في البسملة جديرةٌ بالاهتمام، وتحمِلُ دلالاتٍ عميقةً، فالذي يقول: "بسم الله" يكون كأنه ذكر الأسماء الحسنى كلَّها واستشفَعَ بها في نَيل ما يريد.

والإنسان الذي يقول: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يكون في الوقت نفسه في مقام "الغَيبة"، أي في مقام "الفَرْق"، أي في مقامٍ يتحدث عن الله بـ"هو"، ففي مقامٍ كهذا حينما يقول: "بسم الله" تَحُولُ كلمة "اسم" بين الإنسان وبين لفظِ الجلالة.

إن الكون عبارةٌ عن تجليات الأسماء الإلهية، والذي يتموَّجُ في كلِّ مكانٍ هو أسماء الله ﷻ، وحينما يُقال: "اسم"، فكلُّ هذه التموُّجات تتبادرُ إلى الذهن، فنحن نُعَبّرُ بلفظِ الجلالةِ عن هذا المعنى اللاهوتيّ المتعلّقِ بالألوهية.

فنحن عبارةٌ عن النقطة التي تحت باء البسملة، سئل الشِّبلي: "هل أنت الشبلي؟" فأجاب: "لا، بل أنا نقطةٌ تَسْتَظِلّ تحت خطٍّ مستقيمٍ نورانيّ، وأنا مرآة لوجوده ﷻ".

### ج. لفظُ الجلالةِ الأشرف: "الله"

لا يروق لي القولُ بأن هذه اللفظة أعجمية نُقِلَتْ إلى العربية، ولا يطيب لي البحث عن أصلٍ لها حسبَ علمِ الاشتقاقِ كأنْ يُقال: إنها مأخوذةٌ من هذا الجذر أو مشتقة من ذاك... صحيح أن من العلماء من أرجعها إلى بعض الكلمات وحاوَلَ أن يجد لها أصلًا، ولكني -وأنا العاجز الفقير- أقول حسبَ رأيي المتواضع: "كما أن ذاتَ الباري ﷻ أزليّةٌ؛ فكذلك اسمه من الأزل هو "الله"، وليس من المناسب البحثُ عن أصلٍ لكلمةِ: "الله"، ولكن هناك كلمات تدور في فَلَك هذه اللفظة الجليلة، وكأنها تقول: أنا لي وجهُ شَبَهٍ بهذه الكلمة، ونحن بدورِنا سنقوم بعرضِها وسردِها:

إن كلَّ شيءٍ منوطٌ بالله، وكلُّ شيءٍ قائمٌ بالله، ونورُ وجهِ الكائنات وضياؤُه لفظةُ: "الله"، وكلُّ مكانٍ لا توجد فيه كلمة "الله" فسيكون ما فيه من العلوم والمعارف عبارةً عن خيالٍ وسرابٍ، وستُصْبِحُ ركامًا من أفكارٍ غيرِ مفهومةٍ، ومستعصيةً على الحلّ، فدخولُ كلِّ العلوم في القرن العشرين في مأزقٍ وطريقٍ مسدودٍ إنما هو بهذا السبب، وكلُّ العلوم والتقنيات والفنون التي لا تستند إلى كلمة: "الله" مسدودةٌ وغير نافذة، وتنطوي على عديد من التردّد والشبهات، ورجلُ العِلْمِ قد يسمّيها بأسماء مثل: "الفرضيّة" أو "النظريّة" أو أسماء أخرى، ويحاولُ أن يقدّمها للناس وكأنها معلومةُ الماهيةِ؛ ولكن الحقيقة أنها لم تُعرَفْ بعدُ لا بمعناها ولا بماهيَّتِها.

إن كلَّ شيءٍ في الكون يستند إلى حقيقةٍ، ولا بدَّ أن يكون في أساسِ كلِّ شيءٍ حقيقةٌ، ويجب أن يكون في أساسِ هذا الكون الرائع أيضًا حقيقةٌ كبرى يستنِدُ إليها ويجدُ بها معناهُ، وإنَّ صرحًا فنيًّا رائعًا مثل الإنسان الذي هو ثمرةٌ لشجرةِ الكون لا يمكن إسنادُهُ إلى بعضِ الفرضيّات، كأنْ يستند -مثلًا- إلى ما يسمَّى: "الأميبا" *(AMİP)* التي تعيشُ تحت البحار، ولا إلى الدِّيدان، ولا لرياح الصُّدفة، بل لا بد أن تكون وراء هذه التحفةِ الفنّيّة حقيقةٌ كبرى، وتلك هي ما تعبّر عنها كلماتُ: "الله"، "الرحمن"، "الرحيم".

وأودُّ هنا أن أَلفتَ الأنظارَ إلى نقطةٍ؛ وهي أن هناك تياراتٍ علميةً نشأت في شَرْقِيِّ العالم وغربيِّه وشماله وجنوبه، وأن ثمَّةَ دُوَلًا قَطعتْ أشواطًا بعيدة في مجال العلوم والتكنولوجيا، ولكن عندما تنسدُّ كلُّ الطُّرُقِ فإن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله سيستنجدون بأولئك الذين تعلَّقت قلوبهم بالله والذين يحلِّقون بكلِّ مشاعرهم كالفراشة حول الإيمان به تعالى، ويؤمنون حقّ الإيمان.

وإذا كان هناك مَن يريد تنسيقَ العلومِ، فإن هذا إنما يتأتَّى بإسنادها إلى لفظةِ: "الله"، وحينَها ستكون العلوم والمعارف مستنِدَةً إلى حقيقةٍ، وستجدُ لونَها وصبغتَها الحقيقيّة.

إن "المؤمنين بالله" هم الذين سيوجِّهون العلوم والمعارف إلى مَجرًى جديدٍ، وسيؤسّسون العلومَ والمعارف على أسسٍ متينةٍ... فإن لم يتحقَّقْ ذلك ولم يُفهَمْ معنى الكون، فإن الله ﷻ سيدمِّرُ الكونَ ويبعثرُهُ، بسبب أنه لم يعُدْ معناه مفهومًا ولم يعد يُستخدَمُ في السبيل التي خَطَّها الله له...

إن الله المعبود بالحق والمقصود بالاستحقاق، إنه الموجودُ الوحيد الذي يستحقُّ العبادة...

والله محبوبٌ بذاته...

والقلوب بذكره تطمئن، وكل القلوب المنكسرة إذا وصلتْ إلى أعتاب بابه صُبَّتْ فيها السكينة...

والله هو العلي الأعلى، فليس لشرك المشرك أن يصل إلى مقامِ عزّه وعظمته...

إنه لا تدركه الأبصارُ، وهو متعالٍ علوًّا كبيرًا، وهو الذي يُدبّرُ الكونَ كلَّهُ... إننا لا نراه بأبصارِنا ولكنّنا نشاهدُ ونُعاين في كلِّ شيء آثارَه التي هي أبرز من كلِّ عيان وأنصعُ من كل ناصعٍ أو برهان... فندركُ أنه تعالى "مُختَفٍ من شدة ظهوره".

وهو ﷻ ملجأُ المنكسِرة قلوبُهم أجمعين، وهو منبعُ حيرةٍ للمؤمنين؛ فكلُّ مَن زادت معرفَتُهُ بالله سيغوص في بِحارِ الحَيرةِ...

والله ﷻ معبودُ كلِّ إنسان، إنه تعالى المعبود بحقٍّ لأنه هو: "الله".

والآن لنستخرجْ هذه المعاني من تلك الكلمات القريبة من لفظة الجلالة: "الله".

### ١- تحليل لبعض الألفاظ القريبة من لفظ الجلالة "الله"

**أ. "أَلَهَ - يَأْلَهُ":**

"أَلَهَ": بمعنى "عَبَدَ" لأنه تعالى هو المعبود، أي المتفرّدُ باستحقاق العبوديّة، و"أَلَهْتُ إِلَى فُلَان" أي سكنتُ إليه، إن الإنسان يسعى دائمًا للوصولِ إلى الكمالِ، وفي سبيل ذلك يعمل دونما كللٍ أو مللٍ، فيقطع المسافات الشاسعة، وإن الذي لم يَفقد إنسانيَّتَهُ ويحملُ بين جوانحه القلبَ والوجدان سيكدُّ ويكدح من دون توقُّف حتى يصل في نهاية المطاف إلى الكمال الذي قُدِّرَ له، والله ذو الكمال المطلقِ هو الذي سيمنحُهُ ويدلُّه على الكمال... وهذا الإنسان سيرتقي إلى مقام الأسماء، ومن مقام الأسماء

إلى مقام الصفات، ومن ذلك إلى مقام الشؤون الذاتية، وكلَّما ارتقى سيزداد حيرةً ودهشةً، وسيظلُّ مهرولًا حتى يَصِلَ إلى الكمال، وعندما يأذنُ اللهُ له بالنضجِ والكمال تنزِل السكينة في قلبه، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ٢٨/١٣)، فالمحطَّةُ الأخيرة التي يلجأ إليها الباحثون عن الكمال هي الله، وبالتالي فهناك مناسبة بين لفظةِ "الله" وكلمةِ "أَلَهَ".

**ب. "أَلِهَ - يَأْلَهُ"**

منها فعلُ "أَلِهَ" بمعنى لجأ؛ يقال: "أَلِه الفصيلُ"؛ أي ولعَ بأمه، فكما أن هذا الفصيلَ يَجعلُ عجزَه وفقرَهُ شفيعًا فيلجأُ إلى أمِّهِ، حتى إن أمَّهُ تركله أحيانًا ولكنه لا يتلكَّأُ في اللجوء إليها مرارًا وتكرارًا؛ فكذلك الإنسان العاجزُ الفقير كسيرُ القلبِ مهيضُ الجناحِ المغلوبُ على أمرِهِ، يلجأُ إلى رحمةِ الله ورأفَتِهِ، والحقيقةُ أنه ليس هناك مَن يُستجارُ به فيعود بالنفعِ على المستجيرِ إلا الحقُّ ﷻ، فمعنى الالتجاء هذا مكنونٌ في لفظ الجلالة.

**جـ. "وَلَهَ - يَلِهُ"**

"وَلَهَ" بمعنى تَحيَّر وذهبَ عقلُهُ، وهذه الكلمة تُعبِّر عن مقام الحيرةِ، والحقيقةُ أن كلَّ إنسانٍ إذا تجلَّى له نور التوحيد تأخذه الحيرة والاندهاش، إن بعض الناس لا يستطيع أن يتخطى جسمانيته، فيظلُّ سجينًا في قَفَصِ بَدَنِهِ ذي الجوِّ الخانِقِ الكئيبِ، ولا يدري ماذا عليه أن يفعل، وهذا نوعٌ من الحيرة، في حين أن البعضَ الآخر يتخطّى مقام "الأسماء" ويكون على مشارفِ مقامِ الصِّفات، ولكنه لا يتسنَّى له الكشفُ عمَّا وراءَ ذلك، وهذا يكون أيضًا في "حيرة" ولكن من نوعٍ آخر... وأيًّا مَا كان نوعُ الحيرةِ فهذه الحيرةُ لونٌ من ألوانِ تجلّي نورِ التوحيد... وهذا المعنى العظيم أيضًا مكنوزٌ في لفظ الجلالةِ "الله".

**د. "لَاهَ - يَلِيهُ"**

ومـن تلك الكلمات التي تَمُتُّ إلى لفـظ الجلالة بصلةٍ فعلُ "لَاهَ" أي احْتجَـبَ واختفـى؛ إن الله ﷻ لا يُـرَى بالعيـن، والحال أنه أظهـرُ من كلِّ ظاهـرٍ؛ فعـدَمُ رؤيَتنا له إنما هو لكونه في ذروة الكمال أي لشـدَّةِ ظهوره، بالإضافة إلى أن الله تعالى ليسَ له ضدٌّ ولا ندّ؛ والشـيءُ إنما يُرى إذا كان له ضدّ ولم يكن مرتقيًا إلى درجة الكمال في مراتب الوجود، فالليل يُرى ويُـدرَك لأن لـه ضـدًّا وهو النهار، وكذلك الأمرُ بالنسـبة للنهـار لأنه ضدُّ الليل، والحرارةُ كذلك إنما يُحَس بها بالبرودة، والعكسُ صحيحٌ...

ذلـك الله الـذي إنما تتحقَّـقُ كلّ الأمور من الرؤية والسـمـع، والحياة والمـوت، والإيمـان والكفـر، والعـدل والظلم، وسـائرُ الأضـداد بتجلِّيه تعالى، والخير والشـر منه، فهل يمكن رؤيةُ الله الذي منه كلُّ شـيء وليسَ له ضدٌّ ولا ندّ! ولذلك نقول: "إنه مختفٍ مِن شِدَّةِ ظهورِهِ"، يدعوه أرباب القلـوب فـي مناجاتهـم قائلين: "يا من احتجبَ لشـدَّةِ ظهـورِهِ وخفيَ عن الأبصار لعظيمِ نورِهِ".

و"لَاهَ" يأتـي بمعنى "ارتفـع" أيضًا... فالمُشـرِكُ مهما اتَّخَذَ على وجهِ الأرضِ شـركاء لله، وجاوزَ حدَّهُ فقال: "إني سبحتُ في أجواء الفضاء فلم أعثر -حاشَا لله- على الله"[٣٠]؛ فالله الذي تَنزَّه عن الزمان والمكان، والذي يحكُمُ الكونَ كلَّه، والذي يقلبُ كلَّ شيءٍ في قبضةِ تصَرُّفِهِ كيف يشاءُ؛ لهوَ مرتفـعٌ ومتعالٍ عن كلِّ أنواعِ الشِّرْكِ والشركاء...

**٢- خصوصيّة لفظ الجلالة**

ومـن خصائـص لفظ الجلالة "الله" من التميُّزِ ما لا نَجِدُهُ في الأسـماءِ الأُخرى؛ فإنك إذا حذفتَ منهُ الهمزةَ يكونُ الباقي "لله"، وإذا حذفتَ اللامَ

(٣٠) يُحكى أن رائدَ الفضاء السوفيتي "يوري جاجارين" الذي يُعتبر أول إنسان تمكن من الطيران إلى الفضاء قال هذه المقولة. (الناشر)

الأولى يبقى "له" ويمكن أن يُحمل على معنى "لأجلِهِ تعالى"، وإذا حذفت اللامين مع الألف يبقى "هُ" أي: "هُو"، وهذا الضمير يمكن أن نشيرَ به إلى الله تعالى.

فلفظ الجلالةِ لفظ معجز بهذه الدرجة، فلنقف باختصار على هذا الحرف الأخير منه (هُ)، ثم لنعرِّجْ مرة أخرى على معناه بشكل عام.

إن "هُـ" (هُـوَ) بحدِّ ذاتِهِ معجزٌ، والإنسان حينما يقول: "هُـ" (هُو) يستذكر المعنى التالي أو إن استحضار المعنى التالي يجعله يقول: "هُ" (هو)، حيث إن العبد يقول: يا إلهي! أين أنا منك، فأنا المخلوقُ من ماءٍ مهين، وأنت المعبود بحقٍّ سلطانُ الأزل والأبد، فأنا لا أستطيع أن أخاطبك بـ"أنت"، بل إنما أناجيك بضمير الغيبة "هُ" (هو) في سياق التعبير عن معاني جميع أسمائك التي مَلأَت الكونَ، وإنما أشفي غليلَ صدري بأن أقول: "هُ" (هو).

والإنسان في كثير من الأحيان حينما يذكر اسمًا من أسماء الله تعالى، يستحضرُ علاقة ذلك الاسم بالموجودات ويأخذ بعين الاعتبار علاقةَ ذلك الاسم بنفسِهِ، فمثلًا: حينما يقول: "يا كريم" قد يستحضر إكرام الله ﷻ له ويقوله طالبًا إكرامَه، وحينما يقول: "يا مُحسِن" طالبًا إحسانَ الله تعالى، وحينما يقول: "يا جميل" يستحضر تجليات الله الجمالية، وهكذا قد تشوب الإخلاصَ هَناتٌ ولو إلى حدٍّ ما، في حين أنه حينما يقول: "هو" فإنه يكون قد تَخطَّى كلَّ الأماني والمطالِبِ، وأَعلَن أن الله تعالى هو المعبودُ المُطلَقُ لا لشيءٍ بل لأنه هو "الله"، وهذا سيشفي غليلَ صدرِه بحيث لا يدرك مدى الذوق الرفيع الذي يَشعر به هذا القائل إلا مَن سَبق له أنْ قال من أعماق أعماق ضميرِهِ: "هوووو"، فهذا اللفظُ له تأثيرٌ كبيرٌ على التربية الروحيّة.

وأيضًا فإن الله ﷻ يعرِّفنا بذاته من خلال أفعاله وآثاره، ونحن بِدَورِنا نَعْرِفُهُ بِقَدْرِ تجلّياتِهِ وآثارِهِ الموجودةِ لدينا، ولكن هذه المعرفة نسبية، وتُعدُّ معرفةً ناقصةً إذا قارنَّاها بالمعرفة الحقيقيّة، لأن الإنسان لن يتأتّى له أن يُدْرِكَ ويستوعبَ كلَّ هذه الأفعال الجارية في الكون، ويحيطَ علمًا بفاعِلِها، من خلالِ عدسةِ ما أُسدي إليه من الألطاف والإحسانات، بل إنه سيُقَيِّم القضيَّةَ في إطارِ موازينِهِ الشخصيَّةِ، فالعبدُ حينما يستشْعِرُ بأنه ماثلٌ بين يدي الله ﷻ، الذي يُعرِّفنا بذاته من خلال آياته الآفاقيّة والأنفسيّة، فإنه يستحيي أو يُكسَفُ من التوجه إليه تعالى بلفظةِ الخطابِ: "أنت"، فيقولُ في مقام الغَيبة: "هو"، والواقعُ أنَّ كلَّ زفيرٍ وشهيقٍ منَّا عبارةٌ عن "هو"، أي إنَّ "هو" منبعُ حياةٍ لنا، ولا يمكن لنا مواصلة حياتِنا إلا بِهِ.

وهناك أمر آخر وهو: أن الإنسان بين يدي ذلك السلطان وأمام سلطنته العظيمة ينسى جوعه وعطشَهُ، وينسى كذلك كلَّ أنواع أبَّهَتِهِ وبهرَجَتِهِ، بل إنه ينسى كيانه ووجودَه، فيَصرِف نظرَه عن كلِّ شيءٍ آخر، فيوجهه إليه فقط، وهناك يقول: "هو"، فكلُّ شيءٍ ينمحي وينعَدِمُ مِن أمامِ نظراتِهِ مع كيانِهِ وذاتِهِ.

فنحن إذ نقول: "بسم الله"، نكون قد تَصوَّرنا وشاهدنا هذه المعاني...

**د. الاسمان الجليلان: الرحمن، الرحيم**

إن لفظة "الرحمن" من الصفات المشبهة الدالَّة على المبالغَةِ، وهي صفةٌ خاصَّةٌ بالله ﷻ؛ حيث إننا حينما نقول: الرحمن، فالذي يتبادَرُ إلى أذهانِنا هو الله ﷻ، فالله هو المقصود من قولِهِ ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (سورة طَهَ: ٢٠/٥) أو ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ٥٥/١-٢)، ومعنى الرحمن: الذي يرحمُ رحمةً لا نهائيَّة، والذي يغذّي بِنِعَمِهِ تغذيةً سرمديّة.

و"الرحيم" أيضًا من أسماء الله تعالى كـ"الرحمن"، لكن الرحيم صفةٌ لا تختصّ بالله تعالى، وهي تُطلَق على المخلوقِ أيضًا.

والآن تعالوا بنا نُقارِنْ بين هاتين الكَلِمَتَين:

### هـ. مقارنة بين كَلِمَتَي "الرحمن" و"الرحيم"

إن كلتا الكلمتين مشتقَّتان من "الرحمة"، وتُعَبِّران عن رحمةِ الله ﷻ، ولكن في حين أن إحداهما تُعَبِّرُ عن رحمتِهِ الشامِلَةِ العامَّةِ في أوسعِ أشكالِها، تُعَبِّرُ الأخرى عن "رحمةٍ خاصَّةٍ"، وبتعبير دقيق نقول: إن الرحمن تجلٍّ لـ"الواحديّة"، وأما الرحيم فهو تجلٍّ لـ"الأحديّة".

إن كلمة "الرحمن" متوجهة إلى "الأزل" بينما تتوجّه كلمة "الرحيم" إلى "اللايزال"، واللهُ ﷻ قد أوجد الكونَ من العدم بتَعلُّقِ المرحمة التي في روح الاسم الجليل: الرحمن، فالأنظمة والأجرام السماوية وبنو الإنسان والأشجارُ والطيورُ وسائرُ الأشياء قد وُجدت بالاسم الجليل: الرحمن، وكلُّ الموجودات مَعكسٌ لتجلّي الاسم الجليل: الرحمن، فهذه الرحمة العامة الشاملة قد وَسِعَتِ الكون واستوعبتْه قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٥٦/٧)، فأحاطت "الرحمانيةُ" بجميع الكائنات.

وكلُّ شيء يخضع للأوامر الإلهية -طوعًا أو كرهًا- تحت الرحمانيّة، ففي الرحمانيّة نوع من الجبريّة، حيث إن الله تعالى لم يستأذِن الكونَ حينما خلقَهُ، لم يستأذِنًّا ولم يستأذن الطيورَ والأشجارَ والأحجار، فهذه الجبريّة تنبع من واحديّة الله تعالى، إنه مالك المُلك يتصرَّفُ في مُلكِهِ كيف يشاء، وليس لأحدٍ أن يتدخَّل فيما يفعل، فإن تناولْنا الأمرَ من منظورِ اسمِ الرحمن فقط فلا يبقى أيُّ فرقٍ بين إيمان العبدِ وكُفرِهِ، وبين العدل والظلم، وبين الحقِّ والباطل، وبين الحُسنِ والقُبح، وبين الخير والشر...

لأنـه ليس هناك مجال لإرادة الإنسـان، وهكذا يكون الإنسـان مثلَ سـائرِ الموجودات؛ غيرَ مُدانٍ على سـيِّـئاته، ولا مُثابٍ على حسـناتِهِ، بل يكون مثـلَ أيِّ شـجرٍ أو حجـرٍ أو بهيمـةٍ يعيـشُ في حـدود الفِطـرة، فلو كانت تجلِّيـات "الرحمـن" فقط هي التي تَحكُم الكون؛ لـكانَ الوضـعُ على هذا المنوال، ولكن شاء الله ﷻ أن يُودِع في الإنسان "الإرادةَ"، فاقتضَتْ حِكْمَتُهُ أن يجزيَ بالحسنى مَن استَعمل إرادتَهُ في الخير، وأن يُعاقِبَ من استعمَلَها فـي الشـرِّ، وذلك هـو تجلّيهِ تعالى بـ"رحيميَّتِهِ"، وبهـذا يكون الله تعالى قد مكَّنَ الإنسـانَ ويسَّـر له السبيلَ من أسفل سافلين إلى أعلى عِلِّيين؛ فإما أن يرتقي إلى أعلى عِلِّيين، أو ينحطّ إلى أسفل سافلين.

أجـل، إذا كان الطيـرُ يُرفـرِفُ بجناحيه فيطيرُ ويُحلِّقُ فـي الآفاقِ عاليًا ثمَّ يرجـعُ إلى فراخِهِ؛ وإذا كانت الأشـجارُ تنمو وتطولُ وتَبْسـقُ؛ والعيون تجـري نضّاخـةً؛ والنباتـاتُ تَخْـرُجُ مخضرَّةً؛ والأشـجارُ تؤتـي أُكُلَها في موسِـمها؛ والبهائـمُ تُعامِلُ أولادَهَا بمنتهى الشـفقة والرأفـة... فإنما ذلك كلَّـه مـن تجلِّيَـات "الرحمن"، ولكن هـذه الموجـودات لا تملك الإرادة، بل إنها مضطرَّةٌ للعيشِ في إطار الحدود التي رَسَـمَها وعلَّمها وقدَّرها لها "الرحمـن"، فـي حين أن لله تعالى نوعًا خاصًّا مـن تجلِّيات الرَّحمة، وهي متعلِّقة بـ"الإرادة"، وهذا هو ما نفهمُهُ من كلمةِ "الرحيم".

وحاصـلُ القـولِ هو: أنه لـولا "الرحمن" لم نأتِ إلـى عالم الوجود، ولَانْعَـدَمَ الكونُ وسـائرُ الموجـودات... ولولا "الرحيم" لما كنا نسـتعمل "الإرادة"، ولَـكُنَّا نعجز عن إدراك دقائِقِ صُنْـعِ الحقِّ ﷻ.

فـ"الرحمـن" بَسَـطَ الكـونَ أمـام أنظارنا مثل كِتـابٍ كبيـر، و"الرحيمُ" مَنَحَنا "الإرادةَ" لكي نقرأَ ذلك الكتاب، فنُحوِّلَ باقاتِ الأنوار التي نلتقطُها مـن ذلـك الكتاب إلى إيمـانٍ في قلوبنا، وكذلـك مكَّنَنَا "الرحيـمُ" من أن

نجتازَ حدودَ الكائنات، ونقتربَ من سواحل الأسماء الإلهيّة ونبحثَ في مكنونات كيفيّات الصفات السبحانيّة وأحوالها، ونتعرّفَ على ذات الباري ﷻ، إنَّ إدراكَ ذات الباري ﷻ غير ممكنٍ؛ فلو حاوَلْنا أن نشرح بألفِ اسمٍ من أسمائِهِ بل بملياراتٍ منها لَمَا استطعنا أن نأتيَ بشيءٍ يُذكَر في بيان ذات الباري، يقول سيدنا أبو بكر ﷺ: "العجزُ عن دَركِ الإدراك إدراكٌ"(٣١)، وفي الخبر: "مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ يَا مَعْرُوفُ"(٣٢)، ومن هذا المنطلق فنحن أيضًا نقول في مقام الاعتراف بعجزنا والإعلانِ عنه كما قال ضيا باشا ﷺ:

*إن إدراك المعالي ليسَ من شأن هذا العقل الصغير*
*فإن هذا الميزان ينوءُ بهذا الحِملِ الكبير*

وفحوى الكلام أن الحقَّ ﷻ فتَحَ لنا أبوابَ هذا الكون بـ"بسم الله"، ودعانا إلى مشاهدته، وسَيُغْلِق أبوابَ الكون بـ"بسم الله" أيضًا، ويفتح أبواب دار السلام بـ"بسم الله" وسيدعو بني الإنسان إلى الجنة للفوزِ بالسعادة الأبديّة.

### و. البسملة: حبلٌ نورانيٌّ يَربط قلبَ الإنسان بالعرش الأعظم

نلاحظ أن البسملة تتجلّى في كلِّ مكان، لأنها تحتوي على لفظِ الجلالة "الله" تلك الكلمة التي تتضمَّن كلَّ الأسماء الإلهيّة الحسنى.

إن كلَّ الحقائق التي يتولَّى القرآنُ شرْحَها وبيانها مندرجةٌ بشكلٍ مختصرٍ في البسملة، ومن المؤكد أن لهذا انعكاسًا على قوَّة تأثيرِ البسملة؛ وهذا يوضِّحُ سرَّ قول الرسول ﷺ: "**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِـ"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ" أَقْطَعُ**"(٣٣)، وفي رواية: "أَبْتَرُ" وفي أخرى: "أَجْذَمُ"،

(٣١) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ٢٥٢/٤؛ **المقصد الأسنى**، ص ٥٤؛ السيوطي: **شرح سنن ابن ماجه**، ١٠٣/١.
(٣٢) المناوي: **فيض القدير**، ٤١٠/٢؛ الألوسي: **روح المعاني**، ٧٩/٤، ٢٠٢/١٧.
(٣٣) رواه عبد القادر الرُّهاوي في "**الأربعين البلدانية**".

وكل هذه الألفاظ متقاربةُ المعاني، وهي في مجملها تعني أن كلَّ الأعمال التي لا يُبدأ فيها باسم الله فهي ممحوقةُ البركةِ قصيرةُ العمرِ مبتورةُ الجذورِ ناقصةُ الثمرِ.

والقرآن يتناول أربع حقائق كبرى، وهي: التوحيد والنبوّة والحشر والعدل، والبسمَلَةُ تتضمَّنُ هذه الأمور الأربعة بشكلٍ مجملٍ؛ فالاسمُ الأوّلُ فيها وهو لفظُ الجلالة "الله" متوجّهٌ بشكلٍ صريحٍ نحو التوحيد، والثاني وهو "الرحمنُ" يدلُّ على النبوَّة، والثالثُ والأخيرُ فيها هو "الرحيمُ" وهو يُعَبّر عن الحشرِ والعَدْلِ.

والبسملةُ موجودةٌ في بدايةِ كلِّ سورةٍ من سُوَرِ القرآنِ إلا سورة "براءة"، ويجب -بالإجماع- على كل من ينسخ المصحف أن يكتبها في بداية السور، وإذا تركها يكون قد ارتكب إثمًا.

وفي قراءة البسملة في الصلاة قبل الفاتحة اختلافٌ بين فقهاء الأمة، فعند بعضهم واجب، وعند بعضٍ منهم سنة، وعند البعض مندوب، في حين أن قسمًا منهم يرونها مكروهًا.

ومن العلماء مَن عَدَّ البسملةَ آيةً برأسِها، ولم يعدّها آخرون آيةً قائمةً برأسِها وإنما هي أُنزِلت للتبرُّكِ والفصلِ بين السور إلا التي في سورة النمل.

والبسملة هي بمثابة المفتاح لكلِّ شيء في الحياة، كما أنها بمنزلةِ المفتاح للسُّوَرِ القرآنيّة، فالبسملة في بداية السورة؛ -سواء كُتبت للفصل بين السور، أو للتبرك والاستعانة بالله تعالى على فهم السورة والعمل بمقتضاها، أو لأيّ غرض آخر- هي حبلٌ نورانيٌّ دُلِّيَ من العرش الأعظم إلى قلب الإنسان؛ فالذين يدركون المعاني السامية لـ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ ويستفيدون من فيوضاتها، يستطيعون الاستمساك بها والارتقاءَ إلى عرش "الإنسانية".

إن الله تعالى شَرَحَ وبيَّن في الكتب التي أنزلَها كلَّ الحقائق الموجودة في الكون، حيث إنه ﷻ عبَّر عن هذه الحقائق الكبرى على شكلِ معانٍ في صدور الأنبياء الذين يمتلكونَ قلوبًا مؤهَّلةً لِتَجلِّي تلك الحقائق وبروزِها، وأَعرَب عنها في صورةِ حروفٍ وكلمات على ألسنتهم، وقد فصَّلَ القرآنُ الكريم خاتمُ الكتب كلَّ ما سبقَ إجمالُه في الكتب والصحفِ والألواحِ المقدّسة السابقةِ، والقرآنُ الكريمُ هذا بتمامِهِ تتضمَّنه سورةُ الفاتحة، كما أن الفاتحة ملخَّصَةٌ في البسملة، فالبسملة خطٌّ نورانيٌّ يربطُ بين كلِّ الأنبياء والكتب، وكلُّ الحقائق الموجودة في الكون موجودة -لا محالة- في البسملةِ على شكل نواة، ولكن لا يوفَّق كلُّ أحدٍ للعثور عليها واستخراجها.

## الفصل الثالث

# تأملات في ثنايا سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

## المناسبة بين الآيات والسور

إن هناك مناسبة قوية وعلاقة وثيقة بين سور القرآن وآياتها، حتى لَكأنّ القرآنَ نزل مرة واحدة ولِقضية واحدة، ونلاحظ أن بين البسملة والفاتحة أيضًا تَناسُبًا من هذا النوع، ولكنْ قبل أن نُبَيِّنَ هذه المناسبة نرى أنه من المفيد أن نتطرَّقَ إلى مسألتين:

إن دلالة اللفظ على المعنى لها أوجه ثلاثة:

**أوّلها**: الدلالة الوضعية

فلِكُلِّ كلمةٍ معنًى تدلُّ هي عليه، فاللفظُ موضوعٌ لهذا المعنى الذي يفهمه كلُّ سامعٍ، وعامَّةُ الناس يفهمون الكلام بهذا الشكل؛ فمثلًا: حينما نقول: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يتبادرُ إلى أذهان العامّة من الناسِ معنى الحمد الشهير وأنّه مخصوصٌ بالله، وهذا هو ما تدل عليه هذه الجملة بـ"الدلالة الوضعية".

**ثانيها**: الدلالة العقلية

فهذه الدلالة أخصّ من الأولى وأعلى منها رتبةً وإنما يدركها الخواصُّ؛ فمثلًا: إذا بحَثْنا وحاوَلْنا الإجابة عن أسئلةٍ مثل: "لماذا قُدِّمتْ كلمةُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على ﴿لِلَّهِ﴾؟ وما هي المعاني التي تُستَشَفّ من لفظ الجلالة "الله"؟"، وغيرها من الأسئلة التي نحاول النفاذ عبرها إلى إدراك بعض الحقائق، يصلُ الإنسان إلى جوابِها عن طريق "الدلالة العقلية".

**ثالثها**: الدلالة الذوقية

وهذه أعلى رتبةً من الدلالة العقلية، وهي تُخاطِبُ "خواصَّ الخواص"؛ وهي تستهدف الوصول إلى المعاني لا من خلال ظواهرِ الألفاظِ بل عن طريقِ تذوُّقِ الكلامِ واستشعارِه.

صحيحٌ أن محاوَلةَ تدقيقِ القرآن عن طريق هذه الأوجُه الثلاثة قد تفوقُ حدودَ طاقتي وطاقةِ الكثيرين من غيري، ولكنني، انطلاقًا من واجبِ توقير القرآن، أرى أنني سأكون قد أسأتُ الأدبَ تجاه القرآن المعجزِ البيانِ، إن لم أتطرّق لهذا، وإنَّ موضوعَ حديثِنا هو القرآن المعجز البيان، لذا قد أكونُ عاجزًا عن بيان ما أطمحُ إلى شرحِهِ وبيانِهِ، وقد لا يَسَعُكم فهمُ جميعِ ما يُلقَى عليكم، وإنّكم مع ذلك ستدْرِكون في مجمَلِ الكلام أن هذا "كلام الله المعجِز"، فهذا هو "الإدراك" الذي ينطوي عليه مقولةُ: "العجزُ عن درك الإدراك إدراكٌ"، وإذا توجَّهْنا إلى حضرة المولى تعالى بهذا المستوى من الإدراك التام الذي ينطوي عليه هذا العجزُ وقلنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فسنكون قد توجَّهنا إليه بالإخلاص التام، وارتقينا إلى مستوى "المعراج الإنساني".

والأمر الآخر هو: أن العلماءَ لم يستحسنوا استحضار تفاصيلِ معاني القرآن المعجزِ البيانِ ودقائقِها أثناء الصلاة؛ فإن ذلك يُخِلُّ بحضورِ القلب،

بل الأهمّ من ذلك هو التركيز في الصلاة على أن هذا القرآن هو كلام الله، واستحضارُ عظَمَةِ وهيبةِ الوقوف بين يدي الله، والشعورُ بمعنى: "العجزِ عن إدراكه ﷻ"، والدخولُ في جوٍّ من التفكُّر، مع الإحساس بضغطِ هذا الجوِّ وثقله... وبالتالي المثولُ أمام حضرة الحق ﷻ بعميقِ الخشيةِ وبالغِ الاحترام.

## المناسبة بين البسملة والفاتحة

لسورة الفاتحة أسماء عديدة، فالقرآن الكريم قد عبَّرَ عنها بـ"السبع المثاني"، ووردَ عن الرسول ﷺ تسميتُها بـ"أمِّ الكتاب" و"الشافية" و"الوافية".

سورةُ الفاتحة كنزٌ إلهيٌّ، وكلُّ مهمومٍ سيجِدُ فيها تفريجَ هَمِّهِ، وهي سورةٌ ذاتُ أسرارٍ، تُقرِّبُ الخَلقَ من الخالقِ.

وكما أن لسورة الفاتحة علاقةً قويَّةً وارتباطًا وثيقًا مع ما تليها من السور؛ فلها كذلك ارتباطٌ مع ما قبلها من البسملة، وهذا هو ما يسمّونه: "السياق"، ومن المعلوم أن الكلامَ يُقَيَّمُ على حسب سباقِهِ وسياقِهِ، وفي ضوء ذلك يمكن التفطُّن إلى التناسب بين مكوِّنات الجمل.

سورةُ الفاتحة أوَّلُ سورِ القرآن الكريم، فليس قبلَها سورة، ولكن إذا قدَّرنا في بداية السورة فعلًا يكون هذا الفعل بمثابة سِباق لها، كما يمكن أن نعتبرَ البسملةَ أيضًا سِباقًا لها؛ يمكن تقدير هذا المتعلَّق بـ"اقْرَأْ" أو "قُلْ" في بداية الفاتحة.

فقد ورد في قصَّةِ بدءِ الوحي كما روى البيهقي في دلائل النبوة[٣٤] أن رسول الله ﷺ بينما كان كسيفَ البالِ مغمومَ القلب حزينًا على ما دَهَى البشريّة من هموم؛ وبينما كان يَبحث في غارٍ مباركٍ عن الحلولِ؛

(٣٤) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٣٢٩/٧؛ البيهقي: **دلائل النبوة**، ١٥٨/٢.

وبينما كان قد توجَّهَ بقلبِهِ نحوَ الفيض الأقدس، فتحوَّل ذلك القلب الطاهر في تلك الأماكن المظلمة إلى قلبٍ سماويٍّ صالحٍ لكونِهِ مهبطًا للوحي ومظهرًا للتجلّيات الإلهيّة... فبينما هو كذلك كان يَسمع بين الفينةِ والأخرى صوتًا، وكلما كان يسمعُ هذا الصوت يرجع إلى منزلِهِ على جناحِ السرعة، وفي يومٍ من الأيام باحَ بما في قلبِهِ لرفيقةِ حياتِهِ سيّدَتِنا خديجة ﵂، تلك التي كانت رمز الإخلاص والوفاء له طيلةَ حياتِها المباركة، فقال لها:

"**إِنِّي إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً وَقَدْ وَاللهِ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا**".

فَقَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ، مَا كَانَ اللهُ لِيَفْعَلَ بِكَ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ.

فَلَمَّا دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَيْسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَمَّ ذَكَرَتْ خَدِيجَةُ حَدِيثَهُ لَهُ وَقَالَتْ: يَا عَتِيقُ اذْهَبْ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى وَرَقَةَ.

وكان ورقةُ بن نوفلٍ ابنَ عم سيدتنا خديجة ﵂، وكان قد تنصَّر، وكان يكتب الإنجيلَ بالعربية، ويعلّمه الناسَ، وبما أنه كان يقرأ في الإنجيل إشاراتٍ وبشارات حول مَقْدَم الرسول ﷺ كان كأنه يحسُّ بظلِّهِ فوق هامَتِهِ، ومَن يَدري لعله هَمَسَ بذلك في أُذُنِ كثيرٍ ممن حَوْلَه، وبينما كان يبحث عنه ويتلمّسه في أعالي السماء كسحابة من الرحمة ستظهر عن قريب فتسقي البشرية، فيتحول بها وجه الأرض إلى جِنان؛ إذ بالرسول شاخصًا أمامه، فقال ﷺ له:

"**إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْطَلِقُ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ**".

فقال ورقة: "لَا تَفْعَلْ، فَإِذَا أَتَاكَ فَاثْبُتْ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي".

فلما خلا ناداه: يا محمد! قُلْ: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/١-٧)، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فأتى ورقةَ فذكر ذلك له، فقال له ورقةُ: "أَبْشِرْ، ثُمَّ أَبْشِرْ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ ابْنُ مَرْيَمَ، وَأَنَّكَ عَلَى مِثْلِ نَامُوسِ مُوسَى، وَأَنَّكَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ".

فهذه الرواية تفيد أن سورة الفاتحة من أوَّلِ ما جاء به جبريل عليه السلام من الوحي.

الفاتحة هي أُولى السور، هي فاتحةُ القرآنِ وفاتحةُ كلِّ شيءٍ في الوجود، نَزَلَتْ على القلب التقيِّ المبارَكِ لِأفضلِ بشرٍ، وبعد أن نزلَتْ تفرَّعَتْ أغصانُها وأفانينُها وانتشرَتْ ظِلالُها حتى لَكَأنَّ الإنسَ والجنَّ جميعهم دخلوا تحت ظلالِ أجنحتِها، فهي كافيةٌ وافيةٌ بحلّ كلِّ معضلاتِ البشريّة.

وهناك تناسُبٌ وثيقُ الصِّلةِ بين البسملةِ وبين الفاتحة، ممّا أدَّى بكثيرٍ من الفقهاء إلى عدِّها واحدةً من سبعِ آياتٍ من الفاتحة، وقد ذكرنا سابقًا في سياق محاولتنا لبيان المعاني الجليلة للبسملة: أن الله تعالى خَضَّ المخلوقات بجلالِهِ خضًّا، فخَلَقَها، وألقى بذورَ الوجودِ على أرضِ العَدَمِ، وطوَّر الكونَ حولَ بذرةِ النور المحمّديّ، وأضفى عليها المعنى، وجَعَل الإنسانَ ثمرةً لِشَجَرَةِ الكون.

إن البسملةَ تبدأُ باسم الله، إذ "**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**"(٣٥)، وتختتم باسم "الرحيم" الذي وُصف به النبيُّ ﷺ في القرآن في قوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التَّوْبَة: ١٢٨/٩)، إن الله تعالى خلقَ نورَ سيدنا محمد ثم أتبَعَهُ بِخَلْقِ سائرِ الكائنات على التوالي، فتَسَلْسَلَتْ الأحداثُ الكونيّة، سمِّها -إن شئتَ-: المراحل الجيولوجية، أو المراحل التي تلاحمت فيها الغازات، فالبَذرة التي بُذرت قد تحوَّلت إلى شجرةٍ وأَخذت طريقَها نحو النموّ.

فالإنسان قد يغرسُ في حديقتِهِ شجرةً لِتُثْمِر، وبعد الغرسِ تكون هذه الشجرةُ نُصْبَ عينيهِ وتحتَ رعايَتِهِ، فيرعاها في مختلف مراحلها، ولا يفتأ مُركِّزًا بِنَظَرِهِ على مظانِّ الإثمارِ في انتظار ما تؤتي من ثمار، وقد لا تكون في بذور الشجرة أمارات الحياة، وقد لا تَعنِي قشورُها شيئًا بالنسبة لناظرها، حتى إن أغصانَها وفروعَها وأوراقَها قد لا تَعنِي شيئًا قبل أن تؤتي ثمارها، في حين أن تلك الشجرة إنما غُرِسَت لمعنى كبير؛ فالذي غَرَسَها تكونُ نَظراتُهُ مُنصبَّة ومتركِّزة على تلك الثمرة التي ستطلّ برأسِها فوق الشجرة باسمةَ الثغرِ بين الزهور، وتُلقي بنفسِها في الأحضان على هيئة معلَّبات مجهَّزة تجهيزًا ربّانيًّا.

وهكذا؛ فالله تعالى ألقى نور محمد ﷺ كبذرة إلى أرضِ العَدَمِ، وهذا الوجودُ نشأَ من ذلك النور ومن تلك البذرة، وإن شئتَ فَقُلْ: الإلكتروناتُ قد تشكَّلَتْ منه، وعالم الذَّرَّةِ انبثَقَ عنه... ولكن هذه القضايا كلها خارجة عن نطاق معلوماتنا وإدراكنا، ومَبْلَغُنا من العلم هو أن شجرة الكون قد نبتت ونَمَتْ من البذرة المحمدية التي أُلقيت إلى أرض العدم، وتدلَّت

(٣٥) صحيح البخاري، التوحيد، ٢٢.

إلينا من العرش الأعظم، وهذه الشجرة أثمرت في نهاية المطاف، وثمرتُها هي الإنسان، وثمرة تلك الثمرة وخلاصتها هي سيدنا محمد ﷺ الذي سماه ربه ﷻ: "المصطفى" أي الصفوة والخلاصة.

و"بسم الله" تعبر لنا عن هذه المعاني، فالله بجلاله ورحمانيته خضَّ الكائنات خضًّا، فأخرج منها شجرةً، وبـ"رحيميته" منحَنَا الإرادةَ، ووفَّقَنَا لإدراك معنى الكون وجَسَامَتِهِ، وإذا استحضرنا هذه المعاني فإننا سنستطيع أن نجد المناسبة بين "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ" و"الحمد لله".

## المناسبة بين البَسْمَلَةِ و"الحمدُ للّه"

إن في البسملة جاذبية نابعة من رحمة الحقّ ﷻ، ولكلِّ شيٍ نصيبٌ من هذه الجاذبية حتى سورة الفاتحة، فإننا نبدأُ بتلاوة القرآن بالبسملة، ونبدأ بتلاوة الفاتحة كذلك، وفي بدايةٍ كهذه يُواجهُنا السؤالُ الآتي: على أيِّ كيفيّة وبأيّةِ حالةٍ ستقفون بين يدي الله تعالى الذي يتحدّث عن نفسِهِ في البسملة بالرحمانيّة والرحيميّة؟ وبأيِّ كلامٍ ستُقابِلون تلك الرحمة الجذّابة التي تتجلّى بجلالها وجمالها؟

فجوابنا عن هذه الأسئلة المقدرة يكون على شكلِ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فنكون قد قلنا: "الحمدُ والثناء لله الذي أحاطَنا ورعانا برحمتِهِ".

إن الحقَّ تعالى يتجلَّى تجلّيًا كلّيًا وعموميًّا بـ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، وبرحمتِهِ يمنحُنا من إرادَتِه إرادةً، وبما أننا أصبحنا نُدْرِكُ معاني الأشياء يَفتح لنا بابَ الهداية، بمعنى أن الله تعالى أتى بنا إلى عالم الوجود، ثم إلى عالم الإنسانية، ثم هدانا للإيمان والإسلام، فجعلَنا أمَّةً لمن شرَّفه وسمّاه باسمه الذي خَتم به البسملةَ (الرحيم)، وهكذا فالرحمةُ التي تُحيطُ بنا بجاذبيّتِها تجعلُنا نقول: ﴿**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فالحمد لله على أنْ أوجدَنا، والحمد لله على أنْ خَلَقنا على هيئة إنسان، والحمد لله على أن جعلنا مسلمِين، والحمد لله على أنْ شرَّفَنا وجعلَنا من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ تلك الأمَّةُ التي هي الإنسانيّة الكبرى.

وإننا قُبيلَ التوجُّهِ إلى الله تعالى نقوم بجولةٍ فكريَّةٍ في عالَمِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ونبحثُ في آثار الله تعالى عن الأدلَّةِ التي تدلّنا عليه ﷻ، ثم إن الله بصفته "رب العالمين" يُقَلِّبُ الكون بين أصابِعِهِ -دون تشبيه أو تجسيد-، فيُطْلِعُنا على عَظَمَتِهِ وجلالِهِ، ثم يدعونا عقب ذلك في الفاتحة إلى التأمُّل في اسميه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، بمعنى أنه يُرينا كيف أنه -برحمتِهِ وشفقتِهِ- أَعَدَّ وجه الأرض كمائدةٍ للنِّعَمِ، ونلاحظُ أن الكونَ كأَنَّهُ موجٌ من الشَّفَقَةِ يتموَّجُ بـ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وتظلُّ هذه الموجات يتبع بعضُها بعضًا، فتتكوَّنُ موجاتٌ متتابعةٌ من الرحمة، والله ﷻ مِن وراءِ هذا كلِّهِ يجعلُنا نحسُّ ونشعرُ بوجودِهِ وبرحمتِهِ اللامتناهية، وفي مقابل هذا نخاطِبُهُ بلسانِ جميع المخلوقات ومشاعرِهم وأحاسيسِهم القلبيّة ونقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَبَيْنَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مناسبات من هذا النوع.

وإذ نقومُ بهذا الاستكشاف والبحثِ فإننا نقوم به من غير أن نتوجَّهَ إلى الله توجُّهًا مباشرًا بصيغة المخاطبِ، فنستعملُ صيغةَ الغائب، وقد مرَّ بنا أثناء حديثنا عن البسملة أن هذا المقام مقام "الفرق" أو "الغَيبة" وهما من مصطلحات الصوفيّة.

أما مقام "الجمع" فهو أن يُدرك الإنسانُ جميع الحقائق الكونية بنظرٍ تلسكوبيٍّ، ويَمْثُلَ بين يدي الله تعالى بهذا المستوى من الإدراك.

ويمكن أن نوضِّحَ ذلك كالآتي:

إنه لا يمكن للعبد أن يدرك الله تعالى، ولا يتسنى له أن يتوجه إليه ويقومَ بالعبودية له بشكل يليقُ بعظمَتِهِ تعالى، إلا إذا أَدرَكَ معنى الكائنات كلِّها مرَّةً واحدةً، ولمثل هذا الإدراك لا بدَّ للإنسانِ من تلسكوبٍ يَرى به ذلك المقام اللانهائي، حتى يستطيع مشاهدةَ الأفعال الإلهيَّة في هذه

الدائرة الواسعة، ويفهمَها ويدركها، فيقولَ -بالتالي- من كلِّ أعماقِهِ: "اللهُ أَكْبَر"، ويسبِّح الله ويقدِّسه، وإننا إذ لم نَحْظَ بمثلِ هذه الأمورِ على وجهٍ كاملٍ؛ فسنظلُّ في مقامِ "الغيبةِ"، و"الإيمانِ بالغيبِ".

وكلَّما نظرَ الإنسانُ إلى ما في الكون وتفكّرَ بما فيه من سعةِ التصرُّفِ؛ كلَّما حازَ القربَ من الله تعالى وحظي به، وهذا القربُ من مصدَرِ النورِ سيُذيب ما بداخلِهِ من الجليدِ، فتتزاحَمُ المشاعرُ بقلبِهِ مما لم يكن يحسّ أو يشعرُ به قبل ذلك اليوم، ثمّ يرقى إلى مقامٍ كلَّما أدركَ الإنسانُ فيه شيئًا جديدًا أدركَ أن الله مِن ورائِهِ، فمثلًا: إذا نظرتم إلى زهرةٍ ما، فإنه سيتجلَّى في قلبكم: "أن الذي صمَّمَها بذلك الشكل هو الله"، وإذا رأيتم ثمرةً على رأسِ شجرةٍ، فسيَغمر داخلَكم الإحساسُ بأن الذي صَوَّرها ووضعَها في هذا الشكل وأوصلَها إلى هذا المستوى من النضجِ والقِوامِ هو الله تعالى، وستُشاهدون على سيما أبناءِ جنسِكم تجلّياتِ الرحمن والرحيم بكلِّ محاسِنِها.

فبكلِّ هذه المشاعر والمشاهَدات يحاول الإنسان ويثابر للخروج عن "مقام الغَيبة"، فإذا به وقد نبتَتْ في قلبِهِ ووجدانِهِ مشاعرُ وأحاسيس تجاه الحقّ تعالى، تدفعُهُ إلى مخاطَبَتِهِ ﷻ بـ"أنت"، وما إن يَظهر هذا الإحساس حتى يشعرَ بمثولِهِ أمام حضرةِ المولى ﷻ، وبتعبيرٍ آخر: يَشعر بنفسِهِ وكأنَّهُ أمام مزيجٍ من أسمائِهِ تعالى: "الأول" و"الآخر" و"الظاهر" و"الباطن"، فيقول من صميمِ قلبِهِ وبكلِّ إخلاصٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فيصلُ إلى المقام الذي يؤهّله ويستطيع من خلالِهِ أن يخاطِبَ الله تعالى بضميرِ الخطاب "أنت".

مَن أراد أن يَحضُر مجلس السلطان فعليه أن يأتي بهديَّةٍ يقدّمها لجنابه، والذي علينا أن نقدمه هديةً لله تعالى هو: ما خَلَقَنَا لأجله،

ألا وهـو: "معرفة الله"؛ فعلينا أن نَعـرِض عليه تعالى "معرِفَتَنَا" له، ونعترفَ بـأنّ نواصيَنـا بِيَـدِهِ، وبذلك يجدُ وجدانُنـا مخاطَبَهُ الـذي يخاطِبُهُ بـ"أنت"، والحقيقة أن هذا الإحساس الذي نُكِنُّه في وجداننا تجاه الله تعالى موجودٌ ومغروزٌ فينا بالفطرة، ولكن قد يغطِّي الوجدانَ طبقةٌ من الوسـخِ والغبارِ، فإذا شـاهدَ العبدُ "إجراءاتِ" رب العالمين، واطَّلـع على تجلّياته بالرحمة؛ فسـرعان ما تزول هذه الطبقة وينقشِـعُ الغشاءُ ويَتنظَّف الوجدانُ، ويتجلَّى مقـامُ "الخِطـابِ" الـذي يعبّرُ عنه "إيـاك"، ومِن بعد ذلك ينطلقُ لسـانُهُ بـ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، وإذا حظي العبد بهذا القرب قال: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾، لأنه لن يستطيـعَ النهوض بتكاليفِ العبودية إلا بمعونةٍ في هذا المستوى، فلم تَعُدْ هنـاك واسـطةٌ ولا وسـيلة؛ فإن العبد الـذي ارتقى في مقـامِ الخِطاب إلى هـذا المسـتوى لا بدَّ وأنه سيسـتعين بالله وحدَه، فإنه فـي مقامه هذا يكون قد شـاهَد وراءَ كلِّ شـيءٍ قدرةَ الله وعظمتَه، وبفضل ذلك ارتقى من مقام "الغَيبة" إلى مقام "الخطاب".

والإنسـان في هذا المقام يشـعر وكأن فرصةً قد سـنحت له، وأن عليه أن يسـتثمرها ويسـتغلّها علـى أحسـنِ وجـه، وأن يطلبَ أحسـن مـا يليقُ أن يُطلبَ، حتى لا يفوّتَ الفرصة، فنراه يقول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

وهـذا يعنـي أن الحقيقة التـي كانت مكنوزة في الأزل وفي البسـملة، أصبحـت الآن تُفْصِحُ عن نفسِـها فـي الفاتِحَةِ وفي وضعِنـا الحالي، ومن باب التفسير لهذا اللغز يقول جعفر الصادق: "لَقَدْ تَجَلَّى اللهُ لِخَلْقِهِ بِكَلَامِهِ وَلَكِنْ لَا يُبْصِرُونَ".

وكل مـا سـردناه إلـى الآن كان عبـارة عـن المناسـبة بيـن البسـملة والفاتحـة، وهكذا لاحظنا أنهمـا مترابطتان ومتعانقتان في مسـتوى ترابطِ أبياتِ القصيدة الواحدة.

وهناك عدَّةُ نُكَت حول المناسبة في سياق البسملة؛ فكما أننا نَصِلُ إلى طمأنينةٍ داخليَّةٍ تامَّةٍ في البسملة، فكذلك نَصِلُ إليها في الفاتحةِ أيضًا، لأن صاحبَ عنوان ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﷻ يأخذ بأيدينا ويسيح بنا في حنايا الكون، فنحن إنما نُدْرِكُ كنهَ الأشياء والحوادث ونَفهمُها تحت ضوء هذا العنوان: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فكلُّ القوانين والنواميس الجارية في الكون إنما تَجرِي تحت هذا العنوان الإلهيّ، ولكن الأحداثَ مُدهِشَةٌ ومخيفةٌ، والإنسانُ إن يَنظُر إلى هذا العنوان فحسب، سيظلُّ واجمًا في مكانِهِ جرَّاء ما ينتابُه من الحيرةِ والدَّهشةِ.

وفي هذه الحالةِ فإن اسمَي: "الرحمن" و"الرحيم" يقومان بالنجدة، ويبعثان الأُنسَ والسكينَةَ والطمأنينة، فذلكم الله ذو الشفقة والرحمة اللانهائيّة، فلا معنى للإحساس بالخوفِ والدهشةِ في ظلِّ سلطنَتِهِ وملكِهِ، وفي الوقت نفسِهِ هو "مالك يوم الدين"، فوجودُ ذلك اليوم الذي يَلقَى فيه المُحْسِنُ المكافأةَ على إحسانه والمسيءُ جزاءَ عَمَلِهِ؛ مِن أجدى الأمورِ لِتذوُّق الإنسان طعمَ السكينة والطمأنية؛ لأنَّ كون الإنسان غيرَ مرتبكٍ ومنزعجٍ ليس سببًا كافيًا لإحساسِهِ بالسكينةِ، بل لا بد من وجود السكينة بذاتها، ووجودُ السكينةِ إنما يتحقَّقُ بأن يكون هناك من بِيَدِهِ القدرة الكافية على أن يثيبَ المحسنَ على إحسانِهِ، ويَجزيَ المسيءَ على إساءَتِهِ فيملكَ ذلك اليوم.

فالإنسان يَشعُر بالسكينة والطمأنية أثناء تجواله في سياقِ وسباقِ وحنايا وثنايا سورة الفاتحة. نعم، يشعر بذلك لأنه سيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيرقى إلى مقامٍ يجعلُه يخاطبُ الله مباشرةً دون واسطة.

وهكذا نلاحظ أن الفاتحة متكاملةٌ مترابطةٌ فيما بينها باعتبار ترتيبها الداخليّ، فعلاقَتُها بالقرآن مثل علاقةِ أيِّ نجمٍ بالنجوم الأخرى؛ وكالشمسِ تدورُ في فلَكِها لوحدِها؛ ولكنها في الحقيقة مرتبطة مع الأنظمة الأخرى.

ومـن الجديـر بالذكر أن النجمَ كمـا يُطْلَقُ على نجم السَّـماء فكذلك الآيـات القرآنيـة تسـمى "نُجُمًا" أيضًـا، فنجومُ السـماء لها شَـبَهٌ كبيرٌ مـع الآيات والسـورِ القرآنية؛ فكما أنها تبدو قائمةً بنفسِـها ومنقطعةً عن غيرها وفـي الوقت نفسِـهِ مرتبطةً ومتعلِّقَةً بغيرِها، فكذلـك آياتُ القرآن المعجزِ البيانِ؛ تبدو وكأنَّ كلَّ واحدةٍ منها مستقلَّة بذاتِها إلا أنها مترابطة فيما بينها في انتظامٍ كاملٍ وتناسُقٍ تام.

## آيةُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين﴾

إن الفاتحة تبدأ بكلمة "الحمد"، وقد استُعمل الحمد باعتبار معناه اللغويّ مرادفًا لِكَلِمَتَي: "الشكر" و"المدح"، ولكنْ هناك فروق كثيرة بينه وبينهما، ولذلك لم تبدأ سورةُ الفاتحة بـ"الشكرُ لله" أو "المدحُ لله".

### أ. مقارنة بين كلمات "الحمد" و"الشكر" و"المدح"

**الحمد:**

إن مفهومَ الحمدِ يعني: مقابلةَ المحمود تعالى بالشُّكْرِ على ما أسدى من النِّعَمِ باختياره ومشيئَتِهِ، والاعترافَ بأنه منبعُ جميعِ الخيرات التي تستحقّ الحمد، وليس بالمهم في الحمد أن تكون هذه النعم قد وصلت -بالفعل- إلى الحامد أوْ لَا... بل المهم أن يكون المحمود مستحِقًّا للحمد، فإن إظهارنا لمشاعر الثناء والتبجيل لعظمة الله تعالى وألطافه نوعٌ من أنواع الحمد.

**الشكر:**

وأما الشكر فهو عبارةٌ عن الثناء بالجميل لمن نشكُرُه مقابل ما أسدى إلينا من نِعَمِهِ، فهذا الثناء يكون مقابل النعمة، وكما يمكن أن يؤَدَّى الشكرُ باللسان يؤَدَّى كذلك بالجوارِحِ وبالقلب أيضًا، فقولُ الإنسان: "الشكرُ لله" شكرٌ قوليٌّ لله تعالى، والصلاةُ شكرٌ بالجوارِحِ، وإحساسُ القلب فيها

بالامتنان تجاه نِعَمِ الله، أو دخولُهُ في حالةٍ من السرورِ والوجدِ والاستغراقِ مقابل هذه النِّعَمِ التي تُذَكِّرُه بأن الله تعالى قد رَحِمَهُ؛ كلُّ ذلك من أنواع الشكر.

**المدح:**

وأما المدح فهو يُستَعْمَلُ في العقلاءِ وغيرِهم، فيجوزُ مدحُ الله تعالى، فإذا قال العبد: "اللهم إنك جميلٌ، وكل أنواع الجمال التي تتموَّجُ في الكون ما هي إلا انعكاسٌ لجَلوةٍ من تجلِّياتِ جمالِكَ"، فهذا نوع من المدح، وبالإضافة إلى هذا يمكنُ مدحُ شجرةٍ أو طعامٍ أو نحوها من غير العقلاء، ولكن قد يكون المدح أحيانًا في سبيل التزلُّفِ إلى الآخرين من غيرِ ضرورةٍ تدعو إليه، ولذلك فإننا نعبر عن ثنائنا لله تعالى وعن مشاعر الامتنان تجاه نعمه بـ"الحمد" و"الشكر" لا "المدح"؛ يقول الرسول ﷺ في ذم المدح: "**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**"(٣٦)، فيمنع من ذلك، وبالمقابل يقول: "**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ**"(٣٧)، وهناك نقاطٌ مشتركةٌ تَداخَل فيها الحمد والشكر ونقاطٌ افترقا فيها وتمايزا بها.

الشكرُ علامةُ الصادقين، وقَلَّ مَن يوفَّق لذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سورة سَبَإٍ: ١٣/٣٤)، ونِعمُ الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ويقول الشيخ "سعدي الشيرازي"، في بداية كتابه "كُلِسْتان": إن الإنسانَ في كلِّ نَفَسٍ يجب عليه أن يشكرَ اللهَ مرَّتين، فعندما يستنشق النَّفَس شهيقًا وعندما يُطلِقُه زفيرًا، فإن الذي يمدُّهُ بالحياة مرَّتين هو الله تعالى، فَمِنَ الواجبِ عليك أن تشكرَ الله على هذه النِّعَمِ بلسانِكَ وحالِكَ وقلبِكَ، ولذلك نقول: إن الشكرَ أمرٌ عظيمٌ، وهو مقام الصدقِ والوفاءِ، فالمحافظةُ

(٣٦) صحيح مسلم، الزهد، ٦٩؛ سنن أبي داود، الأدب، ١٠، مسند الإمام أحمد، ٤٩٦/٩.

(٣٧) سنن الترمذي، البر، ٣٥؛ مسند الإمام أحمد، ٤٧٢/١٢.

على شكرِ الله تعالى والاعترافُ بِنِعَمِهِ في كلِّ الأزمنة والأحوال هو أسطعُ برهانٍ وأنصعُ بيان على الصدق والوفاء.

أما الحمد فيقول فيه الرسول ﷺ: "**الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ**"(٣٨).

والحمدُ أعلى من الشكر من بعض النواحي؛ حيث إن الحمدَ هو إدراكُنا لعبوديَّتِنا وعجزِنا، والتعبيرُ عن امتنانِنَا وشكرِنَا تجاهَ الله تعالى من صميمِ قلوبنا، سواء وَصَلَتْنا منه النِّعمُ أوْ لا، فالحمد بِمِيزَتِهِ هذه يؤدَّى في مقامِ الإخلاص المحضِ، فإدراكُ العبدِ عبوديَّتَهُ وقولُه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ" -بغضِّ النظرِ عن كمِّ النِّعَمِ الذي يُحيطُ به- يُعتَبَرُ من دأبِ المخلصين.

وإلى هنا حاولنا أن نشرح معنى كلٍّ من الحمد والشكر والمدح، والآن لنَعرض -ولو باختصار- مقامَ الحمد.

**ب. مقامُ الحمد**

إن الحمد هو مقام إدراكِ المنعَم عليه لعمليَّةِ الإنعام، وهذا المقامُ أعلى من مقام الاستفادة من النعمة بالفِعْلِ، لأن إدراكَ الإنعام يكون طريقًا إلى إدراكِ المنعِم، والمقام الذي وعد الله رسولَه ﷺ به سمّاه ﷻ "مقامًا محمودًا"، وفي هذا المقام تجتمِعُ "الحامدية" و"المحمودية"، ولنوضح هذه المسألة الدقيقة على النحو التالي:

إن هديةً تأتيكَ من السلطانِ تُذَكِّرُكَ بأمرين:

**أحدهما**: القيمة الذاتية لهذه الهدية؛ فاللذة التي يحسّ بها الإنسان منحصرةٌ في ذات الهدية...

**والأمر الثاني**: هو كون هذه الهدية "هدية سلطانيّة"، ومن هذا الجانب فلا يُنظر إلى القيمة الذاتية، بل المهمُّ في هذا المقام هو كون هذه الهدية "مِن قِبَل السلطان"...

(٣٨) عبد الرزاق: **المصنف**، ١٠/٤٢٤؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٦/٢٣٠.

فما يبعثه هذا الجانب الثاني من اللذَّةِ والمسرَّةِ يفوقُ -بِأَلْفِ مرَّةٍ- ما يبعثُه الجانبُ الأوَّلُ، فإن في هذا الجانبِ الثاني انتقالًا من الهديَّة إلى السلطان الذي أرسلَها، والمهمُّ هو هذا الجانب.

وهكذا الأمرُ بالنسبة لإنعامِ الله وإحسانه من دون فرق، وشتان ما بين الاستفادة من النِّعم وبين الانتقال منها إلى المنعِم، والشعورِ باللذة الروحانية والسكينة منها.

### ج. الحمد ومفخرةُ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ

إن الإنسان "حامدٌ" وفي الوقت نفسه "محمود"؛ فهو "حامد" من حيث أداؤه الحمد للحق ﷻ، و"محمود" من حيث إنه يُحمَد ويثنى عليه في السماوات والأرض، وهذه الكلمات: "أحمد" و"محمد" و"محمود" التي هي أسماءٌ لخلاصةِ الكائنات ومفخرةِ البشريَّةِ، هي أيضًا مشتقَّةٌ من "الحمد" ودائرةٌ في فَلَكِهِ.

واسمه: "أحمد" هو أول كلمة افتتحَ فيها ألِفُ كلمةِ "الله" الرمزيَّةَ إنما هي "أحمد"، ثم جاء اسم "محمد" قافيةً لشعر الكون، والكون بدأ بالحقيقةِ الأحمدية ووصل إلى الحقيقةِ المحمّدية، فهو هناك "أحمد" وهنا "محمد"، وهكذا اكتمل شِعر الإنسانية ونظمُه وقصيدتُه.

إن الرسولَ ﷺ كلما قام في حياته بالعبودية حُمِدَ، والحامد هو الله ﷻ، وكلَّما حُمِدَ زاد هو من عبوديَّتِهِ وحَمدِهِ، فجَمع بين الحامدية والمحمودية، فصاحبُ "المقام المحمود" مَظهرٌ لألطافٍ إلهيّة كثيرة، والشكرُ والحمدُ يستجلبانِ الشكرَ والحمدَ، إذ حظوةُ الإنسان بالحمدِ والشكرِ لله نعمةٌ من نِعَم الله عظيمةٌ تستوجبُ الحمدَ والشكرَ، وحظوتُه ﷺ بـ"المقام المحمود" تستوجبُ شكرًا عظيمًا، وهذا الشكرُ يستوجبُ شكرًا كذلك وهكذا دواليك، فالله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة

إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤) وهذا يعني أنه ﷻ سيوسّع دائرةَ "المقام المحمود"، ونحن بدَورِنا نقولُ عقبَ الأذان: "**وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**"(٣٩)، داعين له بالمقام المحمود، وسائلين المولى ﷻ أن يوسع له تلك الدائرة على أكملِ أشكالها.

فإن صاحب المقام المحمود بيده "لواء الحمد"، والبشرية دخلت عالم الوجود بـ"أحمد"، ووَجدت نورها بـ"محمد"، وستحرِز الأمنَ والخلاصَ من العذاب بالدخول تحت لواء "الحمد"، وبفضل ذلك ستَدخُل الجنةَ ويكون آخر دعواها: أنْ ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة يُونُس: ١٠/١٠).

والحمد بدايةُ الكون وروحُه، والحمد يدور حول ذلك المحورِ النورانيّ الذي يتركَّز فيه نظرُ الحق ﷻ، وهذا المحورُ وهذا المركزُ هو سيِّدُنا محمد ﷺ، والحمد لا يفتأُ يُعبّر عنه تعبيرًا وينسجُه نسجًا، ونحن بدورنا نرجو من الحق تعالى أن يجمعنا تحت لواء الحمد، يقول رسول الله ﷺ حينما ذكر ونقل إلينا صِفَتَهُ ونعتَهُ في الكتب السالفة: "**أُمَّتُهُ الْحَمَّادُونَ**"(٤٠)، وفي حديث آخر: "**خَيْرُ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ**"(٤١)، والحمَّاد هو الذي يَحمد الله تعالى دونما انقطاعٍ أو فتور، فعلينا أن نحمده تعالى مع فاتِحةِ كلِّ أمرٍ وخاتِمَتِهِ.

### د. كلمةٌ تملأ الميزان: الحمد لله

وفي الحديث الذي يرويه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: قال عمرُ لعليٍّ ﷺ: قد علِمْنا سبحان الله، ولا إلَه إلا الله، فما الحمدُ؟ فقال عليٌّ: "كلمةٌ رَضِيَها اللهُ لنفسه"(٤٢)، فهذا الجواب يُعَبّرُ عن سِرٍّ دقيقٍ مهمٍّ.

(٣٩) صحيح البخاري، الأذان، ٨؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٤٣؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٣٨؛ البيهقي: السنن الصغرى، ١٢٢/١.

(٤٠) مسند الدارمي، ١٥٨/١؛ الطبراني: المعجم الكبير، ٨٩/١٠.

(٤١) مسند الإمام أحمد، ١٢٥/٣٣.

(٤٢) ابن أبي حاتم: التفسير، ٢٧/١، ١٢٥٨/٤، ١٤٧٩/٥، ١٩٣١/٦.

وروى ابن ماجه في سننه عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ حدثهم: "**أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ، فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللهُ ﷻ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ-: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَقَالَ اللهُ ﷻ لَهُمَا: "اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا"**[٤٣].

وفي حديث آخر: يقول ﷺ: "**الْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**"[٤٤]، والمعنى أن العبد إذا حمد الله بقلب خاشعٍ، ومَثُلَ أمام الحقّ ﷻ ولهجَ لسانُه في هذا الاتجاه، وهاجَ قلبُهُ وارتعَدَ من جلالِ الوقوف أمام حضرةِ الحقّ تعالى، فإن ذلك يكفي لأن يملأ الميزان، مهما كان ما في الكفَّةِ الأخرى ثقيلًا.

### هـ. كلمة "رَبّ"

إن كلمة الربّ مصدر بمعنى "التربية"، وهي استخدمت هنا بمعنى اسم الفاعل، أي "المربّي"، وهناك حكمةٌ ونكتةٌ في التعبير بالمصدرِ عن اسمِ الفاعل؛ أي بـ"ربِّ العالمين" بدلًا من: "مربّي العالمين"، ومعلومٌ أنَّ التعبيرَ بالمصدَرِ يُفيدُ حصرَ الفِعلِ بالفاعِلِ، فكأنه يقال: إن المربّي هو عين التربية، وهو المربي حصرًا، ولا تصدُر التربية من غيره تعالى؛ ومثلُه في اسم الله تعالى "العَدْل"، أي هو مصدرٌ سمَّى اللهُ به نفسَه.

إن الله هو الذي يفعل جميع ما يلزم لتربية الكمّ الهائلِ من الأنواعِ الموجودةِ على طبقات الكون وصحائفها، إننا إذا أخذنا بالاعتبار تربيةَ البشرِ فقط، فإن الذي خلقَهم وسوّاهم ثم دلّهم على الجنة هو الله، والذي

(٤٣) سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٥.

(٤٤) صحيح مسلم، الطهارة، ١؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٨٥؛ سنن النسائي، الزكاة، ١.

عرَّفهم بجهنَّم وحذَّرهم منها، والذي أرسل الرسولَ ﷺ وحثَّ على اتّباعه، والذي دلَّ الإنسانَ على حقائق القرآن وفتحَ عينَه وقلبه، والذي تحدَّث في القرآن عن الكون، وشرَحَ الكونَ فَبَسَطَ الحقائق أمام الإنسان حتى يُعاينَها ناصعةً جليَّةً هو الله، والذي يتصرَّفُ في هذه الدوائر الكونيّة الواسعة هو الله.

إن الله هو الذي يربّي كل الكائنات؛ يربّيها مباشرة كُلًّا في حدود دائرةِ فطرتِهِ، فلن ترى أيَّ موجودٍ خارجًا عن حدود هذه التربية، والصاحبُ الوحيد لهذه التربية الكونيّة الشاملةِ هو الله ربُّ العالمين.

والذي يربّي الإنسان أيضًا هو الله... إن الحق ﷻ ربّاه بأنْ شَرَحَ له طرق الهداية والضلالة، وجعلَ الأنبياء أئمَّةً الحياة الدنيويَّة والأخروية وروَّادَها، فكما هو يربّي النبيَّ يربّي البدويَّ، لكنْ كلٌّ على حسب قابليَّاتِهِ واستعداداتِهِ.

ولن تَصِلَ البشريَّةُ إلى الكمال الحقيقي إلا بتربيتِهِ ﷻ، والطريقُ الأرشدُ لهذا هو الاسترشاد بِهَدْيِ القرآنِ، والتربيةُ هي أن يتَّخِذَ كلُّ موجودٍ طريقَهُ نحو الكمالِ في نطاقِ حدودِهِ، والذي يوصله إلى الكمال هو الله "ربُّ العالمين".

إن الفلسفة الموصِدَةَ أبوابها أمام الوحي تُصوِّر الموجوداتِ وكأن بينها عداءً وصراعًا، في حين يذكر القرآنُ في مناسباتٍ عدّة أن السائد في الحياة هو "التعاون"، ويُعلِّمُنا أن ننظُرَ إلى الحياة من هذا المنظورِ.

نعم، إن النواميس والقوانين السارية في الكون لَتَدُلُّ على ما فيه من "تعاون"؛ فالعناصر الجامدة تُمِدُّ النباتات، والنباتاتُ تمد الحيوانات، والحيوانات تمد بني الإنسان، وهذا في الوقت نفسه يُعتبر ترقيةً لكلِّ نوعٍ على حِدَتِهِ نحو الكمال، وإذا كان التراب يربي في أحضانه النبات وكأنه أمٌّ شفوق حنونٌ عليه؛ فكيف يمكن أن يسمَّى هذا التكاملُ صراعًا وجِدالًا!؟

لكـن الفلسـفة تنظر إلى القضيـة بمنظارٍ معكوس، فإنها تَـرى هذا التعاون والإمـداد كأنه قهرٌ وغصبٌ للطرف الآخر، وهذه مقاربةٌ مرفوضةٌ لا تمتُّ إلى الصحّة أو الواقعيّة بِصِلة.

إن الله تعالـى يسـيّر الكـون والأحـداث في نظـامٍ وانتظـامٍ عن طريق النواميس، ويسـوق كلَّ شـيءٍ نحو الكمال، والحكمةُ الفريدةُ التي تترتَّبُ علـى ذلـك هي تمييزُ الخبيـثِ من الطيّـب، والخيرِ من الشـر، والنورِ من الظلمة، والألماسِ من الفحم، وبهذا يصير المؤمن أهلًا للجنة، والكافرُ أو العاصي أهلًا للنار، والله ﷻ كما يميز في هذه الدار بين الصِّنفين، سـيميز بينهمـا في الدار الآخـرة أيضًا وسـيقول: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَـا الْمُجْرِمُونَ**﴾ (سـورة يس: ٥٩/٣٦)، وكلّ هذا يدل على أن الأمرَ الوحيد السـاري في الكون هو "تربية" الحق ﷻ، والله تعالى يربي الأشـياء ويُسـيّر الأحداث باسْـمِهِ: "الرب"، وإن من يسـتطيـع أن يشـاهِد حال الإنسـان، وكيف أنه يُساقُ إلى الكمالِ، فإنه سيَقبل هذه الحقيقة ولن يَشعر بالحاجة إلى البحث عن دليلٍ آخر.

إن الأحـداث بِيَـدِ الله ﷻ، وكمـا أن المحـرِّك الأول دائمًـا هـو الله، فكذلـك الـذي يُديم تلك الحركة ويمنحُها اسـتمراريّةً كفيلةً بإيصالِها إلى غايةٍ وهدفٍ معيَّنٍ هو الله أيضًا، فالأشـياء بهذا التحريك الأول تُسـاقُ نحو الكمـال، فلـو تناولنا طفلًا -على سـبيل المثال- فالذي جـاء به إلى عالم الوجود ليس هو الحيوان المنويّ ولا البويضة أبدًا؛ فإن الذي خلقَ الأبوين أوَّلًا ثـم طـوَّرَ ذلـك الولد فـي ظلماتٍ ثلاثٍ فـي رَحِـمِ الأمّ، إنما هو الله لا أحد سـواه، فلا بدَّ من وجودِ تناسـبٍ بين السـبب والنتيجة، وليس من الصحيح قطعًا التغاضي عن هذا...

ويمكن أن نوضّح هذا بمثال:

هبْ أنك شاهدتَ صرحًا شامخًا، ورأيتَ بجانِبِهِ ولدًا مكبَّلَ اليدين والرجليـن، فادَّعـى ذلـك الولدُ بأنه هـو الذي بنى هذا الصـرح، فإنك لن تصدِّقـه؛ لأنـه لا بدَّ مـن وجود تَناسُـبٍ بيـن الفاعل والأثـر، وعلى غِرار هـذا؛ فههنا الكـونُ أمامنا كأنه صرحٌ كاملٌ بكلِّ معنى الكلمة، وهنا وهناك "أسـبابٌ" كأنهـا ذلـك الولد المكبل، فكما أنه ليس من المعقول أن نُسـنِدَ بناءَ الصرحِ إلى الولَدِ المكبَّلِ فكذلك إسنادُ خَلْق الكون إلى هذه الأسباب العاجزة عن ذلك مُحالٌ عقلًا، فالذي خَلَقَ هذا الكون وربّاه، فسـاقه نحو الكمال ليس إلا الله رب العالمين، والحقيقة أننا لا نفهم كيف يصرّ المنكِرُ على إنكارِهِ، في حين أن الكونَ كلَّه من الثرى إلى الثريّا، ومن الأرض إلى السماء مشحونٌ ومزيَّنٌ بالأدلة، وكلّ الأحوال والكيفيّات تدلّ على وجود الله تعالى، فإنكارُهُ الحقَّ تعالى وعدمُ معرِفَتِهِ به رغمَ دلالةِ كلِّ شيءٍ عليه؛ هو تمرُّدٌ رهيبٌ وكُفرٌ مخيفٌ تحارُ له العقول.

فـإذا تناوَلْنـا مفهـومَ "ربِّ العالمين" من هذه الزاوية سـتصير الأشـياء كأنها كتابٌ يُقرَأُ.

ولو أن البشـرية نظرت إلى نفسـها بالمنظورِ القرآنـيّ، وأمعنَت النظرَ في كلام الله بهذا الشكل، ولو مرّة واحدةً؛ لكانت في وضـعٍ مختلفٍ تمامًا عمّا هي عليه الآن، ولكانت تَفهم الكلامَ الإلهيَّ على غير ما تفهمه الآن.

ذلـك هـو الله الـذي خلقَ الإنسـان برحمتـه، فتدارَكَـهُ بالقـرآنِ نتيجةً لِرَحْمَتِـهِ أيضًا، وجَعل هذا الإنسـان الـذي خلقَهُ على صورتِـهِ[٤٥] مخاطَبًا للقـرآن الـذي تتلاطـمُ فيـه أمـواجُ رحمتِـهِ، فلـو أن الإنسـان دقَّـقَ النظرَ في نفسِـهِ وفي الكتاب الذي أُرسـل إليه، من هذه الزاوية وبهذا المستوى؛

(٤٥) انظر: صحيح البخاري، الاستئذان، ١؛ صحيح مسلم، الجنة، ٢٨.

لـكان يحـسّ على كاهِلِـهِ بِثِقَلِ التكليف الذي عبَّرَ عنه الرسـول ﷺ بقوله: "**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**"(٤٦)؛ ولكان يبحث أيضًا عن مكان يهربُ إليه ويختبِئُ فيه جرَّاء ما يُحسّ به من الخشـية والخجل. نعـم، إن نظـرةَ الإنسـان إلـى ذاتِهِ من سـماء الصفـات الإلهيّـة، ومن برجِ الأسـماء الإلهية، من شـأنها أن تجعل الإنسـانَ هكذا، وإنما يتسنَّى له هذا إذا خـاضَ بحـارَ القرآن مثل الغَوّاص، أو حلَّق بيـن نجوم القرآن ورفرفَ بجناحيه.

فالإنسـان من الرعيل الأول من هذه الأمة نظرَ إلى نفسـه بهذه النظرة، فاكتَشف ذاتَه، فجعله الله حاكمًا على الجميـع، مصداقًا لقوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٣٠)، فكلما توجهت إليه ﷻ القلوبُ والعقول والمشاعر توجُّهًا كلِّيًا تجلَّى هو أيضًا بحقيقةِ ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْـرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ (سـورة الأَنْبِيَـاء: ٢١/١٠٥). أجل، إنه تعالى ورَّث كلَّ ما ورَّثه لعباده الصالحين، فلذلك كانت الكلمةُ المسموعة في ذلك العصر للمسلمين وحدهم.

إن الله تعالى أجرى مقابلةً بينه وبين الإنسان والكون؛ حيث إنه اتخذه مخاطَبًـا، ووَضَـعَ دائـرة "العبوديـة" فـي مقابلِ دائـرة "الربوبيـة"، وعامَلَهُ برحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، وعلَّمَنا وبلَّغنا ذلك في البسـملة، فنحن بدورنا نُقابِل رحمانيَّتَـهُ ورحيميَّتَهُ اللانهائيّتين بـ"الْحَمْدُ لِلّٰهِ"، ونقوم له بالشـكر والامتنان على كل ما أسداه لنا.

### و. ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ﴾ وأركانُ الإيمان

إن الجملة المقدسـة: "الْحَمْدُ لِلّٰهِ"، تحتوي على كلِّ الأركان والأسسِ الإيمانيّة التي يُطلبُ منا الإيمان بها، وسأوضح ذلك فيما يلي:

(٤٦) صحيح البخاري، الجمعة، ١٠٧؛ صحيح مسلم، الفضائل، ١٣٤.

**١- ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ﴾ والإيمانُ بالله**

إن الحمد يعني وقوفَ الإنسان تجاه آثار الحقّ ﷻ موقفَ الإعجاب والاستحسان، وأن يخرّ ساجدًا أمام كمالها بالحيرة والانبهار، ويَفيض محبّةً واشتياقًا تجاه جماله، ويتذلَّلَ خاضعًا مقابل إحسانه، وسبق لنا أنْ تَطرَّقنا لهذا الموضوع أثناء شرحنا الجوانب اللغوية للفظ الجلالة "الله"، ولكن قد يكون من المفيد أن نُذكِّر به مرة أخرى:

إن كلمة "الله" تنطوي على معانٍ مثل: "المعبود" و"الذي ينقاد له كلّ شيء"، و"الذي يُلجأ إليه" و"الذي يُعتَمَدُ عليه"، و"الذي يقفُ الآخرون أمام عظمتِهِ بالإعجاب والانبهار"، و"الذي يوثَقُ به ويُطمَأَنُّ إليه"، وهذا يعني أنه إذا قيل: "الحمد لله" يكون المقصودُ: نفيَ المعبوديَّةِ عن كلِّ ما سوى الله، وأنّه هو المقصودُ الأوحد، والملجأُ المُفْرَدُ لا سيما في أوقات الحيرة والاندهاش، وأنه هو من تُرفَعُ إليه أكفُّ الضراعة عند الحاجة.

وكذلك إذا قال القائل: "الحمد لله"، فإنه يستحضر في ذهنه: التصرُّفَ اللانهائيّ لحضرة الحقّ تعالى، ويستشعرُ الحيرة والانبهار أمام جماله في كماله، وبالتالي يخرّ ساجدًا، وينتشي مندهِشًا تجاهَ جمالِهِ، ويرى نفسَه عبدًا مغلولَ العُنُقِ مكبَّلَ الرجلين ببابه تعالى، والذي يُفَسِّرُ هذا المعنى الكبير الذي ينبثِقُ من الحمد ومن لفظِ الجلالةِ، هو "لا إلهَ إلا الله"، وكل الحقائق الكونية مندمجة في "لا إلهَ إلا الله"، وبهذه الجملة المقدَّسة يتميّز المؤمن عن الكافر، والمسلم عن الملحد، والمستسلم تمامًا لله عن الزنديق، والمخلصُ عن المنافق، فكأنَّ "لا إلهَ إلا الله" علامةٌ بها يُفرَّقُ بين أيِّ زمرةٍ وأخرى...

ولكنّ هناك أمرًا وهو أننا لن نستطيع -بذكرها بألسنتنا فقط- الرقيَّ والوصولَ إلى هذه الحظوة وهذا الأفقِ الذي ينبغي لنا إدراكه، فالحقيقة

هي أن هذه الكلمةَ إذا تجلَّتْ في القلب "إذعانًا"، وفي النفس"تقبُّلًا"، وسيطرَتْ على مشاعر الإنسان، فحينذاك يُسمَّى "إيمانًا"، وإلا فكما أن الإنسانَ الذي يشعرُ بالبردِ لن يدفأَ بذكرِ مجرَّدِ النار وترددِ اسمِها، والمسمومُ لن يتعافى من تأثير السمّ بمجرَّدِ أن يقول: "لن يضرّني السمّ"، فكذلك الأقوال بمجرَّدِ ترددِها باللسان؛ لن تصلَ إلى مستوى الإيمان والإذعان، فالإنسان إذا قال: "لا إلهَ إلا الله" لا بدَّ أن يكون إيمانُه بأنه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، -على الأقلّ- في مستوى إيمانِ من يعتقد أن السمّ يقتل وأن النار تُحرِق، حتى يُعتَبرَ اعتقاده إيمانًا.

أجل، إن الإنسان عليه أن يحصر نظرَه إلى الله وحدَه وأن يُقدِّم عبوديَّته له وحده، فحينذاك تجتمع كلمةُ "لا إلهَ إلا الله" التي تجري على لسانه بالّتي في قلبِهِ، ويصيرُ مؤمنًا حقًّا، وأما الإيمان دون هذا الشكل ليسَ إيمانًا حقًّا، لا وألفُ لا، إنه إذا لم يتحقّق الإيمان بالله يقينًا تامًّا لا شكَّ ولا ريبَ فيه كما الإيمانُ بأن النارَ تُحرِقُ وأن السّمّ يقتُلُ؛ فلن يسمَّى إيمانًا حقًّا.

وعلينا أن نذكرَ نقطةً مهمّةً وهي: أن إحراقَ النار، وقتلَ السّمّ ليس من خاصيتهما الذاتيّة، فحرقُ النار وقتلُ السُّمِّ من النواميس الكونيّة، والذي وَضَعَ هذه النواميس هو الله ﷻ، ولذلك فنِسبةُ الإحراقِ في النارِ إلى ذات النار، أو نسبةُ التسميم إلى ذات السمّ؛ تُخالِفُ عقيدَتَنا وطريقَ أهلِ السنّة والجماعة، فالنار إنما تُحْرِقُ بمشيئةِ الله، حيث إنها لم تُحْرِقْ سيّدَنا إبراهيم عليه السلام، وكذلك السمُّ إنما يقتلُ بمشيئةِ الله، إذ إنّ اللحمَ الذي جَعلت اليهوديةُ فيه السمَّ في خيبر قَتل بِشْرًا رضي الله عنه ولم يقتل الرسول ﷺ.

وهذه الأحداثُ تدلُّ على أن الذي يخلق الأفعال وآثارَها هو الله لا غير، وكلُّ مَن يؤمن بالله يجب عليه أن يؤمنَ بهذا الأمر على هذه

الشاكلة، وإن الإنسان المربوط -مادِّيًّا- بالدنيا؛ لن يرقى في مراقي السماء إلا بمثل هذا الإيمان.

ثمّة قوّة خفيّة تدفعُ الإنسان نحو "المَعبَدِ"، حتى إنه في الأوقات التي لا يتمكّن فيها من العبادة يجد نفسَهُ أمام "وخزِ ضميرٍ" لا يُمكن تصوره، فكأنَّ هناك قوَّةً تدفعه أو تجذبه نحو الآفاق السامية، فهو يبحث في هذه الآفاق عن السكينة والاطمئنان، وبفضل الإيمان يسلِّم الإنسانُ إرادته وعقلَه لهذه القوة الدافعة أو الجاذبة، وسيوصله هذا "التسليم" إلى الجنَّةِ والجمالِ الإلهيّ السرمديّ، فهو بفضل ذلك إنسانٌ مطمئنٌّ، قد ارتقى الإيمانُ في قلبه إلى مستوى اليقين، وكما أن عالَمَهُ القلبيَّ يكون منفتحًا على الجنةِ ومِرآةً صافيةً تعكسُ "جمالَ الله"؛ كذلك يكون بيتُه والمجتمعُ الذي تَكوَّن ويتكوَّن من أمثالِهِ ناشرًا لأريجِ العالَم الماروائيّ وشذاهُ عَبَقًا عَبَقًا.

إن مشاعرَ العبوديَّةِ مغروزةٌ في فطرةِ البَشَرِ، واللهُ ﷻ خلقَ الإنسانَ في فطرةٍ وقِوامٍ يؤهِّلانِهِ للعبوديّة، ولكن الإنسانَ في كثيرٍ من الأحوالِ أساءَ استخدامَ ذلك واستعْمَلَهُ في غيرِ موضِعِهِ، فتوجَّه نحو مخلوقات لله عاجزةٍ ضعيفة لا تليق بمقامِ المعبوديّة أبدًا، من أمثال الحجر والشجر والنجوم والشمس والقمر، ونصَبَها في محراب المعبودية، فانحط من مقام العبودية لله الذي هو في أعلى علِّيين إلى دركاتِ الشِّرْكِ التي هي أسفل سافلين، وهذه النتيجة تُذكِّرنا بالحقيقة التي ذكرناها آنفًا، من أن العبوديَّةَ عاطفةٌ مغروزةٌ في طبيعةِ الإنسانِ وفطرتِهِ، فاختلاقُ الناس معبوداتٍ عديدةً وانحناؤهم لها إذا لم يجدوا المعبودَ الحقَّ؛ إنما هو انحرافٌ من هذه الحالة الطبيعيَّةِ ليسَ إلا.

والحـالُ أن سـيِّدَنا إبراهيم عليه السلام الذي هو رائـدُ الحنيفيّة التي هي دينُ الفِطْرَةِ، داسَ -كما قصَّه علينا القرآن- على كلّ الأسبابِ والوسائلِ، ودلَّنَا علـى أسـاليب الرقيِّ إلى الله تعالى، فهو عليه السلام قـد أعلن على الملإِ أن هذه الكواكب المتلألِئَة والتي تُبهر عين الإنسان؛ لن تَصلح للألوهية، واستَدَلَّ على ذلك بأفولِها، كما استدلَّ على ذلك أيضًا بِأُفُولِ الشمس والقمر، وهو إذ كان يُبَيِّنُ أن الأشياء التي تأفل لن تكون آلهةً؛ كان يستخدمُ أسلوبًا ولغةً يفهمُها كلُّ إنسان على مختلف مستويات الإدراك(٤٧).

فالبشـرية كلَّما وَعَت هذا الأمرَ تمسَّـكَتْ بالعروة النورانيّة التي ينطوي عليها معنى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ (سورة الأَنْعَام: ٧٩/٦)، فإنها سترتقي في الممرات النورانيّة، وترتفـع إلى مقام العبودية التي هي الكمال والذروة، ولن تدرك معنى "الإنسانية" إلا بهذا الارتقاء.

ولن تَصِلَ البشـرية إلى هذا المسـتوى إلا بفضل الأنبياء ووسـاطَتِهم، ففـي طريقهم النوراني ينكشِـفُ الغِطـاء عن بصيرةِ الإنسـان، ويصير كأنّه يلاقي الله ويراه، وإنما يمكن إدراك هذا السـر بالعبوديّة، وهو سـرٌّ يُتذوَّقُ فقـط؛ لا تكتبه الكتبُ، ولا تحتوي معناه الكلماتُ والسـطورُ، ويعجزُ مَن تذوَّقَهُ عن التعبيرِ عنه، وهو شـعورٌ لن يَصِلَ إلى مسـتوى الإحساسِ به إلا القليلُ من الناس حتى أثناء تلاوة القرآن، فصاحبُ هذه الحال يشعرُ وكأنَّ الوسائط والوسائل قد انمحَتْ دونها، وتفضَّلَ سلطانُ القلوب بالنزول إلى قصـره، والإنسـانُ في مثل هذه الحال يعيـش حالةً من الغيبوبة، بل هو في وضعه هذا يكون ناسيًا حتى لنفسه، في غايةِ الدهشة والحيرة.

والـذي يعتريـه مثل هذه الحال ماذا عسـاه أن يقـول؟ وكيف يعبر عن حالته؟ فبعضهم قال: "لَا مَوْجُودَ إِلَّا هُو"، والبعض الآخر قال: "لَا مَشْهُودَ

(٤٧) انظر: سورة الأنعام: ٧٦/٦-٧٩.

إِلَّا هُوَ"، ومنهم من قال: إني لا أشاهد في الكون شيئًا سوى تجلّيه ﷻ، وكلٌّ مِن هؤلاء حاول أن يُعبّر عن هذه الحال بأسلوب يخصُّه، ولكن مهما حاول المحاولون وأيًّا ما قاله القائلون، فكلُّ ما يقالُ في هذا المجالِ ليس إلا ترويحًا عن النفس مقابلَ ما يُشاهَد ويعاشُ، وإلا فالتعبير عن أصل هذه القضية بالألفاظ والكلمات من باب المستحيلات.

إن الإنسان لا يصِل إلى السكينة والطمأنينة إلا بالتوحيد والإيمان بالله، وقولُنا: الحمد لله، يحتوي على معنى أننا نشكر الله تعالى الذي لَطَفَ بنا فعرَّفَنا بذاته، وبذلك أوصَلَنا إلى التوحيد.

و"الوحدانيةُ" من لوازمِ الألوهيّة لا تنفصلُ عنها؛ فمن المحال التفكُّرُ في الله من دون التفكر في "وحدانيّته"، فنحن نعبّر عن هذا ونقول: الحمد لله، وهكذا نُخصِّصُ الحمدَ بالله تعالى لأنه هو المتفرِّدُ بالألوهية، وبيده الخير والشر، وتُسجَّل لديه الحسنات والسيئات فيثيبُ على الطاعات ويجازي على المعاصي.

ولا مجال في الكون للشِّرْكِ ولو مثقال ذرَّةٍ؛ إنّ "برهانَ التمانُعِ"[٤٨] يدحضُ دعوى الشِّرْكَ ويرفضها رفضًا قاطعًا، فلا يمكن أن يكون في قريةٍ واحدةٍ مختاران، ولا في قضاءٍ مديران ولا في محافظةٍ واليان، وإلا حَصَلت الفوضى، فهذا الوضع يُبَيِّنُ أن الحاكميّةَ لا تقبلُ الشركة، فلا يمكن أن يكون لهذا الخالِقِ العظيمِ الذي جعلَنَا نحسُّ به من خلال هذا النظام والانتظام السائدِ في الكون ندٌّ أو شريكٌ، إن الله هو الذي يستوي

(٤٨) **برهان التمانع**: دليل من الأدلة التي يسردها علماء العقيدة والتوحيد لإثباتِ وحدانيّة الله، يقول القاضي أبو بكر الباقلّاني في كتاب التمهيد (ص ٤٥) وهو يشرح هذا الدليل: "لَيْسَ يجوز أَن يكون صانع الْعَالم اثْنَيْنِ وَلَا أَكثر من ذَلِك وَالدَّلِيل على ذَلِك أَن الِاثْنَيْنِ يَصح أَن يختلفا وَيُوجد أَحدهمَا ضدّ مُرَاد الآخر فَلَو اخْتلفَا وَأَرَادَ أَحدهمَا إِحْيَاء جسم وَأَرَادَ الآخر إماتته لوَجَبَ أَن يلحقهما الْعَجز أَو وَاحِدًا مِنْهُمَا لِأَنَّهُ محَال أَن يتمّ مَا يُرِيدَان جَمِيعًا لتضادّ مرادِيهما فَوَجَبَ ألّا يتما أَو يتم مُرَاد أَحدهمَا فَيلْحق من لم يتم مُرَاده الْعَجز أَو لَا يتم مرادهما فيلحقهما الْعَجز وَالْعجز من سمات الْحَدث، وَالْقَدِيمُ الْإِلَهُ لَا يجوز أَن يكون عَاجِزًا". (الناشر)

أمام قدرتِهِ خلقُ ذرَّةٍ واحدةٍ وخلقُ الكون بأسره، وهو الذي خَلَقَ الإنسانَ كما خَلَقَ الكائنات، وكما خلقَ زهرةً خلقَ الربيعَ بأكمَلِهِ، وكما خلق الربيع خلق الجنّةَ بكلِّ مراتبِها وخلق عالَمَ الأبديّة بكلّ طراوته، فتصوُّرُ الشريكِ لله يُفْسِدُ الخيالَ ويؤدِّي إلى الفِسْقِ ويقضي على طمأنينةِ البالِ، وهو مَرَضٌ ذهنيٌّ يُربِكُ الإنسانَ ويزعجُهُ، ويُشَتِّتُ فكرَه ويُفْسِدُ ما في نظامِهِ الفكريّ من التناسُقِ والانسجامِ.

فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢١/٢٢) يُعَبِّرُ عن هذه الحقيقة بشكل واضح، ولذلك فنحن نعزلُ الأسباب، فنتحاشى ما تورَّطَ فيه النصارى، ولا نَدَع مجالًا أبدًا لِأَنْ يدخلَ قلوبَنا محبَّةٌ يُشَمُّ منها رائحةُ الشِّرْكِ، ولو كانت تجاهَ سلطانِ قلوبِنا سيّدنا محمد ﷺ، ونقولُ: "إن الألوهية لله وحده، لا إله إلا هو، وهو المعبود المطلق والمقصود بالاستحقاق، وأما الرسول ﷺ فهو عبدُهُ ورسولُهُ"، وبذلك نحاولُ الحفاظَ على التوازن.

إن الله هو الذي بيده مقاليدُ السماوات والأرض، وهو الذي يُدَبِّرُ الكون كلَّه، وسيدُنا محمد ﷺ هو ذلك السلطان الذي رأى ذلك المعبودَ المطلق، وتلقَّى منه الأوامر، وشاهَدَ بعين اليقين ما نعتقد ونؤمن به بظهر الغيب، وعايَشَه بالفعل، فبرزَ أمامنا باليقين الذي حصلَ له نتيجةَ المشاهدة والمعاينة والمعايشة، فكما أنه آمن بما يدعو إليه من دون تردُّدٍ؛ فكذلك دعانا إلى هذا الإيمان والاعتقاد، فتلك العباراتُ والألفاظُ التي كانت تنطلِقُ وتُقْلِعُ مِن قلبِهِ بقوَّةٍ وَجدَتْ لها صدًى في قلوب كلِّ المؤمنين؛ لاحِظُوا، إنه رغمَ مرورِ أربعة عشر قرنًا من الزمن؛ فإن الأمواجَ التي حصلَتْ جرّاء الجواهر التي ألقاها رسول الله في بحرِ المعرفة؛ قد وصلَتْ إلى ساحل هذا القرن على شكلِ دوائرَ متداخلةٍ.

فالحقيقةُ القدسيّةُ: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، كما أنها تُبيّن أن المعبودَ المطلَقَ هو الله، وأن العبوديّة له فقط، وأنه لا ينبغي الخضوع والخنوع إلا أمامه، فكذلك تَذْكُر لنا أن سيدنا محمدًا ﷺ رسولُه وصاحبُ التشريفات في قصر الكون، فهذا الكلام يُفصِّلُ ما في القلوب من حصّةٍ لله وما فيها من حصَّةٍ لرسول الله ﷺ، ونحن نفهم حقيقةَ "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" بهذا الشكل.

والمؤمن إذا ما اكتسب هذا الإيمانَ، وأسندَ كلَّ شيءٍ إلى القدرة الإلهيّة، أسَّسَ علاقةً بينه وبين كلِّ شيءٍ في الكون، فلن يكون بعد ذلك في روحه وحشةٌ وغثيان وتوحُّشٌ تجاه المخلوقات، بل سيتآخى مع الحَجَرِ والترابِ والطيرِ والشجرِ، وهو ينظر إلى الكون على أنه "مهدٌ للأُخوَّة"، لأن كلَّ شيءٍ جاء من "الواحد"، وراجعٌ في نهاية المطاف إلى "الواحد" أيضًا.

وحينما مرَّ الرسولُ ﷺ ذاتَ يومٍ بجبلِ أُحُدٍ قال: "**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**"(٤٩)، مع أنه قد شُجَّ رأسُه الشريفُ وكُسِرَتْ رباعيتُهُ في أُحُد، وقد فاتَهم نصرٌ محقّقٌ بسبب أن بعضًا من الصحابة الكرام ﷺ لم يكونوا قد أدركوا بَعْدُ مدى الحساسيّة التي تتطلَّبُها "إطاعةُ الأمر"، قال ذلك وكأنه يريد أن يعمِّق المحبَّةَ والصداقة التي أسَّسهما بينه وبين كلِّ الموجودات، فهذا الجوُّ من المحبَّة قد بَعثَ الأمنَ والاطمئنانَ في نفوسِ الصحابة الذين سبقَ منهم الخطأُ، فهذا جانبٌ من القضية، والجانب الذي أريدُ أن ألفتَ الأنظارَ إليه هو العلاقة بين الرسول ﷺ وبين الأشياء؛ فكأن هذا الجبل أصابه نوعٌ من الخجلِ والتوجُّسِ لمَّا استُشهد عليه عددٌ من الصحابة، وكُسِرَت رباعيّة النبيّ الذي هو "الغايةُ من الكون"، فالرسولُ ﷺ بقولِهِ هذا يسلِّي أُحُدًا ويسرّي عنه.

(٤٩) صحيح البخاري، الجهاد، ٧٠، ٧٣؛ صحيح مسلم، الحج، ٤٦٢.

وفي موقف آخر لما ارتجَّ أُحُد، قال الرسول ﷺ: "**اُثْبُتْ أُحُدُ! فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَان**"(٥٠)، فثبت الجبل امتثالًا لأمره صلوات الله عليه. نعم، هذه معجزة من المعجزات الأحمدية على صاحِبِها أفضلُ الصلاة والسلام، وما سردناه آنفًا كان موقفَهُ الدائمَ مما حولَه من الأشياء، و-كما قلنا- إنه كان ينظرُ إلى الكون على أنه "مَهدٌ للأخوَّة"، فحديثُه للشَّجَرِ والحجرِ وكثيرٍ من الموجودات إنّما هو من الحقائقِ الثابتةِ تاريخيًّا، وفي هذا الموقفِ النبويّ درسٌ عظيمٌ جدًّا للمؤمن الذي يستفيد منه ويعتبر به.

وإنما يتأتى الوصول إلى هذه الحقيقة بالتوحيد والإيمانِ بأن كلَّ شيءٍ جاء من "الواحد" وسيرجع إلى "الواحد".

ولذلك يتحدث الرسول ﷺ عن جملةِ "لا إله إلا الله" التي هي ترجمانُ الإيمان، بهذه العبارات المباركة: "**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**"(٥١)، فهذه الجملة هي أفضلُ ما يبعثُ على الحياة، ويا لَهَا من دلالةٍ ووَقْعٍ وإحاطةٍ! فليس هناك مِن خالقٍ سوى الله الذي حارت العقول في إدراكِهِ وانتَشَت النفوس بذكرهِ وعبادته.

### ٢- "الحمدُ لله" والإيمانُ بالملائكة

إننا كما نرى عقيدة التوحيد في هذه الجملة القدسية: "الحمد لله"، فكذلك نرى في الجملة نفسها الإيمانَ بالملائكة، لأن هذه الجملة تشتمل على حمدِ الله تعالى في أسمى أشكالها، والحالُ أن الإنسانَ بجوانِبِهِ الضعيفةِ وذنوبِهِ الكثيرةِ كثيرًا ما يكون عاجزًا عن حمد الله تعالى على وجهٍ يليقُ بعظَمَتِهِ، فهذا يعني أنه لا بدَّ من وجودِ عِبَادٍ لا يعتريهم العصيانُ والنسيانُ ولا يفتؤُون يذكرونَ الله تعالى ويقومون بالعبودية له. نعم،

(٥٠) صحيح البخاري، فضائل الأصحاب، ٥، ٦؛ سنن الترمذي، المناقب، ١٨.

(٥١) موطأ الإمام مالك، القرآن، ٨.

إن لله عبادًا مُكرَمين يسمَّون: "الملائكة"، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، يقول العارف بالله "إبراهيم حقّي" معبِّرًا عن هذه الحقيقة:

*الملائكة عبادٌ مكرمون من عباد الله*

*وعوامُّ الإنسِ على عوامِّهم فضَّل الله*

وإنّ الجملة المقدَّسَة "الحمدُ لله" لتَكتَنِفُ في ثناياها تحفيزًا على التشبُّه بالملائكة من حيث العبوديَّة والطاعة، فالذين يُريدون أداءَ العبوديَّةِ دون عصيانٍ ونسيانٍ عليهم أن يتشبَّهوا بالملائكة، إلا أن هناك لطيفةً وفارقًا مهمًّا؛ وهو أن الإنسان إذا قام بعبوديَّةٍ تُشبِه عبوديةَ الملائكة فسيرتقي إلى مقامٍ أسمى من مقامهم، لأن جوانبَ الضعف في الإنسان تكون وسيلةً إلى ارتقائِهِ وسموِّه إلى مستوى الكمال، في حين أن مقامَ الملائكة ثابتٌ لا يتغيّر، ومن جانب آخر؛ إن الإنسان خُلِقَ خليفةً في الأرض، وأما الملائكة فهم يؤدّون -في طاعةٍ مطلقةٍ- ما كُلِّفوا بأدائِهِ من الوظائف التي جُبِلوا عليها؛ وقد وَصَفَهم الله بأنهم: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (سورة التَّحْرِيم: ٦٦/٦).

فعلى الإنسان أن يكون -على الأقلِّ- مثلهم ويتحرَّكَ حسب الغاية التي خُلِقَ من أجلِها، حتى يكونَ مؤدِّيًا شكر إحرازِ مقامِ خلافةِ الله في الأرض.

كما أن في هذه الجملةِ القدسيَّة حضًّا على التشبُّه -من ناحية الطاعة- بسائر المخلوقات التي تُطيع أوامر الله، تلك المخلوقات التي تَحدَّث عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/١١).

**٣- ﴿الْحَمْدُ لِلّه﴾ والإيمانُ بالكُتب والرُّسل**

إن جملةَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تَحمِلُ في طياتها الإيمانَ بالقرآن الكريم وسائرِ الكتب.

فنحن نحمد الله ونثني عليه على أنه أنزل علينا القرآنَ الكريم؛ فإننا لم نتعلّم العبودية والثناء والشكر لله وتوقيرَ النبي ﷺ إلا بفضل القرآن؛ فلو لم ينزل القرآنُ لما أمكنَنَا التعرُّفُ على الحمد، ولَمَا كنا نعلم كيف نؤدّي حقَّ العبوديـة لله، فالله أنزل القرآنَ، وبذلك عرَفْنا اللهَ وتَعلَّمْنا كيفية العبوديّة له، فنحن نؤدِّي عبوديَّتنا حسب البرنامج الإرشاديّ الذي أتى به هذا الكتاب، ولـولا ذلـك البرنامج لَمَـا كان هناك فرقٌ بين حركاتنـا وبين ما يُفعل أمام طوطمٍ أو صنمٍ أو تمثال، فلا يمكن إذًا أن نتحدَّثَ عن العبودية والمعبود المطلق بمعزلٍ عن الكتاب الذي يحتوي على برنامج العبوديّة.

ولا مجـال لتصوُّرِ العبوديَّةِ والمعبـودِ المطلَقِ من دون تصوُّر الكتاب الـذي أتى مـن صفة الله تعالـى "الكلام"، والـذي نَزَلَ به الرسـولُ الكريمُ الـمُطـاعُ الأميـنُ ذو القوَّة المكينُ جبرئيـلُ عليه السلام، وبلَّغه النبيَّ الأُمِّيَّ محمّدًا ﷺ، فالقـرآنُ منـدرجٌ -على هيئة بَذرةٍ- في هذه الجملة القدسـيّة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيـث إنـه يجعلنا نحمـد الله ويعلِّمنـا كيفيَّةَ حَمْدِ الله تعالى وشـكرِهِ والثناءِ عليه، إن الله أَعَدَّ الكونَ كأنه بستانٌ في غاية الجمال، وجَعَلَه روضةً في منتهى الروعة، وغذَّانا وربَّانَا بمختلف نِعَمِهِ، ثم أراد أن يعرِّفنا بذاتِهِ من خلال هذه النِّعَمِ، وفي سياق تعريفنا بذاتِهِ عَدَّد لنا نِعَمَه في القرآن الكريم الذي هو خطبته الأزليّة والأبديّة، فهل يُتصوَّرُ أن لم يرسـل اللهُ مبلِّغًا يبلِّـغ لنا كتابه، ويَشـرح للمشـاهدين الذين يأتون لمشاهدة قصرِ الكون الأسرارَ المودَعـة فـي هذا المعرض الرائـع، فلا بد من إرسـال الرسـل، وهو أيضًا مندرجٌ في عبارةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فنحن حينما نتفوَّه بهذه الجملة نكون كأننا

نحمد الله تعالى على أنْ أَرسَـل إلينا الرسلَ أيضًا، وسيدُنا محمد الذي هو قافيةُ ركبِ الأنبياء اشتُقَّ اسمه من مصدر "الحمد" أيضًا.

قال الشاعر في مدحِ رسول الله ﷺ:

*في الأرضِ أحمدُ، في السماء محمّدٌ*

*عند الإلهِ مقرَّبٌ محبوبٌ*

نعـم، إنـه كما حَمِـد الله كثيرًا، كذلـك هو محطٌّ نظـر الله تعالى، وهو الفردُ الفريد.

**٤- ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ﴾ والإيمانُ بالآخرة**

إن التلفُّظَ بهذه الجملةِ القدسـيَّة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ من صميم الفؤاد ومن أعمـاق القلـب، والمواظبةَ على ذلك يُذكِّرنا بالإيمـان بالآخرة أيضًا؛ لأن النعمـةَ التـي لا تـدومُ لا تُعَـدُّ نعمـةً بل هي نقمـة، فالنقمةُ تحوِّل مشـاعر الصداقـة والمحبَّـةِ إلى عـداوةٍ ونفـورٍ، فصاحب الرحمـة اللانهائيّة الذي يعرِّفنـا بذاتِهِ ويحبِّبُها إلينا في الدنيا، يجعلُ عبادَهُ يحمدونه في الدنيا، ولن يُنهِـي هـذا الحمد بقطـعِ نعمِهِ بزوالِ الدنيا، بل سـيجعلُ الناسَ يسـتمرُّون بحمـدِه إلـى الأبدِ في حياةٍ لا نهائيّة، فعبادُهُ يحمدونه في حياتهم الدنيويّة، وسـيُبعثون فـي الآخرة وهـم حامدون، وسـيَحمد المؤمنـون ربَّهم حينما يدخلون الجنَّةَ بترحيبٍ من الملائكة وهم يقولون: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**﴾ (سورة الزُّمَر: ٣٩/٧٤).

وهـذا يعنـي أن هـذه الجملة المباركـة كما أنها تشـتمل على خلاصة أمَّهـات القضايـا الأربعة التي هـي المقاصد والأهداف الأساسـية للقرآن الكريـم، فكذلك تشـتمل على جميـع الأركان الإيمانيـة وأصناف العبادة، وما دام الحمد سـيدوم في الجنة فإن الاستحقاقَ للجنَّةِ إنما يتأتَّى بالحمد

في الدنيا، ونحن نعرف أن الذي يؤهِّل الإنسانَ للجنة إنما هو العبادة والتقوى، فلا يقول الإنسان: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الوجه الحقيقي إلا إذا استرشد بالقرآن الكريم، وعاش الإسلامَ على أتمِّ وجه.

### ز. كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾

وبعد هذا الاستطراد تعالوا بنا نُعرِّج على معنى كلمةِ ﴿الْعَالَمِينَ﴾، وكنَّا قد تَطرَّقْنا لكلمة ﴿رَبِّ﴾، وسنختم الموضوعَ ببيانِ معنى هاتين الكلِمَتَين من جانبٍ آخر.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ معرَّفةٌ بأل التعريف، فإذا اعتبرناها عهديَّةً يكونُ المقصودُ كلَّ العوالم التي يعلَمها الله، والعالَم مأخوذٌ من العلامة، وسُمي بهذا الاسم؛ لأن العوالمَ -بدءًا من عالم الذرَّات وانتهاءً بنجوم السماوات- علامةٌ ودليلٌ على الله ﷻ، ومن ضمنِها: عالم الأرواح وعالم الأشباح وعالم المثال وعالم البرزخ وغيرها من عوالم كثيرة.

فما أحسن العالَم بهذا المعنى؛ حيث يُعرَف به الله! ويا له من لوحةٍ فريدةٍ يشاهَد فيها الله! وما أحلى تموُّجاتِ الجمالِ الموجودة في الكون بشتّى ألوانِها؛ حيث يُرى فيها الجمالُ والكمالُ لصاحبِ الجمالِ المطلَقِ والكمالِ المطلَقِ! وإحرازُ الجمال والكمالِ أمرٌ مرتبطٌ بالمشاهدة، وذلك إنما يتأتَّى بقلبٍ وعقلٍ مواظِبَين على التفكُّر، إذ لم يُخلَق شيءٌ في الكون عبثًا وبلا جدوى، وإنما يحصلُ الوصولُ إلى هذه الحقيقة بالتفكُّر المتواصِلِ، وهذا الوصولُ هو الذي يفتح أمامَنا آفاقًا جديدةً في طريقِ معرفةِ المولى ﷻ الذي يعرِّف بذاتِهِ بأنه: "رَبُّ الْعَالَمِينَ".

وردَ في الأثرِ أن الجَراد قَلَّ ونَزَرَ في سَنةٍ من سني عمر ﷺ التي وَلي فيها، فسأل عن ذلكَ فلم يُخبَرْ بشيءٍ، فاغتمّ لذلك فأَمرَ راكبًا يَضربُ

إلى اليَمن، وآخَرَ إلى الشام، وآخرَ إلى العراق يسأل هل من الجراد شيءٌ؟ فأتاه الراكبُ بقبضةٍ من الجرادِ، فألقاه بين يديه، فلما رآهُ كبَّرَ ثلاثًا ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "**خَلَقَ اللهُ تَعَالَى أَلْفَ أُمَّةٍ، مِنْهَا سِتُّمِائَةٍ فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ فِي الْبَرِّ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجَرَادُ، فَإِذَا هَلَكَ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ**"(٥٢)، فلعلَّ سيدنا عمر ﷺ توجَّسَ -انطلاقًا من هذه الظاهرة- من اختلالِ نظام العالم وقيام الساعة في عهده، وقوله هذا يشتمل على ما حاولنا شرحه آنفًا من التفكُّر والتدبُّر.

ولما مات عددٌ من طيورِ "أبي منجل" التي أوشكَتْ على الانقراضِ أعربَ خبيرٌ غربيٌّ عن قلقِهِ تجاهَ هذا الوضع، ولما سُئِلَ عن سبب قلقِهِ، قال ما معناه: إن كلَّ واحدٍ من العوالم التي خلقَها الصانع الأعظمُ هو من الأجزاء المتمِّمة للكون؛ فإذا نقصَ واحدٌ منها حصلَ نَقْصٌ في الكون؛ فالحيّات والعقاربُ والقملُ والبراغيثُ والطفيليَّات التي تتسلَّطُ على الأشجار لكلِّ واحدٍ من هؤلاء موقعٌ في الوجود، والخالقُ أتمَّ الكونَ بها وأكملَ حكمتَهُ بها، ولذلك فأيُّ نقصٍ يعتري أحدًا من هؤلاء يكونُ نقصًا في الكون، وهكذا يتعاقَبُ النقصُ تلوَ النقصِ، ويتَّجِهُ الكونُ نحو النهاية والانقراض، فكما أنَّ نَقْصَ مادّةٍ ضروريةٍ -ولو واحدةً فقط- من جسم الإنسان يؤدِّي إلى حدوثِ أعراضٍ جانبيّة، فيختلُّ التناغمُ والتوازن الموجود في الجسم، ويؤدِّي ذلك إلى نقصِ موادَّ أخرى، ويتوقَّف نموُّ الجسمِ، وتبدو مرحلة الانحدار؛ فكذلك الكونُ الذي هو "الإنسان الأكبر" إذا نقصَ منه أحدُ أجزائه المتمِّمة له ابتُلِيَ بالعاقِبَةِ الوخيمةِ ذاتها.

### ح. تعبير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من الناحية التربويّة

والآن لنتناول العبارةَ القدسيّة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من جانب آخر:

(٥٢) أبو الشيخ الأصبهاني: **العظمة**، ١٧٨٣/٥؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٤١٢/١٢.

فههنا تَرِدُ كلمةُ ﴿رَبِّ﴾ وتعقُبها كلمةُ ﴿الْعَالَمِينَ﴾... فالله هو الذي يربي جميع العوالم ويوصلها إلى الكمال، ويعني هذا أن العوالم كلَّها تحت تربية الله تعالى، وأن ما لا يخضع لتربيته لن يصل إلى الكمال؛ فالعشب الذي لا يتلقى تربيتَه لن يصل إلى الوجود على هيئةِ نبات، والشجرُ الذي لا يُشَذَّب تحت رعايته وفي ظلِّ تربيتِهِ لن يُثْمِرَ، والهواء الذي لا يمرُّ من تربيته لن يتصفّى من السموم، والسكَّر الذي لم يتلقَّ تربيته لن ينفصل عن القصبِ، فتلك التربيةُ هي التي تُخرِجُ موجوداتٍ حيةً مِن أجسام صلدة جامدة لا أملَ فيها، وتلك التربية هي التي تبعثُ الحياة في الأموات فتصيرُ نابضةً بالحياة، وتلك التربية هي التي تُرَقِّي أبسطَ الأشياء فتوصلُها إلى الكمال، فتجعلُها من أفضل الأشياء وأرقاها كمالًا وبراعة، بحيث إنكم تسجدون سجدةَ حيرةٍ وانبهارٍ أمام ما نالها وطالَها من الاهتمام والاعتناء.

إن التربيةَ هي ترقيةُ الشيءِ إلى آخِرِ نقطةٍ يمكنُه الوصول إليها؛ فإذا كانت هناك نبتةٌ تملكُ قابليَّةَ الإزهارِ فآخِرُ نقطةٍ لنموِّها وتطوُّرِها هو إزهارُها، وإذا كانت الشجرةُ من النوع الذي يثمرُ فآخِر نقطةٍ تصلُ إليها هي الإثمار، فإذا لم تثمر الشجرةُ التي من شأنها أن تثمر، فإن هذا يعني أنها لم تَصِلْ في التربيةِ إلى مستوى الكمال...

وكذلك الإنسان له حدٌّ أقصى، وهو ما قد عُبِّرَ عنه في معراج الإنسان الأكملِ ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (سورة النَّجْم: ٩/٥٣)، فَرُقِيُّ المربّي الأكبر وسلطانِ الأنبياء ﷺ إلى هذا المقام العالي يعني وصولَه إلى آخر نقطةٍ في تربيتِهِ على يد الله، ففي هذه اللحظة تفلَّتَ ﷺ عن طَورِ عالَم الإمكان، وخرج عن عالم الكثرة، وأدرك الوحدانية، ثم أحسَّ بالشوق والتوق نحو الرُّقيِّ بمن هم في عالم الكَثرة إلى عالم الوحدة.

إنَّ تربيةَ كلِّ شيءٍ تدلُّ على ربّ العالمين؛ فلو أن إنسانًا ذهبَ إلى جبلٍ أو وادٍ أو ساحلِ بحرٍ وشاهدَ مساحةً من الأرض مغطّاةً بالعديد من أنواع الزهور والنبات والأشجار ولكنها عشوائيّةُ التوزيع ولم تخضع لعمليةِ إصلاحٍ زراعيّ وتشذيب وفلاحةٍ، فمن المحتملِ، -إن لم يفكّرِ مليًّا- أن يُسنِد هذا الأمر إلى الطبيعة أو يقولَ: "حصل هذا الأمر صدفةً"، مع أنه إذا نظر بموازين العلم فسيرى أنها من الله، ولكنه إذا رأى رياضًا ومُروجًا مغطاةً بشتى أنواع النبات، غير عشوائيّة ولا مبعثرةٍ، بل شُقَّت فيها الطُرُقُ وفُتِحَتْ قنواتُ الرّي، وقُلِّمَت أشجارُها، وحوِّطت أطرافُها، ووُضِع فيها أشباحٌ تُصوِّر إنسانًا لطردِ الطيور والعصافير عنها؛ فهل يُحتَمل أن يُسنِد كلَّ ما شاهده ولاحظَهُ إلى الصدفة والعشوائية ويقولَ: إن هذه البساتين تَشكَّلت بنفسها على سبيل المصادفة؟ كلا!

فكذلك الله ﷻ، قد وضعَ الكونَ أمامنا كأنه روضةٌ منتظمةٌ خضعت للرعاية والإصلاح، حالها كحالِ ذلك البستان الذي فُتِحَتْ فيه قنواتُ الرّيِّ وشُذِّبَتْ أشجارُهُ وشُقَّتْ فيه الطُّرق، وحوِّطت أطرافُهُ وحُمِيَت بالأسلاكِ الشائكة، وستَرَون وستسمعُون وستُشاهِدون كلَّ شجرةٍ تلاقونها، وكلَّ غصنٍ من تلك الأشجار، وكلَّ وردةٍ وزهرةٍ فيها كأنها إنسانٌ يهتفُ باسمِ: "الله".

ولهذا، فكأن "غير العقلاء" تنخرطُ ضمن "العقلاء" ذوي الشعور وتصيرُ أجزاءً من "العالمين"، والله ﷻ يُجمِلُ ويجمعُ الملَك بالإنسان، والإنسانَ مع الشيطان، والشيطانَ مع الجنِّ ويقول: إن الذي يربّي كلَّ شيءٍ، ويوصله إلى آخر نقطة؛ بدءًا من الشجر والنبات والحدائق والبساتين وجميع الرياض على سطحِ الأرض، وانتهاءً بوجه السماء المرصَّع بأنواع النجوم، إن الذي يفعل كلَّ ذلك هو الله ﷻ بصفتِهِ "رب العالمين".

وسواء شَرَحْنَا "قابَ قوسين" بالسَّهْمِ والقوس، أو قمْنَا بتوضيحِهِ بشيءٍ آخر؛ فإن هذه المقاييس لن تَرقَى إلى مستوى التعبير عن وضعِ النبي ﷺ، وهو ينظر بإحدى عينيه إلى عالم "الإمكان" وبالأخرى إلى "واجب الوجوب"، وهكذا جَمَع بين الوجوب والإمكان في مقام "الجمع".

والطريقُ مفتوح أمام البشرية حتى تصل في التربية إلى مستوى "قاب قوسين"، وإنها إذا لم تصل إلى هذا المستوى فعليها أن تراجعَ موقفها مرة أخرى، وألَّا تنسى أنَّ الانحطاطَ ربما يوصلها تدريجيًّا إلى ما هو أحطُّ من مستوى البهائم، يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (سورة الأعْرَافِ: ١٧٩/٧).

إن الله تعالى يربّي كلَّ الكائناتِ على مراحل متسلسلة، فبتربيته هذه تتكوَّن الجُزَيْئَاتُ من الذرَّات، وتتكوَّن الخلايا من الجزَيئات، ومِن بعد ذلك تتربَّى الخلايا، فمنها تتكوَّن الكائناتُ الحيَّةُ، ومن بعد ذلك تُخلَقُ الأقمارُ والنجوم والأنظمةُ من الذرَّات، ومن هذه الأنظمةِ تُخلق العوالم، والله ﷻ يحدِّثُنا عن هذا كلِّهِ بصفتِهِ: "رَبّ الْعالَمينَ".

### ١- صيغةُ "العالمين"

إنه ﷻ مربي "العالمين" جميعًا، وذِكرُ "العالمين" بصيغةِ العُقلاءِ -رغم اشتمالِهِ على غيرهم- فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أن الذين سيدركون كيفيةَ تربيته ﷻ للعالمين ويفهمونها على حقيقتها هم أُولُو الألبابِ، ويُفهم من هذه الإشارةِ أيضًا أن الكونَ إذا لم يكن علامةً على المكوِّنِ ﷻ فلا معنى لوجودِهِ.

فالإنسان الذي أَضفَى بشعورِهِ وإدراكِهِ قيمةً على العالَمين، لو كان خارج المعادَلَةِ لَقِيلَ هنا "العوالم" بدلَ "العالمين"، ولكنْ مِن حيث إن الإنسان له أفضليَّة ورجحان في إدراك العالم وفهمِه قيل: "العالمين"، وهناك بجانب الإنسان مخلوقاتٌ ذواتُ شعور كالملائكة والجنّ، ولكنَّها عاجزة عن إدراك أمورٍ كثيرةٍ مما يستطيع "الإنسان الكاملُ" إدراكَها.

وهنا نكتةٌ أُخرى فتنبَّه لها، وهي: أن الكائنات غير العاقلة وغير المدرِكة كأنها قد أُذيبَتْ في بوتقةِ ذوي العقل والإدراك، فتَحول كلٌّ منها إلى ذي عقلٍ وإدراكٍ، فمثلما تدلُّ الحديقةُ على صاحِبِها، يترنَّم هذا الكونُ بالحقّ تعالى، بحيث إنه لو كُتب على وجه السماء كلمةُ: "لا إله إلا الله" بالنجوم، لمَا كانت أدلَّ على إعلان الحقّ تعالى من معجزة الخلق التي يدل عليها الوجهُ النقيُّ الصافي للسماء والمرصّع بالنجوم الزاهرة العلياء.

فيبدو أن كل الموجودات؛ بدءًا من زهرةٍ في بستان وانتهاءً بوجهِ السماء النقيّ الصافي، قد خضع لتربيةٍ جادَّةٍ، ولذلك يستمرُّ هذا النظامُ والانتظامُ، وبهذا الاستمرار تُردِّدُ على الدوام وبلسانٍ أبديٍّ: "لا إله إلا الله"، فهذه الموجودات تتحرَّكُ بشعورٍ ووعيٍ وإدراكٍ، والذي يَسوقُها إلى هذه النقطة هو الله الذي يعبّر عن ذاتِهِ بأنه: "ربّ العالمين" ﷻ.

### ٢- تربية الإنسان

إن الإنسان إذا لم يخضع لعملية التربية ولم يعامَل معاملةً تؤدّي إلى إنتاجِهِ الثمرةَ؛ فَسَدَ؛ فكما أن المقصودَ من الشجرة هو الثمرةُ، فكذلك هناك ثمرة يُطلَبُ من الإنسان أن يثمرَها، وهي أن يَرقى إلى "قاب قوسينِ" البشريةِ؛ فهو إن لم يخضعْ في سبيل إثمارِ وإنتاجِ هذه الثمرة إلى عمليَّةٍ تُشبهُ العمليّات الكيميائيّة؛ فسيفسُدُ ويتفسَّخ.

إن مَثَـل الفطرة البشـرية وبخاصَّةٍ فطرة "الأمـة المحمدية" مثل اللبن، فاللبَـنُ إن بقـيَ كمـا هـو ولـم يحافَظ عليـه، تخمَّـرَ وفسـدَ وتكاثرت فيه الفيروسـات، ثم لا ينفـعُ في شـيءٍ؛ فلا يسـتفادُ من سمْنِهِ ولا مخيضِهِ ولا جبنِهِ، ولكن إذا خضـع لعمليَّةٍ كيميائيّة، فسيُسـتَخْرَج منه السـمنُ والجبنُ وأنواعٌ متعدّدةٌ من مشـتقّات الألبان، وهكذا الإنسـان؛ إذا تُرِكَ تمامًا على حالِـهِ سـائبًا، ولم يلقَّـن الخيـرَ، وانقطعَتْ علاقَتُـهُ مـع العالَـمِ الماورائيّ أصبحَ غيرَ نافعٍ بحالٍ من الأحوال، تمامًا كاللبنِ السـائب، والرسـولُ ﷺ يَذكرُ لنا المناسبةَ بين الإنسان واللبن، فيقول -أثناء حديثه عن عروجِهِ إلى "قاب قوسين"-:

**"لَيْلَـةَ أُسْـرِيَ بِي أُتِيـتُ بِإِنَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَمْرٌ وَالآخَـرُ لَبَنٌ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِـئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَـرِبْتُهُ، فَقَالَ: هُدِيتَ لِلْفِطْرَةِ، أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ لَغَوَتْ أُمَّتُكَ"**(٥٣).

ولهذا فالإنسانُ الذي خُلِقَ لِغاياتٍ ساميةٍ -وأيُّ سموٍّ!- إذا لم يَتصرَّفْ وفقًـا للتربيـة الإلهيّة السـائدة في الكون، ولم ينخرطْ في سِـلك الذين هم على نهجِهِ؛ سقطَ في الدرك الأسفل، وصارَ وقودًا للنار.

وبِقـدرِ اقترابنا من الله الذي يُعرِّفنـا بذاته بأنه: "رب العالمين"، والذي يُطْلِعُنا بفضل هذه الصفة على أَلْفِ اسمٍ واسمٍ من أسمائه، بقدرِ ما نكونُ مؤدَّبين ونرتقي إلى "قاب قوسـينِ" الإنسـانيةِ؛ وإلا فسنسـقطُ إلى دركاتٍ أسفلَ من البهائم.

والتدخُّل الخاطئُ أو الجاهلُ يؤدِّي أيضًا إلى فساد الإنسان وانحطاطِهِ، فـإن الـذي يُربِّي العالمين هو الله، لأن الـذي خلقَ هذا العالم كُلًّا متكاملًا هـو الله، لِنَتَصَـوَّرْ أن شـاعرًا كَتَبَ قصيدةً مؤلَّفةً من عشـرين بيتًـا، ثم أتينا

(٥٣) صحيح البخاري، الأنبياء، ٢٤، ٤٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٧٢.

وأضفنا إلى هذه القصيدة بيتين من دون أن نقرأها ونطَّلِعَ على محتواها، ثم عرضناها على شخصٍ عامّيٍّ ليس له من الشعرِ نصيبٌ أو سابقة؛ فكونوا واثقين من أنكم ستسمعون منه كلامًا يُعرِب فيه عن عدمِ تناغُمِ هذين البيتين مع سائر الأبيات؛ إذ من المحقَّقِ أنه سيكون هناك عدمُ انسجامٍ بين هذين البيتين وبين سائر الأبيات، وهكذا الكون تمامًا؛ فهو مثل القصيدة، ولكلِّ بيتٍ منه علاقة بالأبيات الأخرى، والإنسانُ أيضًا قد نُظِمَ كبيتٍ من ضمن سائرِ الأبيات، وهو جزءٌ من الكلِّ الذي يُسمَّى "الكون"؛ فلا يمكن أن نَتصوَّرَ الكونَ بدون الإنسان ولا أن نتصوَّرَ الإنسانَ بمعزلٍ عن الكون، فلا بدَّ أن يكون للإنسانِ موضعٌ يخصُّهُ ضمن تربيةِ جميع الكون، وبتعبير آخر: لا بدّ من تربية الإنسان وفقَ القوانين السارية في الكون، ولكن الواقع هو أن البشريَّةَ ما تزالُ تَجهَل الطبيعةَ والكونَ، ولا تَعْرِفهما على الوجه الكامل، ويقصُرُ عقلُها عن العلاقة بينهما وبين عالم الروح والعقل والمشاعر، ولا تُدْرِكُ مفهومَ ما نسمِّيه: "الوجدان"، الذي هو سرٌّ دقيقٌ يكفي لأن يكون بمفردِهِ دليلًا على "واجب الوجود"، وبالتالي؛ فما يُصدِرُهُ الإنسانُ من الأحكام الخاطِئَةِ حول ذاتِهِ لن تكون مختلفةً عما يُصْدره من الأحكام حول الكون والوجود، بل ستكون أشدّ خطأً وأكثر فداحةً.

### ٣- المبادئ التربويّة البشريّة والمشهدُ المرير

منذ أمدٍ بعيدٍ تدخَّلَتْ البشريَّةُ في أمر تربيتِها، وألَّفَتْ في هذا المجال كُتُبًا في علمِ النفسِ، وقدَّمَتْها للأجيالِ تحت اسم: "التربية"، وفي تلك الحقبة قامَ علماءُ النفسِ والتربيةِ الذين تصدَّوا لتربية الأجيال بالتفوُّهِ بعباراتٍ كبيرةٍ تحتوي على ادِّعاءاتٍ عظيمةٍ عملاقة، وكانت تعبيراتُهم ومقولاتُهم -مِن علوِّ نبرَتِها- تُخيِّلُ للكثيرِ من الناس أنه لن يُمْكنَ تربيةُ

الأجيال إلا بتطبيقِ ما يقولون، في حين أن كلَّ سرِّ جاذبيّةِ مقولاتهم وخلابتِها كان منطويًا في غموضِها.

إن ما ربَّوه من الأجيال ها هم أمامنا؛ فنحن أمام جيلٍ يعادي قرآنَهُ ومربّيَه وأمَّه وأباه وجدَّه وماضيَه وجذورَه ونظامَه بل كلَّ الكون، فكلُّ العالم الذي يتخبَّطُ في نفسِ الدوَّامةِ وفي نفس المأزِقِ يُثبِتُ بدلالةِ الحال أنَّ التربيةَ الحقيقيَّةَ هي تربيةُ ربِّ العالمين ﷻ، ويبصُقُ في وجهِ الذين قالوا: "رَبَّيْنَا"، ويوبِّخُهم على هذه الفريةِ الكبيرة.

فالتدخُّلُ الخاطئُ في الجيل فَرَطَ عِقدَه، والأيدي والعقولُ الجاهلةُ لعِبَتْ بغذائِهِ فَسَقَتْهُ السمَّ باسمِ التربية، وعصابةٌ متجبّرةٌ من القاصرين في العلمِ والفِكرِ والمشاعِرِ قامرت بالأجيال واتخذَت منها ذرائع لإشباع صَلَفِهم ورغباتهم، وتصدَّرت لإجراءِ التجاربِ على الإنسان واتخذته رقعة للاختبار وحقلًا للتجارب، وهذه التجاربُ المتتاليَةُ أدَّت إلى عديد من الأمراض السارية، فكم من دول وشعوب انهارت فلم يكن منهم مَن يشعر ويحسّ ويأبَهُ بشيءٍ، والحقيقة أنه لم يكن من المنطقي أن نتوقَّع أيَّ جدوى من الذين يتناولون الإنسان وكأنه مصنَع الفضلات أو ماكينةٌ متراكمة من الأدوات. نعم، إن الذي يَكمُن وراءَ كلِّ صراعاتهم الاقتصادية والسياسية هو هذه النظرة الخاطئة إلى الإنسان، فمفهوم الإنسان قد تردّى إلى ما هو عليه اليوم على أيدي هؤلاء الذين اتخذوا أهواءهم النفسية آلهةً، ونظروا إلى كلِّ شيءٍ وقوَّموه في مرآة نوازعهم النفسانية التي هي جوانب ضعفهم، وإذا لم تَرجع البشرية إلى أصلها وفطرَتها، ولم تضعْ حدًّا لهذه الوتيرة، فلن تكون عاقبتُها محمودة.

ولن تنجو الإنسانية من هذه الانحرافات إلا إذا أدركت العلاقةَ بينها

وبين روحِها وقلبِها وأحاسيسِها، وفهمت العلاقةَ بينها وبين ربّها، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يشرحَ ويُبَيِّنَ لنا تلك العلاقة إلا القرآن الكريم وتفسيرُه العملي المتجسِّدِ ومثالُه الفريد الذي هو سلطانُ الأنبياء ﷺ...

إن رُقيّ الإنسان إلى أوجِ الكمالِ وبلوغَهُ "قاب قوسَي" فطرتِهِ لن يتحقَّقَ إلا بتربيَتِهِ بالتربية الإلهية، وهذا النوعُ من بلوغ الكمالِ سيَجِدُ معناه وصبغَتَهُ الحقيقيَّة في دستورِ التخلُّقِ بالأخلاق الإلهيّة، فالإسلامُ يوصي الإنسان بهذه الأخلاق، ولا ينحصِرُ في إطار التوصية بل يأخذُ بيدِهِ ويوصلُهُ إلى بدايةِ الطريق الذي يؤدِّي إلى هذا المقام، وهو الصراط المستقيم الذي هو الطريق القرآنيّ.

والحالُ أن الأنظمةَ البشريَّةَ مهما حاولَتْ أن تُضْفِي على المسألةِ طابَعًا عِلميًّا فإن كلَّ محاولةٍ منهم باسم المداواة ليست إلا عبارةً عن ضربةٍ قاسية تَلقَّاها الإنسان.

وكما هو الأمرُ في المَثَلِ التركيّ الذي يقول: "إنَّ السارقَ حينما يتحدَّثُ عن شجاعتِهِ ومهارَتِهِ يفضحُ سرقَتَهُ"، فكذلك هؤلاء الذين هم "سُرَّاق الواجهات" حينما يُعرِبون عن شجاعتهم ومهارتهم فإنما يذكرون سرِقاتهم، وسيُعرَضُ العصاة والأشقياء والفوضويُّون والإرهابيُّون في إذاعاتهم وعلى شاشات تلفزيوناتهم وسيقدَّمون للشعوبِ كأنَّهم منقِذون، ففي حينِ يبجَّل العاصي والفوضويّ في إذاعاتهم وتلفزيوناتهم؛ يقومُ المفكّرون والتربويُّون العالميُّون والمؤسَّساتُ التربويَّة العالميّة ويسمون هذا الأمر "تنويرًا".

إن التربيةَ تُقَوَّمُ بحسب آثارها، فها هي الشوارع، وها هي التربية التي قدَّمَها أهل هذا العصر؛ إن ما يُقترَف في أيَّامِنَا في بضع دقائقَ؛ ما كان يستطيعُ أيُّ وحشيٍّ في العصورِ القديمة أن يفعَلَهُ طوالَ حياتِهِ؛ فإن أكثرَ ما

كان يستطيعُ أوحشُ إنسانٍ أن يقتلهم ما كان يتجاوزُ عشرةَ أشخاص، أما في أيّامنا هذه فيُقتَلُ آلاف من الأشخاص مرَّةً واحدة بالدبَّابات والطائرات والأسلحة الكيميائية وأسلِحةِ الدمارِ الشامل، والأدهى والأمرُّ في هذا الأمر أن الإنسانيّة قاطبةً تقفُ موقفَ المتفرّجِ على هذا المشهدِ المروّعِ الذي هو عبارة عن دمارٍ شاملٍ، من دون أن تحسّ بشيءٍ أو تنبسَ ببنتِ شفة، وكما يقول الشاعر المهموم محمد عاكف ﷺ:

*لا فيكَ إحساسٌ ولا حراكٌ ولا أوجاع*
*ولا أجد لك عزمًا وتصميمًا على التخلص*
*هل أصبحتَ جيفة...؟!*

إن البشرية قاطبة تتفرّج، في صمت وسكون، على هذا الدمار الهائل، ومن حيث إنه لم تُوقَظ الجواهرُ المكنونة في الإنسان؛ فإن هذا الكمّ المتراكِمَ من فرضيَّات العلوم والفنون والتقنيَّات جعلَتْهُ يتشكَّكُ حتى في ذاته أكثر من ذي قبل، وما زادته التقنيَّات الحديثة إلا مضاعفةً في طاقتِهِ التخريبيَّة، وحوَّلَتْه إلى وحشٍ كاسر، مما جَعَلَنا نترحَّمُ على السفّاحين في العصور الغابرة. نعم، إن البشرية في أيامنا هذه قد جمحت نزواتُها وجوانبُ ضعفِها النفسية بحيث يبدو أنه لم يعد بالإمكان السيطرةُ عليها، وغدَا من الصعوبة بمكانٍ أن تنتَصِحَ أو تنصاعَ، فإنها لُقِّنَتْ دائمًا وبشكلٍ مستمرٍّ ضرورة البحثِ عن إشباعِ النوازع النفسانيّة والتوجُّهاتِ السلبيّة كأنها هي الغايةُ والحكمة الأساسيّة من خلقِ الإنسان.

فكما أَفسد الغربُ أجيالَه على هذه الشاكلة؛ فهو كذلك يحاول أن يؤدي بالعالم الإسلامي إلى العاقبة نفسها، ولا يمكن أن يقال إنه لم ينجح في ذلك، والحقيقة أن الكبرَ والغرورَ وأمثالَهما من الأمور التي تُلَقَّن لإنسانِنا اليوم زادت من طغيانه وتَفَرْعُنِه، وجعلتْه لا يراعي أيَّ قيمةٍ

مـن القِيَـمِ، ومما سـاعدَ على تفاقمِ هذه المشـكلةِ أربـابُ المناصِبِ الذين لا يملكون الكفاءةَ والأهليَّةَ لمناصبِهم؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا.

والحيـاةُ السياسـية فـي وضــع يدمـي القلـب ويُرثَـى لهـا، فالفكـر "الميكافيلي"(٥٤) جَعَلَ المصلحة الشخصيّة محرابًا، وصارت الإنسانيةُ عبدًا وخادمًا لمن يقدِّم لها منفعة، فهذه الفكرة من الخطإ بحيث إن صاحبَها ينظرُ إلـى مَـن هو مُـوالٍ له كأنه مَلَكٌ ولو كان في واقـعِ الأمر شـيطانًا؛ في حين أنـه يـرى مخالفَهُ ليس إلا شـيطانًا ولو كان في الحقيقة مَلَـكًا، فهذه النظرة السقيمة هي من نتاج التربية التي تُقدَّم في يومنا، وهذا هو الواقـعُ المريرُ.

إن الذين يُفْسِدُون النسلَ معاييرُهم على حسب منافعهم، فمِن الصعب -حسـب معاييرهم- التمييز بين الصالـح والطالـح، وإن الله تعالى قد مَنح الإنسـانَ أوفر الحظوظ حينما تحدث عنه بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً**﴾ (سـورة البَقَـرَةِ: ٢/٣٠)، حيـث جعلـه "خليفـة"، فالإنسـان سـيتصرَّف في الكون وكيلًا عنه تعالى، ويكون بروحه مرآةً له، ويـدلُّ -بإرادتـه- على الله ﷻ بالانسـجامِ مـع الحركة الكونيَّـة العموميّة، فخلافةُ الله تتضمَّنُ هذه المعاني، ولكن فسـادَ النسـل يحقِّق الوضـعَ الذي تَخوَّفـت وقَلِقَـت منـه الملائكة، حيث قالـوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٢/٣٠)، فالملائكة كانوا يتخوَّفون، وكأنهم رأوا هؤلاء الفوضويّين الذين يفسدون النسل، ولذلك أعربوا عن قَلَقِهِم هذا.

(٥٤) **الميكافيلية**: مبدأ في السياسة، والشخص الوصولي يُدعَى شخصًا ميكافيليًّا، نسبةً إلى "نيكولو ميكافيلي"، وهو: كاتب ومفكر إيطالي وُلِدَ في فلورنسا (١٤٦٩-١٥٢٧م) وقد وضع أهمَّ أفكارِهِ حول مفاهيم السياسة والحكم وإدارة شؤون الدولة في كتابه المعنون بـ"الأمير" الذي أَلَّفَهُ للأمير الإيطالي "لورنزو" فقدَّمَ له نصائح يرى البعض أنها تحمل معاني النذالة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، ويَعتبرُ حتى قتل الأبرياء أمرًا طبيعيًّا من الممكن فعلُه من أجل الحِفاظ على الملك أو الحكم، وله تُنْسَبُ الجملة الشهيرة "الغاية تبرِّرُ الوسيلة"، وإذا أُطلِقَ مصطَلَحُ الفكر أو السياسة الميكافيليّة فهو يعني: تبرير فعل أيّ شيءٍ والاستهانة به من أجل تحقيق الغاية والهدف، وهذا معنى "الغاية تبرر الوسيلة". (المترجم)

**ط. سير الكون نحو الكمال، وتعبيرُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**

ويمكن للقارئِ حينما يقول: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يستحضِرَ المعاني التالية: إن لله أسماءً تتجلَّى في جميع أرجاء الكون، وحسبَ هذه الأسماء فإن كلَّ شيءٍ يسير سيرًا حثيثًا نحو الكمال؛ فالنبات والحيوانات والجمادات تتحرَّك كلُّها باشتياقٍ عميقٍ وتنساقُ صوبَ الكمال، والأحجار تتفتَّتُ فتصيرُ ترابًا، والتراب يُداسُ وينسحِقُ تحتَ الأقدام، ويحتضن النباتَ ويكون له أصيصًا، والنباتُ يفدي الحيوانَ بنفسه فيرتقي إلى مستوى الحيوانيَّة، والحيواناتُ كذلك تركضُ مسرعةً وتسعى جاهدة لترتقي إلى مستوى الإنسانية، وهكذا نلمَحُ في كلِّ شيءٍ ميلًا نحو الكمالِ، وفي النقطة التي يتوقَّفُ عندها السير إلى الكمال يبدأ الانحلالُ والزوالُ.

وفي سياق هذا السَّيرِ الحثيثِ العموميّ نحو الكمال فالله تعالى بصفته: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد من بني الإنسان أن يشاركوا في هذه المسيرة بإرادتهم، فهل يُعقل أن يتوقَّفَ الإنسان في حين تسرع كلُّ العوالِمِ نحو الكمال، وهل سيبقى الإنسانُ غيرَ مثمرٍ وقَزَمًا في حين أن العوالم الأخرى تُعطي ثمارها، فالشجر يثمرُ، وأما الإنسان فإن عجزَ عن أن يعطي ثمرَ "معرفة الله" ولم يُودِعها في قلبه، ولم يضحّ بالدنيا وما فيها في سبيله تعالى، فهذا يعني أن هذا الإنسان أصبحَ فاسدًا غير مُثْمِرٍ، والحالُ أنه مرآةٌ جامعةٌ لجميع الأسماء الإلهيّة؛ فكلُّ اسمٍ من أسمائِهِ مندرجٌ في ماهيَّتِهِ على هيئةِ خطٍّ أو نقطة، ثم إن الله تعالى يطلبُ من الإنسان أن يُظهِرَ بإرادتِهِ الإنسانيّة ما أودعه ربُّه -بإرادَته الربانية- في ماهيته من الجواهر من أمثال: الكرم والإحسان والعقل والتفكير، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل إرادَتَه في سبيل أن يكونَ كريمًا مُحسِنًا عاقلًا متفكِّرًا، فقد أُودِعَت في الماهية المعنوية للإنسان عناصرُ ومعادن إذا أُشعلت واستُخدِمَت حسب

المعايير الإلهية؛ فإنها ستَخرُج على شكلِ ألماسٍ أو فضَّةٍ أو ذهبٍ أو ياقوت، لكن إذا تمَّ إشعالُها بالفتائِلِ البشريَّةِ فسيتحوَّلُ هذا الماسُ فحمًا.

**التربيةُ وأفقُ "الإنسان الكامل"**

كما ذكرنا قبلُ إن كلمةَ "ربّ" مصدرٌ، والله تعالى مربٍّ بحيث إننا لا نرى التربيةَ إلا عنده، وكأنه -إن صحَّ التعبيرُ- هو التربيةُ ذاتُها، وعلى الإنسان أن يُحرِزَ في التربية مقامًا من رآه ذَكَرَ التربيةَ، فمن نَظَرَ إلى عبوديَّةِ النبيِّ الذي بلغَ في التربيةِ أقصى المدى، يكون كأنَّهُ يشاهِدُ الله، قيل في حقه: "يَا مَنْ إِذَا سَجَدَ تَجَلَّى اللهُ عليه"، إذ مَن رآه في تعظيمِه وتكريمِه لله قال: "إن الله موجودٌ، وها هو ذا فؤادُهُ ﷺ يرتجفُ مرتعِدًا بين يديه ﷻ".

فالإنسان إذا رُبِّيَ بمثل هذه التربية يصيرُ كأنه هو عينُ التربية، فإذا بلغ هذا المستوى فإن تأثيرَه سيُلمَس في محيطِهِ؛ من أقربِ دائرةٍ إلى أبعدها، وستتأقلَمُ الأسرةُ والمجتمعُ مع هذه العقليَّةِ شيئًا فشيئًا، وسيتوحَّدان معها، وستجدُ الأقوالُ التي تُسرَد آذانًا صاغيةً، وستُتلقَّى المقترَحات بالقبول، وسيَحظى الإنسانُ بالوصولِ إلى الغاية من خَلقِهِ، فيكونُ مرآةً مجلوّة لكلِّ الأسماء الإلهيّة التي تتجلَّى وتظهر في ماهيّته، والحقيقة هي أن الله ﷻ خَلق الإنسانَ ليكونَ مرآةً له، وهو إنما يُحرِزُ القربَ الحقيقي من ربه إذا صار مرآة لأسمائِه تعالى، وهذا يعني حظوتَه بتربيةِ الله تعالى.

وإنه لمن السذاجةِ الأملُ في فلاحِ الأجيالِ دون إخضاعِهم لعمليّة تهذيبٍ وتشذيب، وإذا كنا نتوقَّع منهم الفلاح والصلاحَ، فلنحاوِلْ تحقيقَ ذلك بطريقِ التوجُّه إلى الله بجهودِنا وإرادَتِنا.

وإن أردنا تأسيسَ نظامٍ كالذي قال به الرسول ﷺ وأسَّسَهُ وحقَّقَهُ، فلا بدَّ لنا أن نفعلَ كما فعل؛ فهو في بدرٍ رفعَ يديه متضرِّعًا وقال: "**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ**

**مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**"[٥٥]، فهو قد أصرّ في الدعاء والالتِجاءِ إلى أن سقطَ رداؤُه مِن عَلى منكِبيهِ من دون أن يشعرَ بذلك، وهو ﷺ إلى هذه المرحلة قد فعلَ بإرادته واختياره كلَّ ما استطاع فِعلَه بكلِّ هِمَّتِه، وقد ربَّى جماعةً بلغت أشدَّها وتربَّعَتْ على عرشِ النضجِ والقَوَامِ، ومِن بعد ذلك توجَّه إلى ربِّهِ وتضرَّعَ إليه وفوَّضَ أمرَه إليه، والله تعالى استجاب لحبيبه وأيَّده، وإذ بالملائكة بدأت تصولُ وتجولُ بخيولِها في ذلك الميدان؛ معلنةً أنَّها في خندقٍ واحدٍ مع أولئك الناس.

فتوجُّهٌ مثلُ هذا هو الذي سيُنتِج سياطًا بأيدي الملائكة تنزلُ على رؤوسِ نفوسِنا الأمَّارة بالسوء، وعلى هامات الناس المُتَشَيْطِنين الذين يعملون لأجل النفوس الأمارة بالسوء، واللهُ تعالى سيتولّى الأمر مباشرة، وما دمنا نتحرك وفق تربيته تعالى فإنه سيخلق نتائج طيّبَةً.

إن التربية خارج القوانين التربويّة لله إنّما هي تربيةٌ قاصرةٌ، إذ التربيةُ التي لا تُوصِل إلى الكمال تربيةٌ ناقصة، فلا بدَّ من كَونِ التربية كُلًّا متكامِلًا؛ فأيُّ طريقٍ لا يؤدِّي إلى آخر نقطةٍ يَصِلُ إليها الإنسان فهو طريقٌ باطلٌ، وهذه النقطةُ هي رُقيُّهُ في الصدقِ إلى أوجِ الكمال وبلوغُهُ "قاب قوسين".

أيّها الإنسان، إن لك أيضًا "قاب قوسين"، وهو أن تكونَ إنسانًا كاملًا، ويا أيها المؤمن! إن "قاب قوسين" بالنسبة لك هو أن تَفنَى في الله ورسولِه وكتابِه، وتذوبَ وتضمحلَّ من حيث جوانبُك النفسانيّة.

---

(٥٥) صحيح البخاري، المغازي، ٤؛ صحيح مسلم، الجهاد، ٥٨ (واللفظ لمسلم).

# آيةُ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

**أ. ما في تكرار اسمي: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من الحِكَم**

إن هذين الاسمين اللَّذَين وردا في البسملةِ قد تكرَّرَ ذكرُهُما مرَّةً ثانيةً في الفاتحة، ويمكن أن يُذكَر لذلك من الحِكم ما يلي:

١- إذا تناولْنا المسألةَ من الناحيةِ الفقهيَّةِ نقول: إن اعتَبَرْنا أنَّ البسمَلَةَ ليستَ آيةً من الفاتحة فَذِكْرُ هذين الاسمين هنا لا يُعتَبَرُ تكرارًا.

٢- إذا نظرنا إلى المسألة من زاويةٍ أخرى نقول: إن للهِ مِنَ الأسماءِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وهو تعالى بعدَ أن عرَّفَنا بذاتِهِ باسمِهِ: "الله" و"ربّ العالمين"، يتدارَكُ الإنسان برحمتِهِ بِذِكْرِ الاسمين "الرحمن الرحيم"؛ لأنه من المستحيلِ على بني البَشَرِ أن يدركوا ويحيطوا بتجلِّي "الواحديّة" للذات الإلهيّة؛ ذلك التجلّي الذي يَظهر في عموم الكون، فبعدَ ذكرِ هذا التجلِّي العظيم الذي يُبْهِرُ العقلَ؛ لَفَتَ الأنظارَ إلى التجلِّيات التي يدركها ويفهمُها كلُّ فردٍ في مرآةِ ذاتِهِ، فذُكِرَت الرحمةُ، فبفضل هذين الاسمين يدرِك الإنسانُ ويَفهَمُ في مرآةِ روحه معنى الكون وما يدل عليه الكونُ من الذاتِ الإلهيّة.

٣- إنَّ ذكرَ هذين الاسمين الجماليَّين بعد لفظ الجلالة: "الله" يحملُ معنى الترغيب بعد الإنذار والترهيب، وهكذا القرآن؛ فكلَّما وردَ فيه ترهيبٌ أتى من بعده ترغيب، وكلَّما ذُكر ترغيب أعقبَهُ ترهيبٌ، وهكذا دواليك في النسَقِ القرآنيّ.

وقولُه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (سورة الْحِجْر: ١٥/٤٩-٥٠) مِن أحسن الأمثلة على ذلك؛ حيث جمع بين الأمرين، وفي حديثٍ يرويه أبو هريرة ﷺ يقول رسول الله ﷺ: "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ"(٥٦)، ففي هذا الحديث نرى الجمع بين الترغيب والترهيب.

أجل، بينما يذكُر اللهُ تصرُّفاته العموميَّة في الكون بذكر اسمه "ربّ العالمين" يذكُرُ أيضًا تصرُّفَهُ الخصوصيّ في الإنسان وأنّهُ لم يهملْه أبدًا؛ كذلك حينما يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/١٠٤) ويتحدَّثُ عن طيّه للسماوات مثل صحائف الكتب؛ يذكر تصرُّفَهُ الخصوصيّ بقوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (سورة الأَنْفَالِ: ٨/٢٤) وقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق: ٥٠/١٦).

فهو ﷻ، بذكره ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة يكون قد بَعث الأُنسَ والطمأنينةَ في قلب العبد الذي أحسَّ بالرهبة والرعب عندما قرعَ سمعَه لفظُ الجلالة واستَحضر تصرُّفاتِ الذات المستجمِعة لجميع الصفات الكماليّة، فكأنه يهمسُ بهذين الاسمين في أذن الإنسان المعاني التالية:

لا تَخَفْ إلى هذا الحدّ، فالأمرُ أساسُهُ مبنيٌّ على الرحمة؛ فهو قد خلَقَكُم برحمتِهِ، وأعدَّ لكم كلَّ متطلَّباتِ حياتِكم، ولكن الدنيا لن تُشْبِعَ رغباتكم، واللهُ أعدَّ لكم في الجنَّة مشاهدةَ "جمالٍ باقٍ سرمديّ"، فهو برحمتِهِ سيُيَسِّرُ لكم هذا أيضًا، فما أقدسَ وأبجلَ هاتين الكلمتين اللتين تبعثان في صدر الإنسان بردًا وفي فؤاده أُنسًا بعدما كان يعيش حالةً يعاني

(٥٦) صحيح مسلم، التوبة، ٢٣؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٩٩.

فيها من الوحشة والوحدةِ، وكم هو من الضروري ذكرُ هذين اللفظين بعد لفظَي: "الله" و"رب العالمين".

وأكثر ما تتجلَّى رحمة الله تعالى ناصعةً جليّةً، في الحالات التي يفرِّج فيها فارجُ الهمِّ وكاشِفُ الغمِّ عن المهمومين والمغمومين الذين تعرضوا للبلايا والآفات والمصائب فانكسف بالُهم وكُسِرَ خاطرُهم وخارت قواهم، فيقدِّم لهم ما فيه خيرُهم وصلاحُهم، فالذي يعبِّرُ عن هذه الكيفيّة هو: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

### ب. معنى رحمانيّة الله ورحيميَّتِه

إن كلمتَيْ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ تحملان في طبيعتِهما "رقَّةَ القلبِ" و"ميلَ النفس"؛ بمعنى أن الذي يتَّصِفُ بالرحمة يكون لديه رقّةٌ في القلب وميلٌ في النفس تجاه من يحتاجون للرحمة، فهذه الرقَّةُ والميلُ هي التي تبعثُ الراحمَ وتسوقُهُ إلى التفكيرِ في المبادرة نحو هؤلاء المحتاجين، ومن هنا فإن بعض العلماء لم يرَ من اللائق نسبةَ رقَّةِ القلبِ وميلِ النفس إلى الله ﷻ، وفَسَّر الرحمةَ بما يؤولُ إليه هذا الأمر وقال بأنها: "إرادةُ الله تعالى الخيرَ في حقِّ الخلقِ"، باعتبار أنها سببٌ باعثٌ على الإنعام، ولنتناول المسألةَ بشيءٍ من التفصيل:

إن ما نتَّصِفُ به -نحنُ البشر- من الرحمة يظهرُ على شكلِ الإشفاق على الآخر وميل النفس؛ فحينما نرى شخصًا مهيضَ الجناح مظلومًا حزينًا مكدَّرًا فإن قلوبَنا ترقّ له ونميلُ نحوه عفويًّا دون تكلُّفٍ أو إرادة، فمن هنا رأى بعضُ المفسِّرين أنّه ليسَ من المناسِبِ نسبةُ مثل هذه الحالة إلى الله ﷻ، إذ رأوا فيها نوعًا من الضَّعْفِ، فقالوا: إن المرادَ هو لازمُ ميلِ النفسِ، إذ ميلُ النفسِ يستلزمُ "إرادة الخير" التي هي أساس "الإنعام"؛ فـ"الرحمن الرحيم" يعني: "الذي يريد الخير والإحسان في حقِّ الخلقِ".

ولكن هذا التوجيه يقتضي منا التأويل بالطريقة نفسِها في سائر الصفات الإلهية؛ فمثلًا إن لله صفتَي "السَّمع" و"البَصَر" ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشُّورَى: ٤٢/١١)؛ والحال أن الإبصار والسمعَ يتحقَّقان عن طريق بعضِ الوسائط، فلا يليقُ أيضًا إسنادُهما إلى الله ﷻ، فإبصارُنا نحن يتحقَّقُ بواسطةِ العينينِ وبمساعدة أشعَّةِ الشمسِ وفي مسافةٍ معيَّنَةٍ، وهناك أشياء نُبصِرُها وأشياء لا نبصرها، وكذلك الحال في سمعِنا؛ فهو إنما يتحقَّقُ مرتبِطًا ببعضِ الأسباب، فإذا تناوَلْنا الأمرَ بهذا الشكل فلا يجوزُ إسنادُ السَّمْعِ والبَصَرِ إلى الله ﷻ.

إذا تناولنا الأمر على هذه الشاكلة نُضطرّ إلى حملِ كثيرٍ من أسماء الله الحسنى على المجاز، وهذا يؤدِّي إلى نوعٍ من التكلُّفِ مما يستلزِمُ تأويلَ ألفِ اسمٍ واسمٍ من أسمائِهِ تعالى، بل إننا نقول: ففي مقابل ما لدينا من الميلِ النفسيّ ورِقَّةِ القلبِ توجدُ لديه تعالى هذه المعاني في قداسَتِها ونزاهَتِها؛ وسمعُه وبصرُه أيضًا مختلفان تمامًا عمَّا لدينا، ولذلك حينما نقول: "الرحمن، الرحيم، المؤمن، المهيمن، الرزاق"... إلخ؛ فإننا نقول: إن المقصود حقيقة هذه المعاني عند الله تعالى مقدَّسةً منزّهةً عن النقائصِ والمستحيلاتِ في حقِّهِ تعالى، بعيدةً عن صفاتِ الحدوث وحالِ المخلوقات.

### ج. ألطافٌ تتجلَّى في أفقِ الرحمانيّة والرحيميّة

إن الله تعالى يخلقُ الأشياء من العَدَمِ، فيأتي بها إلى ساحة الوجود، وكأنه يقول: سواء شئتم أم أبيتم، إنني أُوجِدُكم برحمانيّتي وأُديمُ وجودَكم وحياتَكم بالأمور التي لا بدَّ لكم منها، ثم إني برحيميَّتي أمنحُكم الإرادةَ حتى أُظهِرَ كمالَ رحمانيَّتي، وسأُجازيكم في الآخرة على حسبِ استخدامِكم لإرادتكم، وأنتم باستعمالِكم لإرادتكم ستتهيَّؤون للاستفادة

مـن نِعَـمِ الآخرة، بشـرط أن لا تتَّبعـوا أهواءكم وغرائزَكـم ولا تُخرِجُوها خارجَ إطارِ رضايَ، وإلا فاعلموا أنَّ جزاءكم هنالك سيكون شديدًا.

فـالله تعالـى حينما يُعرِّفنـا بذاتِهِ بأنـه: الرحمن الرحيم، فنحـن بِدَورِنَا نسـتنبطُ مِن وراء الرحمانية والرحيمية معانيَ شـتى، ولنوضّـح هذا بمثال: لنتصـوَّرْ أن هنـاك قصـرًا فخمًا في غايـة الروعة والجمـال، وأن في ذلك القصـرِ أنواعًـا مختلفـةً مـن الكائنـات يتنزَّهـون ويتجوَّلـون فـي أرجائِهِ؛ وبالمقابل هناك مَن يسـتقبل الضيوف يسـتضيفُهم ويُكْرِمُهم باسم صاحب القصر وبالنيابة عنه، وهذا الشـخصُ قد زُيِّن من رأسِـهِ إلى أخمصِ قدميه بشـتى أنواع الشارات والميداليَّات، بحيثُ إن لسـانَ حالِهِ يُفصحُ إفصاحًا بيّنًا بأنه أعزّ موجودٍ لدى صاحب القصر، فحيثما حلَّ وارتحلَ يَلقى حسنَ الترحيـبِ والاسـتقبالِ، ويبادِرُ كلُّ من يقابلُه إلى تلبيـةِ أوامرِهِ على الفور، وإلى الانحناءِ لهُ في احترام بالـغٍ، وحينذاك نعرف أنه هو الأعزُّ والأشرفُ وذو المكانـة الأكبر لدى صاحـب القصر، وأنّه هو أكثر من يحظَى برحمةِ صاحبِ القصر وشفقتِهِ...

فكذلك الكونُ بمثابة قصرٍ مهيبٍ مزيَّنٍ، والإنسـان هو أكرمُ وأشـرفُ مـا فـي ذلك القصر، وأكثرُ من حاز رحمانيَّـة الله ورحيميَّتَهُ على أتمّ وجهٍ، فليس هو شجرًا أو بهيمةً تَرعى هنا وهناك، بل ارتُقِي به إلى مستوى عالٍ، وحُوبِيَ بأنواعٍ وأنواعٍ من المحاسن فوق سائر الموجودات.

فهـل مـن اللائق الآن، بعدَ كلِّ هذا الكَمِّ من الحَظواتِ أن يذهبَ هذا الإنسـانُ فيشـتغلَ بأمورٍ لا تليقُ بشـخصيَّتِهِ ولا تتناسبُ مـع ما أُسدِيَ إليه من الألطافِ!! فلا يهتمَّ بما يحمِلُه من الميداليَّات، ولا يباليَ بكونه تحت أنظـار صاحـب القصـر، بل على العكـس إنه إذا تصـرَّفَ هكذا فـإن أوَّلَ ما يتبادَرُ إلى أذهانِنا: أن هذا الشـخص الذي لا يأبه بهذه النعم الجسـيمة ويشتغلُ بمثل هذه التفاهات لا بدَّ وأن يَلقى عقابَهُ.

ونحـن بهـذا المثال أردنا أن نبين مدى عدم التناسُـبِ بين ما قد حازَهُ الإنسـان مـن الألطافِ في ظـلِّ رحمانيَّةِ الله ورحيميَّتِهِ وبيـن ما يقترفُهُ من الأخطـاء، وكيـف أن الله يتَّخِـذُ الإنسـانَ مخاطَبًا في حين أنـه لا يُقيِّم هذا الالتفاتَ والتوجُّهَ ولا يقدرهما حقَّ قدرِهما.

وفي حديث قدسيّ يرويه أبو هريرة ﷺ تُذْكر المناسبةُ والمقاسمة بين الله وعبده؛ يقول ربُّنا تبارك وتعالى:

**"قَسَـمْتُ الصَّـلَاةَ بَيْنِـي وَبَيْنَ عَبْـدِي نِصْفَيْـنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَـأَلَ، فَإِذَا قَـالَ الْعَبْـدُ: ﴿الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَـالَ اللهُ تَعَالَـى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَـالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَـالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِـكِ يَـوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَـرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَـأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ"**(٥٧).

فالذي ينبغي لنا نحن باعتبارِنا "عِباد الله" أن نستحضِرَ بين يدي الله هذه المقاسَـمَةَ، ونُدْرِكَ تكاليفَنا ومسؤوليَّاتِنا إزاءَ ما حبانا به "الرحمنُ الرحيم" من التزيينات وألْبَسَـنَا من الخِلع، وما قلَّدَنـا من الحِلَى والجواهر، وعلَّقَ علينا من الشارات والأوسمة، وجعلنا مثل الملوك.

### د. نعمةُ "الإرادة" التي تُشْرِقُ من بُرج الرحمانيّة والرحيميّة

إن الله تعالى أنعم علينا بآلاف من ألطافه وإحساناته، وأكبرُ هذه النعم وأعظمُهـا وأُولاهـا هـو أنْ خَلَقَنـا من العدم وأتـى بنا إلى عالـم الوجود، ثـم حوَّل وجهتَنـا من "الفاني" إلى "الباقي"، ومـن "الكثرةِ" إلى "الوحدة"،

(٥٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٣٨؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٣١.

وأخذَ بأيدينا من عالمٍ نكادُ نغرقُ فيه وجعلَنا في دائرة "الوحدةِ" متوجّهين نحو منازل السعادة، ووَلَّى وجوهَنا شطرَ العالم الذي منه قَدِمْنا، وشَرَحَ صدورنا بسرِّ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥٦/٢). نعم، إننا من الله، وسنرجع إلى الله، وهكذا سنحظى بالبقاء، وسنحوز الأبدية ثم نحظى بالسعادة السرمدية، فهو ﷻ هكذا أشعرَنا بلُطْفِهِ وكَرَمِهِ، فجَعل قلوبَنا مطمئنَّة، فنحن مستمتِعون بهذه الألطاف ومتشرِّفون بهذا الشرف في هذه الدنيا التي يختلطُ فيها الخيرُ بالشَّرِّ، والضلالةُ بالهداية، والكفرُ بالإيمان، والشيطانُ بالملك، وأعوانُ الشيطان بأصحاب الأنبياء، وله تعالى نِعَمٌ أخرى؛ إنه يوجِّه الأحداث ويُخرجُ مَن يريدُ اللطفَ به إلى ساحل السلامة ويجعلُه مسلِمًا ثم يُدخِلُه دار السلام، وقد مَنَحَنا اللهُ إرادةً مِن إرادته حتى ننجح في هذه الأمور ونستطيع النهوض بها، وبهذه الإرادة جَعَلَنا مرشحين للسعادةِ الأبدية.

وفي هذا المقام قد يسأل سائلٌ: إن الذي خلق كلَّ شيءٍ في الكون هو الله، والذي جعلَنا نُبْصِرُ ونسمع هو، والذي يخلق جميع أعمالنا هو، إذ يقول: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما معنى "إرادة الإنسان" إذًا؟ أفلا يُعتَبَر إسنادُ الإرادة إلى الإنسان اتخاذَ شريكٍ لله؟

الجواب: إن الإرادةَ منحَها الله الإنسانَ على أنها سلاحٌ ذو حدَّين، فإذا أُسيءَ استخدامُه قَتل صاحبَه، وهي بالفعل مناسِبةٌ لسوء الاستخدام كما لِحُسْنِهِ، فالله تعالى لَطَفَ بالإنسان فمنحَهُ الإرادة، ولكن الإنسان في كثير من الأحيان أساءَ استعمالها، فتجاوزَ حدودَه، ورأى نفسَه شريكًا لله، ومِن الذين انحرفوا في هذا المجال فرعون؛ حيث إنه مقابل ما قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ١٦/٢٦) نراه يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٢٤/٧٩)، فإنه لما رأى في كيانه الإرادة والقدرة على

التدخُّل في الأشياء تَصوَّر في نفسه شراكة لله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فناهَض الله كأنه شريك له ﷻ، والحال أنه ليس في الكون موضعٌ للشِّرك ولو مثقال ذرة، والوجودُ بأكملِه إنما هو تجلٍّ لـ"الوحدة"، ولو لم تكن وحدةٌ لَانْعَدَم كلُّ شيءٍ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢٢/٢١)، فالأرض والسماء في نظامٍ وانتظامٍ، وهذا يعني أنه ليس هناك شريك للخالق ﷻ بأيِّ حالٍ من الأحوال.

وأما ما أُوتينا من"الإرادة" فالذي يُتوصل إليه باستعمالها هو "الكَسْب" فقط وليس "الخَلْق"، ولكنه تعالى قد وعدَ بأنه سيُثيبُ أو يعاقِب على حسب استعمالنا لها، فقال: "إنني أمنحُك في ظلِّ إرادتي وحاكميّتي ومالكيّتي شيئًا جزئيًّا وبشكلٍ مؤقَّتٍ، إن أسأتَ استخدامَه فإني سآخُذك في الدار الآخرة أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ وسَأُعاقبُكَ على ذلك، ولو كنتَ تظنُّ أنك تتصرَّفُ اليوم بإرادتك الحرّة، فإني أنا المالك الحقيقي لذلك اليوم، وسأحاسبُك عليها".

فالله تعالى، ضِمْنَ هذه الموازين وهذه المقاسمةِ لم يعطِ البشرَ حقَّ التدخل في الأمور التي سيخلُقُها إلا بمقدار ما يشبه لمْسَ الزرِّ الكهربائي، وأما أمرُ خلقِ الأحداث فله هو ﷻ، والإرادة التي منحها الإنسانَ ليست إلا تجلّيًا من تجلّياتِ رحمتِهِ ﷻ.

## آيةُ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إنَّ الأسلوبَ القرآنيَّ ليتمتَّعُ بالانسجام والتناسقِ في أبهى صوره، حيث إنه ذَكر في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مِن مسؤولياتنا نحن بني الإنسان، على طريق الرمز والإشارة، وفي هذه الآية يذكره في غاية الصراحة، فأُعقبت الآيةُ السابقة مباشرةً بما يفسِّر ويجَلّي ما خفي فيها من الجوانب.

إنه هو "الله"، وهو "رب العالمين"، وهو "الرحمن الرحيم"، وإنه سيجازيكم حسب استخدامكم لما منحكم من "الإرادة"؛ لأنه المالك الوحيد لـ"يوم الدين".

و"يومُ الدين" يعني يوم الجزاء والحساب، إنه اليوم الذي سيلقى فيه الخيرُ والشرُّ جزاءَه، ففي ذلك اليوم سيُنفخ في الصور، وسيكون الحشرُ والنشور، وسيؤتَى الناسُ صحائفَ أعمالهم، ومِن بعد ذلك سيَلقَى الأبرارُ ثواب حسناتهم والأشرارُ عقابَ سيئاتهم.

إن الله ربُّ العالمين، هو المعبود المطلق والمعبود بالاستحقاق، فلا يُعبد سواه، وهو الرحمن الرحيم، أَرسَل الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ، وهَدى إلى سبيله، وكل هذه الأمور تقتضي يومَ الجزاء، ذلك اليوم الذي سيتجلى الله فيه برحمته وقهره، وسيعاقَب فيه الظالمُ ويكافأ فيه المظلوم، سيَحظى المحتاجون إلى الرحمة بالرحمة، في حين أن الذين فَقدوا هذا الحقَّ سيَلقون العذاب، وكل النعم التي تَظهر وتتموَّجُ باعتبارها تجلِّياتٍ للرحمة الإلهية، مع أنها مُعرَّضة للانقطاع "في الدنيا" لكنها ستستمرُّ

في الآخرة بمقتضى عنوان "رب العالمين" و"الرحمن الرحيم"، وإن الفراعنة والشدّادين والظالمين وكلّ من يدَّعون "المالكيّة" في هذه الدنيا سيَمْثُلون أمام الله في ذلك اليوم خاضعين؛ في حين أن الذين أطاعوا أوامرَ ربّهم في دار الدنيا سيدخلون دار السلام بين يدَي "مالك يوم الدين"، إن الله يقول في الحديث القدسي: "**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٥٨).

وإذا نظَرْنا إلى الأسسِ الإيمانيَّةِ ضمن هذه المعادلة والموازنَةِ فسنرى كَم أنها ملائمة للفطرة الإنسانية وسنشاهد كَم أن الأركان الإيمانية متلازمةٌ فيما بينها، وأن بعضَها يقتضي البعض الآخَر.

### أ. القيامة: اليوم الذي يقوم فيه كلّ شيءٍ

إن يوم القيامة هو ذلك اليوم الذي سيقوم فيه كلُّ شيء، وسيكون الإنسانُ أيضًا في ذلك اليوم قائمًا -بأعماله ومشاعره- بحمده وثنائه أو بطغيانه وضلاله؛ بشكره وشكرانه أو كفره وكفرانِه، وسيظل ثناؤه لله ﷻ قائمًا، وفي ذلك اليوم الذي سيقوم فيه كلُّ شيء فإن الله -بعظمته وجلاله- سيقوم بحساب الخلق في عظمتِهِ الظاهرة الجليةِ، والقرآنُ العظيم يتحدَّثُ عن هذا بقوله: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ (سورة الفَاتِحَة: ١/٤).

قال هنا: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ مع أن الله ﷻ مالك المُلكِ كلِّهِ وليس يوم الدين فقط، إنه مالك كلِّ شيءٍ وبيده ملكوت كل شيء حقًّا، ولم يكن له شريكٌ في الملك صِدقًا، وفي ذلك اليوم الخاصّ المهيب سيَرى الكلُّ بجلاءٍ ووضوحٍ مَن هو الربُّ ومن هو المالك ومن هو الخالق...

(٥٨) ابن حبان: **الصحيح**، ٢/٤٠٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢/٢٢٣.

هنا وردت كلمة "يوم": إنّ عمر الإنسان "يوم"، وأعمار الملل والجماعات "يوم"، وعمر الدنيا "يوم"... وثمَّةَ يوم آخَر يُقابِلُ الدنيا بأكملِها وهو: "اليوم الآخِر"؛ فالدنيا يوم والآخرة يوم، فإن الدنيا والآخرة ليستا في جنب سلطنةِ الله العظيمة إلا عبارة عن يومين اثنين، فكل الأزمنة بالنسبة لهذه السلطنة طرفةُ عينٍ، تمضي سريعًا، إلّا أن الله تعالى منزَّهٌ عن أن يمرَّ عليه زمان.

نعم، إن البشريَّةَ تُحاسَب على "يومها" بعدما تقضيه، وكذلك الدنيا إذا قضَتْ يومَها فإنها ستُحْرِزُ موقِعَهَا اللائقَ بها هناك، وستُستَخدم بكلِّ ذرَّاتها في بناء العالم السرمديّ.

أجل، ذكرنا آنفًا أنَّ لكَ ولعالَمِكَ، وعالَمِ أمَّتِكَ وعالمِ جميع المخلوقات، ولكل العوالم الخصوصِيَّةِ والعموميَّةِ "يومٌ"، وحصيلةُ كلِّ هذه الأيام ستُبسَطُ أمام الأنظارِ على شكلِ لطفِ الله وقهرِهِ في ذلك اليوم الذي عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ (سورة الطَّارِق: ٨٦/٩)، فذلك اليومُ هو ما سماه الله: "يوم الدين".

### ب. يومُ الدين: يومُ يَظهر الدينُ

إن مِن معاني "يوم الدين" هو: اليوم الذي تظهرُ فيه حقيقة ما أتى به الدين؛ فنحن في حقيقة الأمر نؤمن بالله وملائكتِهِ وكُتبِهِ ورُسلِهِ واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، ونعتقِدُ بفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج، إلى غير ذلك بفرائض الدين وشرائعه، فكل هذه الأمور التي نؤمن بها ستظهر في ذلك اليوم على حقيقتِها، وفي ذلك اليوم سنرى ونشاهدُ اللهَ ﷻ، وسنرى النبيَّ ﷺ فنترجَّى منه الشفاعة، وسنرى الملائكة وهم صافّون حافّون من حول العرش، وسنشاهِدُ السماءَ وهي تتشقَّقُ وترتجفُ بنزول الملائكة، سنرى ذلك اليوم الذي سيظهر فيه ما أتى به

الديـن بأكملِـهِ، وما سـطرته أقلام القدَرِ، وسـنرى أقدارَنا نحن، وسـتظهر للعيـان مشـاعرُنا وأحاسـيس قلوبِنا، وسـنرى صلواتِنا، وصيامَنـا؛ جُوعَنا وخَلوفَ أفواهنا؛ بل ما يُعبِّر عنه هذا الخلوفُ، وكيف أن الله تعالى يَرضى به ويحبُّه، وباختصار: سنرى وسنعاين كلَّ ما ذُكر لنا في الدنيا عن الآخرة.

نعـم، إن كل الحقائـق التي ورد ذكرُها فـي الآيات والأحاديث النبويَّةِ من أمورِ الدين، ستظهر في ذلك اليوم بكلِّ جلاءٍ ووضوحٍ، بدءًا من أصغر الأمور وانتهاءًا بحقيقة "الألوهيّة" التي هي أكبر الحقائق.

### ج. الدينُ والتديُّنُ

إن الدينَ وضـعٌ إلهيٌّ، ونظامٌ وضعه الله تعالى، وأصلُه ومعناهُ وماهيَّتُه عنـده تعالـى، وكما أنه يظهرُ هنا في الدينا سـيظهر هناك في الآخرة أيضًا، والدِّيـنُ -كمـا عرَّفه بعـضُ العلماء-: "وَضْـعٌ إلهيٌّ سـائقٌ لـذوي العقول باختيارهـم المحمود إلى الخير بالذات"، فالديـن قانونُ الله، ويُطلَقُ عليه: "الشـريعة"، فـ(الدين - الشـريعة - الإسلام) مجموعةٌ من القوانين الإلهية، والديـن يسـوق النـاس إلى الخيـر "بإرادتهم واختيارهم"، ولا يسـلُب من الناس إرادتهم، فالإنسان لم يُحبَسْ في حدود الفطرةِ مثل الجمادات التي قُيِّـدت في إطار نمطِ حياةٍ خاصٍّ بها، إنه مُنح "الإرادة والاختيار"، فأُطلق عنانه وأُعطِيَ "الحريةَ" في الاختيار بين الخير والشر.

ومَـن أمعـنَ النظرَ فسـيلاحِظُ فـي هذا التعريـفِ أن الدينَ سـائقٌ إلى الخير، فلا بد لتسمية أمرٍ مَا "دينًا" أن يكون بِيَدِ من يستطيـع أن يَسُوق إلى الخيـر، ويجعلَنـا نحصلُ على النتائج التي يَعِدُنـا بها، وأن يعطيَنا ما ينبغي إعطاؤُه بحيث يُشبِـعُ كلَّ مشاعِرِنا وأحاسيسنا بالإضافة إلى تلبيةِ متطلَّباتِنا العقليّة والقلبيّة.

ولذلك نقول: إن الذين أرادوا وحاولوا أن يَسُوسُوا البشريَّةَ بمجرَّدِ "الضمير"؛ قد انحرفوا بها إلى سبلٍ ضالَّةٍ بدلًا من هدايتِها وسَوقِها إلى الصراط المستقيم؛ لأنهم وضعوا أمامها عديدًا من السبل بعددِ الضمائر.

والعقلانيُّون الذين يقولون: "إن العقلَ يَحُلُّ كلَّ القضايا"، قد انطلقوا بالعقل فقط من دون أن يُدرِكوا حقيقة القلب والروح ويَنفُذوا إلى أعماق الإنسان، فتعثَّروا وانقطعت بهم السبل، ولم يَحُلُّوا أية قضية، والحقيقة أن العقل ليس إلا آلة لفهمِ الدين الذي هو "وضعٌ إلهيٌّ"؛ فالعقلُ مهمَّتُه أن يَفهم الدينَ والقوانين الإلهيَّة حتى يصلَ إلى التديُّن المكنونِ في روح الدين، ولقد كُلِّف البشر بأن يحصلوا على التديُّنِ بعقولهم وتصرُّفاتهم الإراديَّة أي بِكَسبِهم، والواقعُ أنه ليس لِدين أن يعيشَ من دون تديُّنٍ، كما أنه ما كان لتديُّن أن يقوم ويستمرَّ من دون دِين، فالدين والتديُّنُ وجهان لحقيقةٍ عظمى، فالدين قانونُ الله وشريعتُه، أما التديُّن فهو كسبٌ بشريٌّ يتمثَّل في جعل الدين روحًا للحياة.

الإنسانُ لا يكون متديِّنًا إلا بمقدار ما يجعل الدين روحًا لحياته، وبمقدار ما يجعل مبادئَ الدين ودساتيرَه غايةَ حياته وهدفَها، وإذا كان يؤمِنُ ويعتقدُ بأن ما يعمله حقٌّ وصدقٌ ولا يلتمسُ مِن وراء ذلك إلا رضا الله تعالى؛ فلن يذهبَ أيُّ شيءٍ مما يعمله باسم الدين سدى؛ ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَة: ٩٩/٧-٨)، ولكن الإنسانَ إذا توخَّى مِن وراءِ عملِهِ منفعةً عاجلةً، فذلك يدلُّ على عدمِ إخلاصِهِ، ولِعدمِ إخلاصه لا يحظى بالقَبول الحَسن عند الله ﷻ، فتُضرَب عبادتُه وعملُه في وجهه، إن الغايةَ والهدفَ الوحيد من العبودية لله والتديُّنِ له ﷻ إنما هو تلبية "أمر الله"، بمعنى أن الإنسانَ عليه أن يتديَّنَ لمجرَّدِ أن الله أمره بذلك، ويبتغي -في نهاية المطاف- رضا الله تعالى ولا يرجو

منفعـةً أخرى، وفي هـذه الطريق التي يبتغي العبدُ فيها رِضَا الله تعالى فقط يأمـلُ العبدُ ويتطلَّـعُ إلـى أن يُحصِّلَ في الآخرةِ ثمراتِ الأعمالِ التي وفَّقَهُ الله إلى القيام بها في الدنيا، ومِن هذا المنطلق يمكن القول: إن التديُّنَ هو: تنفيذ ما أمر الله به، لتحصيلِ مرضاته هو، وابتغاء الثمرةِ والنتيجةِ منه ﷻ.

**د. كلمة: ﴿مَالِكِ﴾**

كلمة "مَالِك" قرأها هكذا من القُرّاء السبعة عاصمٌ والكسائيُّ، والباقون قرؤوهـا: "مَلِـك"، المالكُ هو مَن يملك شـيئًا مطلقًا، أمـا المَلِكُ فهو مَن يملـك الحُكمَ، وهو رئيس الدولة وحاكمُهـا ومدبرها ومن يُعِدُّ لها العُدَّةَ، ويُسيِّر أمورَها ويديرها.

والله ﷻ يَذكـر -حسـب اختـلاف القـراءات- في آيةٍ واحـدة المَلِكَ والمالـك معًـا؛ فإنـه لولا المَلِك لما كان هنـاك لا مالكٌ ولا مِلك، فلا بد أوّلًا من مَلِكٍ ينظِّمُ أمورَ دولَتِهِ وشعبِهِ، ويقسِّم الحقوق المعينة بين الأفراد ويعيّنها ليمتلك كلُّ ذي حقٍّ حقَّه ويصبح مالكًا لذلك الحقِّ الذي تَملَّكَه، ورئيـسُ الدولـة هذا، فـي حين أنه مَلِكٌ هـو في الوقت ذاتـه مالكٌ لذلك الملْـك، وكلُّ فـردٍ من الأفراد الآخرين مالكٌ باعتبـار أنه صاحبٌ لحصَّتِهِ وممتلكٌ لعينِها.

ولا بـدَّ هنـا مـن التنبُّه إلى أمرٍ في غاية الدِّقَّـة، وهو أن الله ﷻ في هذه الآية يعيّن نظام الدولة التي سيؤسِّسُها الإنسانُ باعتبارِهِ خليفةً لله على وجه الأرض، ويضـعُ أُسُسَ هذا النظام.

والحقيقـة هي أن تأسـيسَ الدولـة عبارةٌ عن تَظاهُرِ عنـوانِ "المالكية" (بالمعنَيَين السابقين) التي أعطاها الله الإنسانَ وديعةً.

فـإذا أُسـنِدت الدولـةُ إلى أسـاس "المالكية" فقـط، فَسَـيَنْتُج من هذا "الليبراليّةُ"، والأساسُ في هذا النظام هو الفردُ والحقوقُ الفردية، في حين أنـه فـي نظام الدولـة التي يريدها الله تعالى والذي أشـار إليه في هذه الآية تُوجَّـه الأنظارُ إلـى "المالكية" من جانبٍ، وإلى "المَلِكية" من جانب آخر؛ فيوصَى بأنْ تؤسَّس قواعدُ الدولة وتُرسَى على هذين الأساسين.

ففـي البـلاد التي تؤخَذُ فيها مصالـحُ الدولةِ فقط بعين الاعتبار تُغصَب حقـوق الفـرد، فلا يَسـعد برغد العيش إلا ثلّة قليلـة ممن هم في الطبقات العليـا مـن الدولـة، ويصبح مـن سـواهم مفلوجين مغلوبيـن على أمرهم تعسـاء، أما في الأنظمة التي يؤخذ فيها الأفرادُ فقط بعين الاعتبار فالدولة تصبحُ مشـلولةً؛ لأن في مجتمعٍ كهذا من حيث إنه يتوخَّى "اللامركزية"، فـإن الدولة لا تصبح إلا بمثابة جسـمٍ قُطِّعت أعضـاؤه، إن النظام المثالي يجمـع بين هذين الأمرين ليحصل الرؤسـاء والمرؤوسـون على حقوقهم بأكملِ وجهٍ.

فإن الله ﷻ بقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يتحدث لنا عن مشـاعر "التملك" التـي أودعهـا فينـا وأعطانا إياها مِـن مالكيَّته هو، وعما مَنَح الإنسـانَ من صلاحيتـه لإقامـة الدولة، وعن أسُـس الدولة ومبادئهـا... ويَلفت أنظارَنا إلى أمرٍ آخر، وكأنه يقول لنا: تُمنح لكم في الدنيا مالكيَّة "نسـبيّة"، ولكن الملـك فـي الآخرة سـيكون بتمامه لله تعالـى، ولذلك فعليكـم أن تبحثوا عن وسائل لتحويل ما تملكون إلى ملك خالد.

إن الملـك لله، والذيـن يرثونـه هم عبـاده الصالحون، فكمـا أن الأمر هكـذا فـي الحقوق الفردية فكذلك فـي قوانين الـدول والقوانين الدولية، ولذلـك فرض الإسـلامُ "إعـلاء كلمة الله" في الأرض حتـى يبلُـغ دينُ الله إلى كلِّ الناس.

والإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، يتصرَّفُ على وجهِ الأرض نيابةً عن الله تعالى، وبهذا التصرف التي يُجرى باسمه ﷻ تتحقَّقُ العدالة والنظام.

**هـ. إن الله هو المالكُ الوحيدُ ليوم الدين**

وهناك أمر آخر يمكن أن نفهمَهُ من هذه الآية وهو: أن مالكَ يوم الدين هو الله ﷻ، فمالكيَّةُ سائر المالِكِين أمرٌ نسبيٌّ مؤقَّتٌ، وهي وديعةٌ أودَعَها الله لهم، وكأن الله تعالى، بإشارة من هذه الآية يقول: "أيها الفراعنة والنماردة والذين يعيشون مختالين فخورين قائلين: أنا المالك أو أنا المَلِك، أيها السلاطين والأمراء والرؤساء والملوك! سيأتي عليكم يومٌ يزولُ فيه هذا المُلكُ من أيديكم، فأنا المالك الوحيد لذلك اليوم الذي ستنجلي فيه الحقيقة العظمى التي تتحدَّثُ عنها آيةُ: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ (سورة غَافِر: ١٦/٤٠)، فانظروا -وأنتم تمارسون الحُكمَ- من جانبٍ إلى مُلكِكُمْ أنتم، ومن جانبٍ آخرَ إلى مُلك ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، فإذا قلَّبتم أنظاركم وتوجَّهتم بها -بين الحين والآخر- أثناء تصرُّفِكم في دائرةِ ملكِكُم الصغيرة، إلى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ فستكسبون حقَّ الإدارة في صلاح واستقامة، وإلا فإذا اعتمدْتم على مالكيَّتِكم فستذهبُ حياتُكم هباءً منثورًا، ويذهب ملكُكم أدراج الرياح، ويسوء مصيركم، ويؤول إلى تعاسةٍ وشقاء.

وأما إذا لم تعتمدوا على مالكيَّتِكم واتَّكلتُم على مُلكِ الله؛ ففي ذلك اليوم الذي سيُنزَع مُلكُكُم ومالكيَّتُكُم ومَلِكيَّتُكُم من أيديكم سيتجلى الله باسمَيهِ: الرحمن والرحيم، ويضعُ ذلك الملك في ضمن الرحمانيّة والرحيميّة، ويمنحكم سلطنةً ومُلكًا لا ينتهيان ولا يتزعزعان.

والله ﷻ بهذه الآيات الكريمة يريد منا التوجُّهَ إليه ﷻ، ويقول لنا: إن كنتم تريدون أن تَحمَدوا أحدًا فعليكم أن تَحمَدوني أنا؛ لأنني أنا الله رب

العالمين، وأنا -فقط- صاحب الجمال والكمال في ذاته، وإذا كان لديكم في مستقبل أمركم أيُّ مطلبٍ وحاجةٍ وَوَطَرٍ لدى أحدٍ فاطلبوه مني أنا؛ لأنني أنا الذي أتجلّى باسم: "الرحمن الرحيم"، وكذا إن كان لديكم أيُّ تخوُّفٍ أو توجُّسٍ، أو تَحمِلون بين جوانحكم خوفًا من أن تُحاسَبوا حسابًا عسيرًا؛ فراجعوني أنا؛ لأنني "مالك يوم الدين"، وأنا الذي سأحاسبكم هناك.

وفي بداية سورة الفاتحة الشريفة بدأنا بالحمد والثناء لله؛ الذي جَعَلَنا مسلمِين، وجعلَنا من أمة محمد ﷺ، وربَطَنا بنبيّه ﷺ رَبْطًا وثيقًا وجعلَنا خيرَ أمَّةٍ، ووَجَّه قلوبَنا نحوه ﷻ، وبذلك حبانا بنعم كثيرة، ومِن بعد ذلك قلنا: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، وأَجَلْنا أنظارَنا -باعتبارِ أنَّنا عرفناه تعالى- في أنفُسِنا، وشاهَدنا ربوبيَّتَه في كلِّ شيءٍ، بدءًا من دورانِ وجولان الذرَّات التي تتشكَّلُ منها أجسامُنا وانتهاءً بحركات الأنظمة والمجرّات وسيرِها، وشاهَدْنا أنه يَسوق كلَّ شيءٍ سوقًا حثيثًا ويُلجئُها نحو الكمال، ورأينا أنه يحوِّل كلَّ شيءٍ إلى عناصر سيستعملها في بناء الجنة والنار، ولاحَظْنا أن كلَّ شيءٍ يتلقى تربيته.

نعم، إننا شاهدنا تصرُّفاته العظيمة هذه، ومِن بعد ذلك أدرَكنا أن الله الذي يدبّرُ كلَّ هذه الأحداث المطَّردة المتعاقبة في ديمومة وانتظامٍ؛ خلطَ هنا الخيرَ بالشرّ، وفسح المجالَ للجميل بجانب القبيح، وللإيمان بجانب الكفر، ولا بدَّ أنه سيخلق يومًا دارًا أخرى يميز فيها بين ذلك كلِّه، فذلك اليوم هو "يوم الدين"، وتلك الدار هي "الدار الآخرة" التي فيها "المحكمة الكبرى"، يومئذ تظهر الأعمال بخيرها وشرها، ويُكافأ المحسنون بباقات من الثواب، بينما يبحث المسيؤون عن مهربٍ من عاقبةِ إساءتِهم، فالله هو المالك الوحيد لـ"يوم الدين" هذا، ويَبرُز في ذلك اليوم الدينُ وحاكميةُ

الله ناصعًا جليًّا؛ فإنه لن يحكم فيه إلا هو، ولن يجازِي إلا هو، فينبغي لنا -ما دمنا على قيد الحياة- أن لا ندعو إلا إيّاه، وألا ننطق إلا باسْـمِهِ، ولا نتوجَّهَ إلى أحدٍ سواه.

# آيةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وبعد كلِّ هذا البحثِ الذي يدلُّنا على الحقِّ تعالى، نَمْثُلُ بين يديه؛ فكأن السورةَ من بدايَتِها إلى الآن هيَّأَتْنا للمُثول بين يديه، نَمْثُل بين يديه ونقدِّم عبوديَّتَنا له ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذه هي النقطةُ التي تَلفِتُ إليها مقولةُ: "الصلاةُ معراجُ المؤمن؛ فإنك تحلِّق وتصعدُ في الأعالي، وتتخطّى المكان، وتسمو إلى مقامٍ تقول فيه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث تجمعُ بين "الجَمْع" و"الفَرْق"، ويا لها من سعادة أن توفَّقَ للعروج باعتقادِك ويقينِك كلّ يومٍ خمس مرّات إلى مقامٍ عَرج إليه سلطان الأنبياء بِجِسْمِهِ وروحِهِ ليلةَ المعراج.

### أ. العِبادة - العُبوديّة - العُبُودة

﴿نَعْبُدُ﴾ فعلٌ مضارع للمتكلِّمِ مع الغير، يفيد حصولَ الفعل على سبيل التجدُّدِ، وهي مِن "عَبَدَ - يَعْبُدُ - عِبَادَةً وعُبُودِيَّةً وعُبُودَةً".

ومعنى "عَبَدَ": قام بالفعل بعزمٍ وتصميم، والعبودة: التواضعُ والخضوعُ، والعبودية: قيامُ العبد بالتعظيم والتبجيلِ لمولاه في نظامٍ معيَّن، والعبادة: أن تعبد الله ﷻ طبقًا لما أَمَر به، في خضوع وخشوعٍ؛ بمعنى أنك -أيها العابِدُ- تُمَرِّغُ وجهكَ بالأرض وتتذلَّلُ أمام الله في عزمٍ وتصميمٍ، وحرصٍ على عدم توليتِكَ وجهَكَ شطرَ أيِّ شيءٍ سواه، وتقدِّم له التعظيم والتبجيل في خشوع وخضوع بَالِغَيْن، ولكن ليس بطريقة عشوائية، بل في نظام وميزان تلقيتَه منه تعالى، تَفعلُ ذلك وأنت تستشعر كبرياءَه وعظمته،

وتُـدرِكُ مدى ضآلة حجمك وقـدرِك، فكأنك حينما تقـول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني: "يا ربَّنا! أنا العبد وأنت المولى، وأنا الرقيق وأنت السـيد، أنا الهائم المشرَّد في المتاهات، وأنت المولى المتعالي الذي يقول لي: "أما آن لك أن تأتيني؟"، فتستحضرُ هذه المعاني وأنت تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

**ب. العِبادة - الطاعة - القُربة**

والعبـادة في المصطلح الإسـلامي هـي: الطاعة التي تُقَـدَّم لله بقصدِ التقرُّب إليه تعالى، وبخالصِ النيّة، وعلى أمل الثواب منه تعالى.

وحينما تُطلَق العبادةُ فإن معنى الطاعة والقربةِ مندرجٌ فيها، ولكن في الوقـت ذاتِهِ لـكلٍّ من كلمات "العبادة" و"الطاعـة" و"القربة" معنى يختصّ بها:

فالطاعـةُ: فِعْـلُ ما يُثاب عليه، أي امتثالُ الأمـر، ولا يتَوقَّف على النيَّةِ ولا على معرفةِ مَن يُطاع.

والقربـة: فعـلُ ما يُثاب عليه، ولا يتوقَّف على النية ولكن يتوقَّف على معرفةِ مَن يُتقرَّب إليه.

وبهـذا الاعتبـار فالطاعة أعمُّ، والقربةُ أخـصُّ منها والعبادةُ أخصُّ من القربة، أي كلُّ عبادة قربةٌ وطاعةٌ في الوقت نفسـه، وليس كلُّ قربةٍ وطاعةٍ عبادةً.

ولنوضح هذا بمثال:

إنَّ تَفكُّر الإنسان في نفسه وفي الكون، أي إنّ تَفكُّره الآفاقيَّ والأنفسيَّ إذا تحقَّق منه من دون أن يَعرف مَن يجب عليه أن يَعرِفَهُ، فإن ذلك لا يُعد قربة ولا عبادة، لكنه طاعةٌ، فمثلًا: إننا نقوم بالبحث في الآفاق والأنفس، ونشـتغل بعلومٍ مثل الفيزيـاء والكيمياء والفلك وعلـم الأحياء، وفي أثناء

ذلك نرجع إلى أنفسنا ونخوض في التدقيقات الأنفسية، وبمثل هذه التدقيقات نكون قد خُضنا في تفكُّرٍ وتذكُّرٍ عميقَيْن، وذكرٍ وفكرٍ دقيقَيْن، ولكن مثل هذه النشاطات مع أنها نوعٌ من الطاعة لأمر الله تعالى، لكنَّها لا تُعَدُّ قربةً ولا عبادة، وإنما هي ليست عبادة؛ لأن القيام بمثل هذه الأعمال لا يحتاج إلى نية العبادة، وليست قربة؛ لأن المتفكِّرَ لا يَعرف بَعْدُ ذلكَ الكبيرَ المتعاليَ ﷻ، ففي مثل هذه الجادة النورانية إذا قلنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مستشعرين معانيها بكلِّ كيانِنا فإننا سنصل إلى الهدف، وأما قراءة القرآن، وإيتاءُ الصدقاتِ ونحوُها فإنها تُعَدُّ طاعةً وقربةً لأنها لا تحتاج إلى نيّةٍ، ولكنها لا تُعَدُّ عبادةً حسب المواصفات التي ذكرناها آنفًا.

فـ"العبادة" هي نوعٌ من الحركات المنتظِمة التي تتجلَّى في توجُّه الإنسان إلى الله بكلِّ كيانِهِ، وبجميع مشاعِرِهِ، وبكافَّةِ حواسِّه الظاهرةِ والباطنة، وبِمَلَكَاتِهِ الفكريّة، وعالمِهِ الحسّيّ، وبعقلِه ولسانِهِ.

فهذه النقاط التي ذكرناها هي من التفسيرات الواردة للعبادة في الإسلام، ونحن بدورنا حينما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنما نقصد بها هذه المعاني، إن العبادة اسمٌ لتوجُّه العبد إلى ربِّهِ بكلِّ تعظيم وتكريم، مع استحضاره لعجزِهِ وافتقارِهِ وضعفِه وحاجاتِهِ ولا شَيْئِيَّتِهِ، ومع العلم بأن كلَّ السعادة والحبورِ والرَّغَدِ والفرحِ هي في القرب منه ﷻ، ومن حيث إنه لا يمكن ولا يجوز تكريمُ غير الله بهذا النوع من التعظيم والتبجيل، فما يفعله الإنسانُ أمام غيره من الاحترام بالقول أو الفعل وسائر أنواع التبجيل لا يُسمَّى "عبادة"، فالعبادةُ حقٌّ خالصٌ له وخاصٌّ به ﷻ.

### ج. العبادة وروحُ الإنسان

وأما تحليلُ هذا الأمر من زاويةِ علمِ النفس فهو: أن نفسَ الإنسانِ تنزلُ بها الآلام والأكدارُ، كما تمرُّ بها الآمالُ والمسرَّات، والإنسان بطبيعتِهِ

يكـون -دائمًـا- مرتابًا تجاه الأمور التي تُخلِّف في نفسـه الأذى، فيحاول الابتعـادَ عنها؛ وهـو -بالمقابل- مولَـعٌ بالأمورِ التي تـؤدِّي إلى الملذَّات، فيظـلُّ متعلّقًـا بهـذه الأمور بأملٍ، ويتشـبَّثُ بهـا بحـرصٍ، وبطبيعة الحال يستقبلُ الأسبابَ المؤدِّيةَ إلى الأذى بكراهيةٍ ويكون متيقِّظًا تجاهها.

وهـذا يعني أن الإنسـان أمام نوعين من الأحداث؛ إنـه يَلقى أمورًا لا يفتأُ يطلبُها ويشتهيها ويلهثُ وراءَها ويَمُدُّ يديه نحوَها وينشرِحُ لها، وهناك أمـور أخرى يُعاني وينزعـجُ منها ويخافُها ويحاولُ الهروبَ منها، إنه بمثلِ هذا الخوفِ وما ينتجُ عنه من تهرُّبٍ، وبمثلِ تلك المحبَّة وما يسـتند إليها من أملٍ يحافِظُ على التوازنِ الذي هو مقتضى إنسـانيّته، وهذا التوازنُ من الأهمِّيَّـةِ بمكان، بحيث إنه إذا انقطـع الرجاءُ والأملُ من الفردِ والمجتمـعِ فإن اليأسَ سـيُطِلُّ برأسِـهِ، وسـيَخمدُ العزمُ على العملِ بالكلّيّة، وستنطفئُ جذوةُ النشـاطِ والحركيّة، فإذا فَقد الإنسانُ الأملَ قبـعَ الكسلُ واستفحلَت العطالـةُ في داخله، فحتى لا ينمحي الشـعور بالأمـل لا بدّ من عدمِ ذبولِ وردةِ المحبـة التي هي منبـع الأمل، بـل تظلَّ حيَّةً نابضة، وكذلك الخوف إذا انمحى من الفرد والمجتمـع فإن الفرد والأسرة والمجتمـع وكلَّ الأمة قاطبةً سـيبدؤون بمباشرةِ أعمالٍ غير محسوبة النتائج، وهذا الأمر سيؤدي إلى طغيان البشرية جمعاء.

ولذلـك فقـد تَزامَـنَ خَلـقُ الإحسـاسِ بالخـوفِ والمحبَّةِ مـع خلقِ الإنسان؛ حيث اندَرَجَ في ماهيَّةِ الإنسانِ شعورٌ بالمحبَّةِ، وهذا الشعورُ من السَّعَةِ بحيث يستوعبُ جميـعَ الكون، كما أنه وضـعَ في ماهيَّتِهِ الإحساسَ بالخوفِ بحيث إنه يَشـعُرُ بالرهبَةِ الشـديدة تجاه الأحداث التي تنتظِرُهُ أو التـي يتوهّـم أنها له بالمرصاد؛ فأحيانًا تتزعـزعُ أركانُ آمالِهِ كلِّيًّا جرَّاء هذا

الخـوف، بل إنه لَيَخَافُ من الانهـدامِ والاندحارِ كلِّيًّا، فتراه يَرهب وترتعد فرائصُهُ من المثولِ أمام الله تعالى هكذا مسودَّ الوجه صِفرَ اليدين.

هـذا الأمـر في حـدِّ ذاتِهِ لا بـدَّ منه لـدوام العدل والاسـتقامة، ولكن إذا أسـيءَ اسـتخدامُهُ فإنه يجعل الإنسـان يخافُ كلَّ شـيءٍ؛ من الزلازل والمذَنَّبـات ولَـدْغِ الحيات ولسـع العقارب، حتى مـن الميكروبات التي لا تُرى، وهذا الخوف من شـأنه أن يعكِّرَ صفوَ الإنسـانِ ويكدِّرَه في قابلِ حياته، لأنه يخاف أشياء لا تَعرِف الرأفةَ والرحمة؛ فمَن تعرض لهذا البلاء فلن يحظى بالسكينة والطمأنينة إلى أن يمحوَهُ من ذهنِهِ.

وأما فرطُ المحبَّةِ فهي أيضًا مصيبةٌ محفوفةٌ بالبلايا؛ فقد يميلُ الإنسان إلـى أمـورٍ ويتعلَّقُ قلبُهُ بأشـياء، ويلهـث -بكلِّ أملٍ- وراءَ أشـخاص، إلا أنهم لا يلتفتون إليه ويفارقونه من دون كلمةِ وداعٍ حتى. أجل، إن شبابَك وطاقتَـك وحيويَّتَـكَ سـتذهبُ عنك مـن دون أن توَدِّعَكَ، بل إن شـريكةَ حياتِكَ وأمَّكَ وأباكَ وأولادَكَ لا يودِّعونك حينما يذهبون إلى الآخرة.

أجـل، المحبَّـةُ أيضًـا قد تتحـوَّلُ إلى مصيبةٍ، فإذا أسـيءَ اسـتخدامُها عادت على الإنسـان بالويلات، قد يشـتدُّ ارتباطُ الإنسـانِ بما أحبَّهُ وعلَّقَ عليه آمالَه بحيث يكون عبدًا رقيقًا له، فيجعله هذا التعلُّقُ الشديدُ والمحبَّةُ البالغةُ أعمى وأصمّ، فلا يعير سمعًا لأيِّ شيءٍ يُقالُ ضدَّ محبوبِهِ، ولا يَرى ما سيتعرَّضُ له محبوبُهُ من الفناءِ والزوال.

فكلُّ أنواعِ الشـركِ وعبادةِ الأوثان واتّخاذ الشـركاء والأنداد لله تعالى قد نشأت من هذه المشاعر، فتحوَّلت الأشياءُ المحبوبةُ أو المرهوب منها إلى آلهةٍ تُعبَدُ.

نعـم، إن الحاجـةَ إلى الأمـنِ تجاهَ الأمور المخيفـةِ، ورجاءَ الحصول علـى إحرازِ الأمـور المحبوبة؛ قد أَنتجـت ركامًا من المعبـودات، فما إن يتعلّق القلبُ بالفانيات الزائلات حتى يكون الإنسان في الخسران؛ فإنه قد يتعلَّـقُ بمـا لا يَضمن له عدم الرحيل إلى العالم الآخر قبله، ولا يسـتطيع تحقيقَ ما عُقِدَ عليه مِن آمال.

كان رسـول الله ﷺ سـلطانًا للقلـوب ينبغي لكل أحـدٍ أن يرتبطَ به من أعمـاق قلبِـهِ؛ فقد كان كلُّ قلبٍ طاهرٍ برَّاقٍ يحبُّـهُ حبًّا جَمًّا، مـع ذلك فإن الذين فهموا جيّدًا ووعَوا أهـمِّـيَّـةَ الحفاظ على التوازن في موضوعِ تعليق القلـبِ بالباقـي ﷻ دون الفانـي لـم يتزعزعـوا بوفاتِهِ؛ وأما الذيـن تعلَّقوا بالفاني، فإنهم لم يصمدوا، وبعضُهم تركوا دينَه وارتدُّوا عنه.

إن كلَّ شـيءٍ قابـلٍ للتطـور والتغيـر فإنـه فـي نهاية أمره سـيؤول إلى الـزوال، والرسـولُ الأكـرم ﷺ كان قد أدَّى ما عليه مـن التكاليف بأخلص المشاعر وأنهى مهمَّتَه، ومِن بعد ذلك استجابَ لدعوة ربه، وقد يكون من المفيد الحديثُ عن حدثٍ لافتٍ للأنظار ذي علاقة بهذا الموضوع:

فـي هـذه الفترة الحرجـة التي التحق فيها الرسـول ﷺ بالرفيق الأعلى تعـرَّضَ النـاسُ لزعزعةٍ، حتى سـيدُنا عمـرُ بن الخطـاب ذو العقل الراقي الـذي كان يَعـرف جيّـدًا الحفاظَ على التـوازن بين الباقـي والفاني عاتبَ وكـذَّب يؤمئـذٍ مَن قال إن رسـول الله ﷺ قد مـات، وكان ثمَّةَ رجل يتعلق قلبُهُ بالباقي على قدر بقائِهِ وبالفاني على درجةِ فنائِهِ، هو الصِّدِّيق الأعظم ﷺ، فـكان يسـكن في حـيٍّ قريب من أحياء المدينة يُدْعى "السُّـنْحَ"، فلما نزلَ المدينةَ لاحظَ السُحُبَ السوداء التي خيَّمت على آفاقِها؛ وكان الناس يبكونَ ولا ينبسون ولو بِبنتِ شفة، حتى إن شخصًا مثل سيدنا علي الحيدر الكرار الذي كان حينما يزأرُ ترتعدُ منه فرائصُ الأُسُود، لم يعد قادرًا على

الوقوف على قدميه، ولكن الصادق إذا طُلِبَ منه الصدق والإخلاص فإن إظهارَهُ لصدقِهِ يكون من باب الأداءِ بالواجب.

نعم، إن الصِّديق الأكبر كان يحملُ على عاتقه مسؤوليَّةً كبرى؛ كان عليه أن يغيِّر الجوَّ السائدَ هناك، ويُحْدِثَ تيَّارًا جديدًا كلَّ الجدَّة، ويبيِّنَ لمن كان هناك: مَن هو الباقي ومَن الفاني؟ ولكنه قبل ذلك مرَّ على الحُجرة الشريفة، واقتربَ من الرسول ﷺ وقبَّل وجهه الأزهرَ الأنورَ، ويا لهما من شفتين نظيفتين تمسَّان تلك الجبهة الطاهرة؛ ففي أثناء ذلك يقول: "بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا"، وبعد ذلك دخل المسجد، فشقَّ صفوف الصحابة المهزوزين المرزوئين المدهوشين، فحمد اللهَ وَأَثْنَى عليه وقال: "أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ"، ثم قرأ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠)، وقرأ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٤٤/٣)[٥٩].

فالصحابة ﷺ أفاقوا جميعًا عن غفوتِهم فجأةً، حيث تأكَّدوا من أن الرسولَ ﷺ قد ارتحل، والوحيَ قد انقطع، ولكن كأنهم كانوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم: هل نزلت هذه الآية للتوّ!؟ فكأن عِظمَ المصيبةِ أذهلهم عن وجود مثل هذه الآية في القرآن الكريم، ولم يكن يخطر ببالهم ويدُور بخَلَدهم إلى ذلك الحين أن شمسَ الشموسِ من الممكنِ أن تأفلَ أو تغيبَ عن ناظِرهم.

فالآية الكريمة كانت تقول لهم: ما محمد ﷺ إلا رسولٌ للهِ شَرِيفٌ ليس غير ذلك، ومِن قَبْلِه قد أتتْ رُسلٌ مثله وراحوا، فإن توفاه الله أو قُتِل فهل ستنقلِبُون على أعقابكم وتَترُكون دينَه؟

(٥٩) صحيح البخاري، المناقب، ٣٣.

لقد نزلَتْ هذه الآية يوم موقعة أُحد، ولم يزل الصحابةُ الكرام يُرَتِّلونها إلى أن جاءَ يوم رحيلِ رسول الله ﷺ، ولكنهم ما كانوا قد فهِمُوا ما تنطوي عليه من المعنى على الوجه الذي فَهِمَهُ أبو بكر ﷺ، والرسولُ ﷺ قد أدَّى مهمَّتَهُ ورحلَ، ولكن الله باقٍ لا يموت.

فكأنما أحدث صوت سيدنا أبي بكر ﷺ موجةً في المسجِدِ هزَّتْ كيان المجتمعين، وأخذ الصحابة يؤوبون إلى الله من جديد، فصار هذا الجَيَشانُ والتموُّجُ بمنزلةِ سدٍّ أمام الفِتَنِ التي تُراد إثارتُها إثرَ وفاةِ رسول الله ﷺ، وصار بمثابة إنذارٍ مبكِّرٍ لهم تجاه ما سيظهر في الأوقات اللاحقة من الأحداث والفِتَنِ المتعاقِبَةِ، ودفَعَهم إلى التنبُّهِ والحَذَرِ.

وإذ وصل بنا الحديث إلى هذه النقطة نريد أن نُذكِّرَ بما قلناه سابقًا فنقولُ: هل مِن الفانين الذين ارتبطت بهم قلوبكم وعُلِّقَتْ عليهم آمالكم مِن أحدٍ يضمنُ لكم أن لا يرحل من هذه الدنيا قبلكم، وأنْ يلبي كل أمانيكم ورغباتكم؟!

فإذا كانت المحبة التي لا بد من توجيهها إلى الله لا يجوز توجيهها حتى إلى رسول الله ﷺ، فلا بدَّ لكم من أن تُعيدوا النظرَ مجدَّدًا -من منظورِ عقيدةِ التوحيد- في المحبَّة والتعلق اللذَين تُبدونهما نحوَ كثير من معبوداتكم وأصنامكم الفانيات.

فالقلبُ إذا توجَّهَ نحو الفانيات؛ أوقعَ صاحبَه في ازدواجيّةٍ مخيفةٍ، ويصبح وكأنه ذو شخصيَّتين، لأن الإنسان يحملُ بين جوانحِهِ الخوفَ والمحبَّة، ولكن هذه المحبَّة والخوف إذا لم يجدا صاحبَهما الحقيقيّ فإن الإنسان قد يُصبح قلبُهُ متعلِّقًا بما يخافُه ويحبُّه، بل أحيانًا ما يعبدُه، وهكذا يكون قد اختلقَ آلهةً عدّة وسَلَّطها على نفسه؛ ولكنه إذا عَرَف المرجعَ الأوَّلَ والأخير لذلك الخوف وتلك المحبةِ، وتَقبَّلَه بكلِّ روحِهِ وكيانِهِ؛

فإن ذلك الإنسان يكون مترقّيًا إلى التوحيد، وبفضل هذا الخوف وهذه المحبة يُحرزُ السكينةَ والطمأنينةَ الحقيقيَّتين.

وهذا يعني أن الخالق الأعظمَ والصانعَ الأجلَّ الذي خلقَنَا قد أودَعَ فينا الآليَّات والقدراتِ التي من شأنها أن توجِّهَنا إليه تعالى، وهي تقوم بهذا العمل فعلًا، وفي الوقت نفسِهِ أودع فينا محبَّةً تَسَعُ الكون، ومهابةً عظيمةً تَسَعُ العوالم، ومِن أحسنِ الأمثلة على هذا محبّةُ الطفل لأمِّهِ والأمِّ لطفلها.

والإنسانُ إذا ضاقت به الدنيا وصارَ يرتجفُ فؤادُهُ من خشية الله وخافَ أن تخيبَ آمالُه بالكلّيّة يلجأ إلى الله، ومثلُ هذا الخوفِ فيه من اللَّذة ما لا يُدرَك أعماقُه ولا يحاط بحدوده، فإذا كان الخوفُ تكمن فيه لذَّةٌ على هذه الشاكلة فما بالك بلذَّةِ المحبّة، فالعبوديّة لله إنما تتحقَّقُ بالخشية البالغة مقرونةً بالمحبَّة البالغة، وكذلك الوظيفة التي نسمّيها "العبادة"، هي عبارة عن الجمعِ بين هذين الأمرين اللذين يبدوان في ظاهرهما وكأنهما متناقضان، ففي العبودية نلاحظُ ونشاهِدُ أن بحارَ المهابة ومحيطاتها تفور، وأنَّ أمواجَ المحبَّةِ تتلاطم، وأن رياحَ الاحترام العميق ونسائمَ السكينة اللامحدودة تهبُّ فتغمر الروح، وهذه هي ماهية "العبادة".

إن الذي لا يُدرِك مدى عجزِهِ وذلَّتِهِ، ولا يعرفُ مدى قيمةِ الرحمةِ والأملِ؛ لهو تعيسٌ سيّئُ الطالعِ، وغير مُدْرِكٍ لنشوةِ العبادة. نعم، إن في روح العبادة تمريغًا وتعفيرًا للوجه في الأرض أملًا في رحمة الله، وفيها ارتعادُ الفرائصِ خوفًا من خيبةِ الآمال، أي إنّ عظيمَ الخوفِ يتداخَلُ فيها مع عظيمِ البهجةِ والسرورِ اللامحدودين، فإذا جمعتُم بين الخوفِ والرجاءِ؛ فلكم أن تؤْمنوا بأنكم في حضرةِ المولى ﷻ وبذلك تقيمون التوازنَ.

أما المتفائلون المتكبرون الذين يصولون ويجولون في شموخ وكبرياء وليس لهم من الخشية والخوف نصيب وتعلَّقت آمالهم بالأماني والأحلام، والبؤساءُ الذين يتخبَّطون في اليأسِ الذين لم يُدركوا مدى سموِّ مقام العبودية، فهؤلاء كلُّهم لن يستشعروا في وجدانهم لذَّةَ هذه النشوة والطمأنينة.

### د. النيَّةُ روحُ العبادة

كما أنه لا بدَّ من مراعاة التوازن والانضباط والعمل ضمن القواعد التي وضعها الله؛ فكذلك لا بدَّ من النيّة الخالصة؛ يقول رسول الله ﷺ: "**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**"(٦٠).

فهذا يعني أنه لا بدَّ من أن يتوجَّه القلبُ إليه ﷻ فقط؛ فلن تُعَدَّ الزكاة التي تُدفع من دون تذكُّره زكاةً ولا الصدقةُ صدقةً، بل هي نوعٌ من تبذير المال وهَدْرِهِ هنا وهناك، وشكلٌ من أشكال الأخوَّة والصداقةِ مع الشيطان كما عبَّرَ عن ذلك القرآنُ الكريم(٦١)، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكَرِ إذا لم يُقصَدْ بهما وجهُ الله يكونان عبارةً عن جدلٍ وخداعٍ للناس بغوغاءِ الكلام والديماغوجية، والجهادُ الذي لا يُبتغى به رضاه تعالى ليس إلا نوعًا من البهرجة والرياء، وهدرًا للثروة والوقت، فلا بدّ أن يكون الهدف والغاية في روح "العبادة" هو "المعبود"، وأن يتوجّه "العبد" إلى "المعبود"، وأن تُقدَّم العبوديةُ إلى "المعبود"، فلا بدَّ من عدم الفصل بين مسمّيات (العبادة - العبودية - المعبود) التي تشترك في أصلِ الاشتقاق.

(٦٠) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ مسند الإمام أحمد، ٤٤٥/١٤.

(٦١) ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٦/١٧-٢٧).

فالعبدُ يناجي ربَّه قائلًا: مثلتُ بين يديك بذُلّي مستحضِرًا عزَّتَك، وحضرتُ بمهانتي مستشعرًا عظمتَك، فأنا الذي لا أنحني ولا أُخضِع رقبتي لأحد، ها أنا ذا أنحني وأُخضع رقبتي لك، وأدوسُ على كبريائي، وأُمَرِّغُ وجهي بالأرض بروحانيّة السجود لك؛ لأنك أنتَ المعبودُ وأنا العبد، وأنت الخالقُ وأنا المخلوقُ، أتيتُ إلى بابك مُعلِنًا كلَّ فقري وفاقتي لك، لأنكَ وهبتَ لي عقلًا وقلبًا وإرادةً وشعورًا، وجمعتَ هذه الأمور وجعلتَها أركانًا لوجداني، ووجداني هذا يريد أن يقدِّم إليك امتنانه وثناءه، ولْتشهدْ كلُّ الكائنات أنني أنا العبدُ لك، وها أنا ذا أفتخر بهذا.

فالمؤمن حينما يقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يستشعر ويستذكر هذه المعاني، وليس هذا ذُلًّا وصَغارًا، بل هو تعبيرٌ عن إدراك الإنسان للطريق نحو العظَمَةِ الحقيقيّة، والشطرُ الثاني لكلمةِ الشهادة (وأَشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه) يعبّر عن هذه الحقيقة، إن سيِّدَنا محمدًا ﷺ عبدُ الله ورسولُهُ، إنه قبلَ كلِّ شيءٍ عبدٌ للهِ، وعبوديَّتُهُ مستمرة، كان عبدًا قبلَ أن يكون رسولًا، فجاءَتْهُ الرسالةُ ودامت عبوديّته، وبوفاتِهِ ذهبت الرسالةُ وما ذَهبَتْ عبوديَّتُهُ.

فنحن إذ نخاطِبُ الله بـ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ فإنما نقصدُ بذلكَ عبوديّةً من هذا النوع.

نعم، إننا لن نتنازلَ عن حرِّيَّتِنا ولو أُوتِينا في مقابلها الدنيا وما فيها، ولن نَقبل الأَسْر لِغَيرِ الله، ولن نُعلِّقَ من أجل غيره تعالى أطواقًا في أعناقنا، ولكن لو كانت لنا أرواح بالآلاف، ورؤوسٌ بقدر شعر رؤوسنا فإننا نفديها بكلِّ سرورٍ وحبورٍ لله الذي خلقَنَا ثم جَعَلَنا نستشعر بوجودِه في وجداننا، وسنواجِهُ كلَّ المخاوِفِ في طريقِهِ، ونضحّي بكلِّ ما نحبُّه في سبيله، ونفعلُ ذلكَ كلَّه بشوقٍ؛ لأنَّنا إذ نَفقِدُ كلَّ شيءٍ فإنّنا سنظفرُ بهِ هو،

ونعتبر التضحيةَ في سبيله غايةَ المُنى، ولإحرازِ رضاه في عبقِ محبَّتِهِ والاحترامِ له سنفضِّلُ العيش في خضمِّ العَرَق والرَّهَق والدموع على العيش في الجِنان.

فنحنُ في غمرةِ هذه المشاعرِ الطافحة والإخلاص في النوايا نحملُ على عاتِقِنا وظيفةً عظيمةً تنوءُ الجبالُ بحملِها وتُشفِقُ على نفسِها منها، يقول الله ﷻ معبّرًا عن هذه الحقيقة: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (سورة الأَحْزَاب: ٧٢/٣٣)، فالجبلُ والحجرُ لم يكونا قادِرَين على النهوضِ بحملِ هذه الأمانة، ولذلك أبَيا حَمْلَها لمَّا عُرِضَ عليهما.

### هـ. المناسبةُ بين العبادةِ والاستعانة

إن ما بين كلماتِ القرآنِ وجُمَلِهِ من التناسُبِ وما بين تعبيراتِهِ من التناغُمِ والتماسُكِ والانسيابيّة الحلوةِ الرائعة لَخَيرُ مُعَلِّمٍ لنا كيف نتصرَّفُ حينما نتحمَّلُ هذه الأحمال الثقيلة التي أشفقتْ مِن حملِها السماواتُ والأرضُ والجبالُ، وتُنير لنا الطريق، وتسلِّط عليها الأضواء، ونحن بدورِنا بعد أن نقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ نلتجِئُ إليه بقولِنا: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ أي لا نطلبُ العونَ إلا منكَ؛ وإلا فستنقَطِعُ بنا السُّبُلُ ونتيهُ ونُصْبِحُ ضائعين هائمين.

والاستعانةُ بالله تعني: طلبَ المعونة منه في كلِّ الأمورِ، والدعاء إليه ليسهِّل العبادات، والاتكالَ على عونِهِ وعنايتِهِ في كلِّ الأمور التي يواجهُها الإنسان، وعلى هذا فنحنُ إنما نطلبُ العونَ في عباداتنا وأعمالِنا بكلِّ إخلاصٍ ومن صميم قلوبِنا وأعماقِنا من الله تعالى فقط لا غيره، كما ورد عن حبرِ الأمَّة عبد الله بن عباس ﷺ أنه قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

**يَوْمًا، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"**(٦٢).

وهنا أمرٌ لا بدَّ من التنبُّهِ له، وهو أن عونَ الله نوعان: ضروريٌّ، وغيرُ ضروريٍّ؛ فالضروريُّ منه هو ما أودَعَهُ اللهُ برحمتِهِ في ماهيَّتِنا من أعضاء وقابليّات، فنحن نُبْصِرُ بأعيُنِنا، فنأخذُ ما تلتقِطُه أبصارُنا ونقوّمها في مختبرِ الفكرِ، ونحاول أن نصنعَ منه خلايا شَهْدِ المعرفةِ الإلهية، وهذه العمليَّة تُجرى في الرأسِ، وقد أودع ﷻ في الرأس الآليّات اللازمة، ووضع بين الآليات مناسبةً، وجعل منها مَصنعًا يُعملُ كلُّ شيءٍ فيه، فكلُّ هذه الأمور التي منحَنَا الله إيَّاها منذ البداية نسمّيها -إن جازَ التعبير- "العونَ الضروريّ"، وإذا حصل النقصُ في أيّ عنصرٍ من عناصرِهِ فلن يستطيعَ الإنسانُ تحقيقَ الأمور المطلوبةِ منه.

وهناك من العون ما هو غير ضروري، حيث إننا إذا فعلنا شيئًا فإن الله تعالى يحفّزنا ويُيَسّرُ لنا ويهدينا السبيلَ ويأخذُ بأيدينا باسمِهِ: "الهادي"، وينيرُ لنا الطريقَ ويُرشدنا، ويمكنُ لنا استعارةُ التعبيرِ الأصوليّ لتوضيحِ هذين القِسمين من أقسام العون الإلهيّ؛ فالقِسمُ الأوّل من العون الذي ذرأهُ الله في آلياتِنا الفطرية -وهو الضروريُّ- يُسمّى: "القدرة المُمَكِّنة"، وهي: عبارةٌ عن أدنى قوَّةٍ يتمكَّنُ بها المأمورُ من أداءِ ما لَزِمَهُ، والقسمُ الثاني -وهو غيرُ الضروريّ-: "القدرة المُيَسِّرة"، وهي: ما يوجِبُ اليُسْرَ على الأداء، فكلُّ الأعمال التي نقوم بها، إنما ننجِزُها بالأعضاءِ والقابليَّاتِ

(٦٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٩؛ مسند الإمام أحمد، ٤/٤١٠.

التي خلقها الله وأودعها فينا فطرةً؛ وهذا ما أشرنا إليه بالقوة الممكِّنة، ثمَّ نحقق ذلك بالاعتماد على عنايتِهِ ولُطفِهِ وتيسيرِهِ؛ وهو ما أشرنا إليه بالقوّة الميسِّرة.

ولا بدّ لي في هذا السياق من التنويهِ بما يلي:

إن الله خلقَنَا وهو هو خالقُ أفعالِنا وتصرُّفاتنا التي ننسبُها إلى أنفسنا قائلين: "فعلتُ، أنجزتُ"، فـ"الخَلقُ الأولُ" "جَبْريٌّ"، والله تعالى لم يستشر الإنسانَ في هندسةِ الكون الذي خلقَهُ، فهو الذي خطَّطَ له بنفسِهِ، وهو الذي خلقَهُ، وهو الذي أوجدَهُ وأنشأه، فالذي يهيمن على هذا الجانب من الأمر هو "الجبرُ" والحاكميةُ المطلقة بكلِّ ما للكلمةِ من معنى، وللإنسان من الإرادة ما يُكسبه الجنةَ أو النارَ ويؤدي به إلى إحداهما، وقد مُنحَ الإنسانُ هذه الإرادَةَ برحمةٍ من الله تعالى، وكما كان اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ كذلك هُوَ هُوَ خالقُ الأفعال التي يكسبها الإنسانُ بإرادته.

فالله تعالى إذ يقول في كتابه: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فيُعلِّمنا التوجُّهَ إليه، ويمنحنا صلاحيَّةَ طلبِ المعونة منه؛ فكأنه يقول: إن لكم أن تستعينوا؛ فمنكم الطلبُ والكسبُ والتوجُّهُ، ومنِّي الخلق والإيجاد والأخذ بأيديكم، وكذلك منكم التحفُّزُ والمبادرةُ، ومنِّي السموُّ بكم نحو أعلى الأعالي، ونحن بدورِنا إذ نستجيبُ لِأَمْرِهِ ﷻ، فنطلب منه ونتعلّم من كلامه المجيد كيفيَّةَ الاستعانة؛ نلاحظ أننا قد أوتينا صلاحيَّةَ الطلب والسُّؤْلِ منه ﷻ، ففي كلِّ أعمالنا التي نُنْجِزُها هنا جانبٌ من أثر "الفاعلِ الخالقِ" ﷻ؛ فكلُّ ما يأتي إلى الوجود هو خالقُه، أي "خَلْقُ" أفعالِ العباد منه، وأما "الكَسْب" فهو منا، وفي أفعالنا يجتمع هذان الأمران.

وقد أوتي الإنسانُ في هذا المقام حَظْوةً وشرفًا؛ بحيث إن الخالق يقاسِمُهُ الأمرَ؛ بمعنى أننا نقوم بالعبوديّة، والله يأخذُ بأيدينا، وإذا فَهِمْنَا

الموضوعَ على هذا الشكل فلن يكونَ هناك مجالٌ للانحراف نحو "الجبر" أو"الاعتزال".

وأودُّ هنا أن أتطرَّقَ باختصارٍ شديدٍ إلى موضوعِ "القَدَر"، وإن كان من الأنسبِ تناولُ هذا الموضوع ضمن مباحثِ القَدَرِ، حيث سَبَقَ أنْ تناولناها في بحثٍ مستقِلٍّ.

إن الأشياء قبلَ أن تُخلقَ كانت موجودةً في علمِ الله "وجودًا عِلميًّا"، ثم خُلِقَتْ وأُوجِدَت بقدرةِ الله وإرادَتِهِ وفقَ هيئاتها في علمِ الله، و"عِلمُ اللهِ" بالوقائع قبل أن تَحدث لا يُجبِرُها على الوجود بشكلٍ أو بآخر، لا سيّما الإنسانُ -الذي جُلُّ رأسماله عبارةٌ عن الكسبِ- أينما تَوجَّهَ بإرادَتِهِ فالله ﷻ يَخلُقُ الأمور على حسب ذلك.

والقَدَرُ يعني حُكْمَ الله للأشياء التي ستوجَد بأن كيف ستوجَد، وأن يَعلمه اللهُ تعالى بعِلْمِهِ الأزليّ آخذًا إرادةَ الإنسانِ -إن صحَّ وجازَ التعبير- بِعينِ الاعتبار.

فتسجيلُ الأعمال التي سيُنجِزُها الإنسانُ في صحائفِ العلمِ الإلهيّ -مع اعتبار الإرادةِ البشريَّةِ- ليس مجبِرًا الإنسانَ على فعلِ هذهِ الأعمالِ، وهذا يردُّ ما يقول به المعتزلةُ وما يقول به الجبريّة بتاتًا. أجل، إن العملَ والكسبَ مِنَّا، والخلق والإيجاد من الله ﷻ، والتوجه نحو العمل هو مِنَّا، وأما الأخذ بأيدينا فهو منه ﷻ، فمنَّا العبودية، ومنه أن يُدخِلَنا الجنة.

وهكذا فإنَّ ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ تعبيرٌ ذو حلاوة -وأيَّةُ حلاوةٍ- عن مقابلةٍ بين الخالق والمخلوق؛ فهذا تعاقُدٌ وتعاهُدٌ من الشرفِ ومن السموِّ بحيث إن البشريَّةَ لم ترقَ إلى شرفٍ وحظوةٍ أسمى منه؛ فلو قيلَ لأحدِنا: لقد تبوَّأْتَ منصبَ السلطان على البلدِ الفلانيّ، فإن هذا المنصبَ العالي والمقامَ الراقي يتضاءَلُ أمام هذا التعاقُدِ الذي حصلَ بين الإنسان

وربِّ العزَّةِ الذي له مقاليد السماوات والأرض، والذي يتوجَّهُ إلى قلبِكَ في هذه الدائرة الواسعةِ للربوبيّة، ويقلِّبُهُ بين إصبعيه، إن مقاولتك هذه وقولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لهو شرفٌ عظيمٌ لك يستعصي على كلِّ الأوصاف.

أجل، إن الله الذي يتصرَّفُ بعنوان "رب العالمين"، ويسوقُكَ نحو الكمال، والذي جَعل باسْمَيه: "الرحمن" و"الرحيم" وجهَ الأرض مائدةً وعالَمك الخاصّ مائدة أخرى فتجلَّى برحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، بمعنى أنك إذا تناولْتَ لقمةً إلى فمِكَ فإنه تعالى بالنظام والآليَّة التي وضعها فيك يبلِّلُ تلك اللقمة، وبرحمتِهِ يجعلُ غدَدَ معدتِكَ تفرزُ الماء، فيُسهِّلُ عمليَّةَ الهضمِ ويحرِّكُ جهازَ الأمعاءِ والكبدِ والكلى وكثيرًا من الأمور التي لا تُحسّ بها أنت ولا تشعر، ويُريك مِن وراء كلِّ حادثة رحمانيَّتَهُ ورحيميَّتَهُ، ويبسطُ لك على وجهِ الأرضِ موائدَ أفخمَ وأحسنَ وأرقى من الموائد التي تبسطُها أنت، ويلبّي -من خلال الأمور التي يقدِّمها لك ولأمثالك- ما تحتاجونه من الفيتامينات والبروتينات، وفوق ذلك يُريك رحمانيَّتَهُ ورحيميَّتَهُ من خلال ما يوجِد في ألفِ نوعٍ ونوعٍ من النِّعَمِ من الطعمِ واللونِ والرائحةِ الطيبة، فذلك عرَّفك اللهُ بنفسِهِ، وبذلك أعطاك شرفًا وحظوةً.

ثم باسمه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ جَعَلَك تَشعُر في وجدانِكَ بِذاتِهِ، وذكَّرك بيومٍ يُجَازَى فيه الخيرُ والشرّ، فدعاك بذاك للاستعداد والتهيُّؤِ له. نعم، إنك تخطو اليوم خطواتك حسبَ الغدِ، فالله هو الذي حباك بذلك، إنك اتخذتَ هيئةً حسبَ تكوينك المعنويّ وحياتِكَ الروحيَّة، وجمعت مقدارًا من الثروة، ولكن رأسمالك إنما أتى منه ﷻ؛ لأنه هو الذي منحَكَ المواد الأولية بلطفه وإحسانه، ثم هو الذي هداك إلى الطريق الحق، ووفَّقك للأعمال الصائبة.

ولكـن بالإضافة إلـى ذلك كلِّه، تَوجَّهَ إليـك وخاطَبك كأنَّ لك دَخْلا ومالكيـةً فـي كلِّ ما أحرزتَـه، وكأنك مالكٌ لبعض الأشـياء، فقال لك في معادلـة ومقابلـةٍ: "يـا عبدي، منك الكسـب ومني الخلـق والإيجاد، منك السـير فـي طريق الجنـة، ومني إدخالـك الجنة، منك اجتنـابُ المعاصي، ومني التوفيق..."، قال ذلك وكأنه يتعاقدُ معك، فنحن إذ نقول ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ كما أن الرسول الأكرم ﷺ سلَّم على الله ليلة المعراج فتَلقَّى السلامَ، وكما أنه تَقبَّل لأمَّتِهِ من الله هديَّةَ الصلاة، وكما أنه خُفِّفَ عن أمَّتِهِ التكليـفُ فـي عددِ الصلوات من دون نقصٍ فـي الثواب، فنحنُ كذلك في ﴿**إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾ نحسُّ ونشـعر بكلِّ كيانِنـا بالتعاقُدِ والمقاولةِ نفسِها، وتطفحُ قلوبُنا التي سَئِمَتْ الأغيارَ، بالمشاعر ذاتِها.

### و. العبادة والوعي الجَماعي

ومـن جانـب آخر فـ﴿**إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾ يبعث فينا الشـعور الجَماعي. نعم، فنحنُ بهذه الصيغة نترُك "أنا" ونقول: "نحن"، فهذا القول يقولـه واحدٌ منـا ويُنْصِتُ له الآخـرون، والصلاة رمـزٌ لِحياتِنا الاجتماعية وتوازُنِنا وانتظامِنا، فإذا نحن أحسَسـنا بهذا في الصلاة، فسـيَظهر ذلك في حياتنا الاجتماعية بكلِّ وضوحٍ، فـ"نحن" ليست تعبيرًا عن طائفةٍ من الناس اجتمعـوا اجتماعًا عشـوائيًّا، بل إنهـا تعني: أننا مجموعـةٌ منتظِمَةٌ متناغمةٌ تتمتَّـعُ بالوَحْدَةِ الروحيَّة.

فالإنسان الفرد يَرقى بهذه الفكرة إلى مستوى الوعي الجمعيّ، ويتحرَّرُ مـن العيـشِ العاطفـيّ، ويسـمو إلى مسـتوى العيـش المنطقـيّ والعقليّ، فَيُصْبِـحُ لائقًـا بـأن يكون عضوًا فـي المجتمَـعِ، وهذا الأمـرُ منوطٌ بمدى سـعة "وجدانِ" الفردِ أو ضِيقِهِ؛ فالمجتمـعُ الذي يتشَـكَّلُ من الأفراد ذوي

الوجدان الواسع يكون ذا أساسٍ متينٍ عريقٍ راسخٍ، وذا ديمومةٍ بمدى سعة الوجدان، وأما ضيّقو الوجدانِ الذين لا يعرفون التسامحَ فيما بينهم، فإنّنا نعتبِرُ المجتمعَ الذي يتكوَّن منهم مجرَّدَ "حَشدٍ من الناس"؛ لأن هؤلاء لم يرْقَوْا إلى مستوى العضويّة لأيّ مجتمعٍ، أما ذلك الجمع الذي حاوَلْنا تحليلَهُ ووصفَهُ، فهو مجتمعٌ منتَظِمٌ، وما يشاهَد لأوَّلِ وهلةٍ من التطبيقِ العمليّ لهذا الجمع هو أن تؤدَّى فيهم الصلوات جماعةً، فمعلوم أن أداء الصلاةِ جماعةً سنةٌ مؤكّدةٌ عند الحنفيّة والمالكيّة، وواجبٌ عند الحنابلة، وفرضُ كفايةٍ عند الشافعيّة.

والله ﷻ قد أَدرَج في العديد من الآيات القرآنيَّةِ العناصرَ المهيِّئَةَ لمجتمَعٍ كهذا، ووَضَعَ القوانينَ اللازمةَ لإعدادِ هذا المجتمَعِ وتربيتِهِ؛ فهو قد بدأَ بإعدادِ الأفرادِ الذين سيُشَكِّلون هذا المجتمعَ.

إن إعداد الأفراد سيكون مستنِدًا إلى الوحي وعلى أيدي الأنبياء، ومِن بعدِ الأنبياء على أيدي المجتهِدين والمجدِّدين، فالأفرادُ بعدما يُحرِزون الجدارةَ شيئًا فشيئًا ويصبحون لائقين بالعيشِ المجتمعيّ يبدؤُون بالتجمُّعِ فيما بينهم، وبالانضِواء تحت قانونٍ وحاكميَّةٍ واحدةٍ يتكاتَفون وينسَجِمون ويُصْبِحون كأنّهم أعضاء الجسدِ الواحِد، وهذا الانسجامُ والتوافُقُ إنما يتحقَّقُ بالوَحْدَةِ في القوانين والمبادئ التي يتمسَّكُون بها؛ فإذا لم تكن هناك وحدةٌ واتّفاق على القوانين والمبادِئ، ولم يكن الناسُ متوجّهين في الرغبة والرهبة إلى البابِ نفسِهِ، فإن الفرقةَ والتشرذُمَ سيُطِلَّانِ برأسِهما، ومن المستحيلِ بتاتًا أن يتشكَّلَ مجتمعٌ مثاليٌّ متكاتِفٌ مترابطُ الأفراد مِن أفرادٍ مُشَتَّتَةِ العقولِ مُتَشَرْذِمَةِ القلوب.

فحينما يَأمرنا القرآنُ المعجزُ البيانِ أن نقول: "نعبد" (بصيغة الجمع) بدلًا من "أعبد" (بصيغة الإفراد)، فإنه يهدفُ إلى تكوينِ مجتمعٍ بهذه

الأوصاف، وذلك يشيرُ ويُرشِدُ إلى أن أولئك الأفراد المثاليّين ستتشكَّلُ منهم تَكَوُّناتٌ جديدة، وكما أن هناك ذرَّاتٍ وجُزَيئاتٍ تسري إلى دماغ الإنسان، سيكون من بين هذه التكوُّنات أيضًا أناس قد تَصَفَّوْا وأصبحوا جديرين لأن يتبوَّؤُوا موقِعَهم اللائق بهم في دماغ المجتمع، وهؤلاء سيقودون المجتمع، وهكذا ستكون الآليَّةُ الإداريَّةُ قد تَشكَّلَت تلقائيًّا، وهؤلاء ذووا الوجدان الواسِعِ، لا يعانون من عُقَدٍ نفسيّة، ولا يربّي أمثالَ هؤلاء إلا الأخلاقُ والتربيةُ النبويّة.

وذِكرُ شرحِ صدرِ النبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشَّرْح: ١/٩٤) في مقامِ الامتنانِ له من المغزى ما هو عظيمٌ وعميقٌ؛ فذاك نبيّ الله فَتَحَ للآخَرين صدرَهُ وقلبَه على مصراعيهما، وقابَلَ أسوأَ المعاملات والتصرُّفات بالتسامحِ والرِّفقِ، فدلَّنا على الطُّرُقِ المؤَدِّيةِ إلى تشكيلِ مجتمعٍ، فلذلك نقول: إن المجتمع إنما ينمو ويتقوَّى بقدر سعة الوجدان وانفتاحِهِ وانشراحِهِ، أي إنَّ أداءَ أيّ مجتمَعٍ دورًا محوريًّا في مقدَّرات التاريخ ومجرياتِ الأحداث؛ مرهونٌ ومربوطٌ ربطًا قويًّا بمدى سعةِ أو ضيقِ وجدان الأفراد الذين يشكِّلون ذلك المجتمع.

إن الأمر الذي يُنمّي المجتمع هو وجدان الأفراد؛ فإذا كان الفردُ متحجّرًا أنانيًّا، فإن هذا المجتمع وإن تشكَّلَ مؤقّتًا لكنه لن يدوم، ستتقوَّضُ أركانُهُ بمرورِ الوقتِ فيزول؛ وأما إذا كان الأفرادُ متسامحين وكان وجدانُهم واسعًا بكلِّ ما تعنيه كلمةُ "السَّعَةِ"، وكانوا مثلَ الرسول ﷺ مُحْرِزين لسرِّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ١/٩٤) فإن المجتمعَ الذي يؤسِّسُونه سيكونُ راسخًا صامدًا؛ يستطيعُ كلُّ أحدٍ أن ينخرِطَ فيه بكلِّ سهولة، وقد لا يتأتَّى إنشاءُ مثل هذا المجتمع في وقتٍ قصيرٍ ويستغرقُ زمنًا طويلًا،

ولكنه يكون ذا عمرٍ طويلٍ، وبمرور الوقت يمكن أن يكونَ متحكِّمًا في مجرياتِ التاريخ، وهذا هو طريق الرسل ومسلكُهم، والرسول ﷺ أرانا في نفسهِ -بشكلٍ مثاليٍّ- ميزةَ كون الإنسان ركنًا أساسيًّا في المجتمع، ومِن بعدِه نرى هذا الأمر في أكمل صُوَرِهِ في الجماعة التي أسَّسَها، فنرجو الله ﷻ أن يتفضَّلَ على "أهلِ القرآن" في آخر الزمان بسعةِ الصَّدْرِ هذه، إنهم سيُضْفُون على الإنسانيَّةِ وجهًا مُشْرِقًا مختلفًا، وسيفتحون طرقَ العِلْمِ التي انسدَّتْ، ويُحقِّقون للإنسانية التحليقَ في الأجواء الماديّة والمعنويّة، وإننا إذ نطلبُ هذا لفي أملٍ من رحمة الله الواسِعَةِ.

وأما أصحاب الوجدان الضيِّقِ والقلبِ القاسي الذين يعيشونَ تحتَ سيطرةِ عُقَدِهم وعواطِفِهم، فمع أن بإمكانهم أن يعيشوا في مجتمعٍ منسجِمٍ متناغِمٍ من غير أن يُخِلُّوا بتناغُمِهِ وانسجامِهِ، لكن يستحيلُ تشكيلُهم مجتمعًا جديدًا، كما أنه ليس من المعقول أو المنتَظَرِ بتاتًا ممّن هم أسارى نوازِعِهم؛ وممّن يحتكِرون الفكرَ لأنفسِهم ويريدون من كلِّ أحدٍ أن يُفَكِّرَ مثلهم؛ ليسَ من المعقولِ أن يُكوِّنوا مجتمعًا ناجحًا.

إن المجتمعات المبنيّة على احترامِ الآخرين، وعلى رؤيةِ كلِّ مسلكٍ في طريقِ الحقِّ حقًّا، والتي آمنَ أربابُها بأنَّ المسالِكَ الأخرى غيرَ مسلكهم يمكنُ أيضًا أن تنطويَ على نوًى وبذورٍ للحقيقة، والتي توسَّعَ وجدانُ أربابها، وتفتَّحَتْ صدورُهم للآخرين على مصاريعِها، فولّوا وجوهَهم شطرَ الحقِّ، وتحلَّوا بالتسامح؛ إن المجتمعات التي بناها هؤلاء قد ظلَّت معمَّرة ومتَّسِمَةً بالديمومة، فنحن في معاهدةِ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ نستحضرُ هذا الأمر أيضًا، ونشاهِدُ معا المحركاتِ الأساسيّةَ للمجتمع الإسلامي، إن الله ﷻ يأمرنا بأن نقول "نحن" بدلًا من "أنا"،

وهـذا يعنـي أنْ تَخَلَّوْا عن أنانيتكم وقَدِّمـوا عبادتكم وقرباتكم لله ﷻ مـع الآخرين مسـتحضرًا هذه المعاني: "يا رب! إنني شـخصيًّا لا يُؤْبَهُ بي ولا يؤبَهُ بعبوديَّتي، ولكني مُنْخَرِطٌ بين هؤلاء الناس، وأقوم بالعبوديَّة وأنا بين أظهرهم، إن هؤلاء يقدِّمون لك عبوديَّتَهم وهناك على وجه الأرض مئاتٌ بـل آلافٌ مؤلَّفـةٌ يقدِّمـون لـك عبوديَّتهم بـدءًا من جماعـة ذرَّاتِ وخلايا جسـمي -حيث إنها جماعة تشـكَّلَت جبرًا-، ومرورًا بجماعاتِ الأشجار والنبـات والحيوانـات -حيث إنهـا جماعات طبيعيّة فطريّـة-، وانتهاء إلى جماعات البشر والملائكة والجِنّ -حيث إن هؤلاء جماعات ذات إرادة-، وأنا أقول بكلِّ إخلاص من صميم قلبي بأنني أقدِّم وأَعرِضُ لك عبوديَّتي الناقصـة ضمـن عبوديَّـتِهـم، فإني وإن لم يكن لي أن أقول شـيئًا بمفردي، وأطلبَ شيئًا لوحدي؛ فإني لا أقول: "أنا" بل أقول: "نحن"، وأنخرطُ بينهم وأومِـنُ بـأن حياتي لن تـدومَ إلا بحيـاةِ الجماعة، وبمقتضـى كوني مدنيًّا بالطبـع أَتَّبِـعُ الإمامَ الذي أقف خلفه، وأستمـعُ لما يتلوه".

### ز. توحيد العبوديّة وتوحيد الربوبيّة

بغضِّ النظَرِ عما دارَ حول توحيدِ الربوبيّة وتوحيد الألوهية أو العبوديّة مـن اختـلافٍ؛ فإننا سـنتناولُ هـذه المصطَلَحاتِ بإيجاز فنقـول: إنّ لِقوله تعالـى: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾ وجهًا آخـر متعلِّقًا بتوحيـد العبودية وتوحيدِ الربوبية، ولنحاولْ بيانَ ذلك:

إن الله ﷻ بيَّـن لنـا إلـى هذه الآية أنـه هو الله رب العالميـن، وأنه هو الذات الأجلّ الأعلى الذي ليس له شبيهٌ ولا مثيلٌ ولا ضدٌّ ولا ندٌّ، وليس لـه شـريك في تربِيَتِـهِ للعالميـن، وأنَّ كلَّ شـيءٍ -بدْءًا من ذرّات جسـمِنا وانتهاءً بأبعَدِ الأنظمةِ والمجرّاتِ والسُّـدُم- بِيَدِهِ وتحت تصرُّفِهِ ﷻ، وبيَّن

بقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أنه هو الرحمن الرحيم الذي لا شريكَ ولا شبيهَ له في إسداءِ الرحمة، وأن كلَّ شيءٍ يحصل على ما يحتاج إليه؛ وأنَّ كلَّ شيءٍ -بدءًا من ذرّات جسمِنا وحتى الأنظمةِ السماويّة الكبرى- يعمل على أكمل وجه، وأنه تعالى هو المالك الوحيد ليوم الدين، وأنه -وإن كان الخيرُ والشرُّ، والحَسَنُ والقبيح، والإيمان والكفرُ، والهدايَةُ والضلالةُ، والمحسنُ والمُسيءُ متداخلًا مختلِطًا هنا في الدنيا فإنه- سيميّزُ يومًا بعضَهُ عن بعض ويقول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٥٩).

فالله تعالى بكلِّ ما سَبَقَ من الأمور شَرَحَ لنا وحدانيتَه، والواقعُ أنه ﷻ لو لم يَشرَحْ لنا ذلك لفهمناه بمجرد النظرِ إلى الوجهِ النظيفِ الناصِعِ للكونِ وبقراءة كِتابِ الكائنات، ولَأدرَكْنَا وحدانيَّتَهُ بكلِّ سهولةٍ ويُسرٍ، هذا هو "توحيد الربوبية".

فهو ﷻ ربُّك، هو وحده منحَكَ ما منحَكَ، فأنتَ أخذتَ ما أخذتَهُ كلَّهُ منهُ وحدَه، فما عليك إلا أن تخضَعَ له وحدَه، وألا تلتَفِتَ إلى ما سواه، وأن تتوجَّه إليه بقدرِ إخلاصِكَ له.

فأنت إذا استطعتَ أن تفعلَ هذا فستُظهر بالفعل أنك إنما تقوم بالعبوديَّةِ له وحده، وتطلبُ ما تطلبُ منه وحدَه، فهذا هو "توحيد العبودية" مقابل "توحيد الربوبية"؛ بمعنى حصرِ العبوديّة له فقط؛ فكما أن الربَّ واحد، فالعبد كذلك لا بدَّ له من أن يقول:

"إنني خاضعٌ لك وحدَكَ يا ربي! فكما أنك سَخَّرْتَ لي الكونَ وجعلْتَهُ تحت أمري، فإني كذلك مسخَّر لكَ ولأمرِكَ، فما أحلى هذه المسخَّريّة، لأني محظوظٌ بِنِعَمِكَ أنتَ".

هـذه هـي مقابلـة "توحيـد الربوبيـة" بـ"توحيد العبوديـة"، فالتُّعَسـاء الذيـن لم يدركوا هذا السـرَّ اتخذوا الحجر والشـجر والبقـر... إلخ آلهةً، وعبدوا الظُّلْمة والنور، واصطنعوا إلهين باسم: "يَزدان" و"أهرمن"، ولهثُوا وراءهمـا، والذيـن لم يَرْقَوْا إلى مسـتوَى تـذوُّقِ حـلاوةِ العبوديّة للمعبودِ المطلَقِ، تعلَّقَتْ قلوبُهم بآلاف من المعبودات، وربطوا أفئدتهم بآلاف من المحبوبات، فخابوا وخسروا وسقطت أحلامهم.

الحمد لله الذي هدانا -تحت تعليم سـيدنا محمد ﷺ وإرشادِ القرآن- إلى سـبيله المؤدِّي إلى العبودية أمام الألوهية المطلقة والربوبية المطلقة، ولم يتركنا هاملين في العراء.

## آيةُ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

إن العبودية لله ﷻ لهي من شأن ذوي الاستعدادات والقدرات الكبيرة، والفـردُ لا يسـتطيـع بمفردِهِ أن يقـوم بعبوديةٍ تُناسِـب عظمة الله إلا ضمن مجموعةٍ يَعتمدُ هو عليها ويتقوى بها.

إن العبـد الـذي يحسُّ بعجـزه وفقره في حالةٍ كهذه بعدمـا قال ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾ وحصر طلبَ المعونةِ في الله تعالى وهو يأمل المددَ الإلهـيّ منـه لا مـن أحدٍ سـواه، لكنه لا يعلم مـا هو الأفضل لـه، فإن الله ﷻ يُعلِّمـه مـا ينبغـي له أن يطلبـه أوَّلًا، ويأمرُه بأن يقـول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ**﴾، إذ الإنسـان لن يسـتطيـعَ أن يُنظِّـمَ حياتَهُ الفرديّـة والروحية، ولا العائليّة والاجتماعية من دون هداية الحقّ ﷻ.

فتحليل روح الإنسـان ودراسـتُه بكل جوانبه الإيجابية منها والسـلبية، إذا قمتَ بهما حسـبَ المعايير البشـريّة، فهذا سـيؤدّيك إلى نتائج خاطئة ألبتّة؛ وإذا قمت بهما حسب المعايير الإلهيّة فإن الحقيقة ستنجلي وتُدرَك، وستنكشف جوانبُ الروح الخفيّةُ فتصبحُ كأنها في وَضَحِ النهار.

وكذلك لا بدَّ أن تؤسَّسَ البنيةُ العائليّة وتنظَّمَ حسب المبادئ الإلهية؛ فكلُّنا يشاهِدُ ما أدَّت إليه الأفكارُ والفرضيّات التي تُخالف هذه المبادئ.

والمجتمع الحقيقيّ -بكلِّ معنى الكلمة- لا يمكِنُ أن يؤسَّسَ إلا في إطارِ المبادئِ والمعاييرِ الإلهيّة؛ لأن الاتّفاق إنما يتأتّى من الهدى، وأما غير ذلك من الاتفاقات فما هي إلا اتفاقات ليس لها مستقبل واعد، بل هي في الحقيقة اختلافاتٌ خفيّة رهيبةٌ، والذي أُسِّسَ على هذه الاختلافات لا يمكن أن يُسمَّى "مجتمعًا".

فهداية الله أمر ضروري لإزالة أنواع الخلل هذه، وللكشف عن الأنسب، ولذلك نطلب من الحق ﷻ أن يهدينا إلى أقوم الطرق فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

**أ. ماهية الهداية**

الهداية هي تلبية الله ﷻ حاجاتِ الإنسان الضعيف الفقير الذي يحتاج إلى أشياء كثيرة، بحيث تغطِّي كلّ حاجاته، و"اهدِ" في العربية صيغةُ طَلَبٍ للمخاطَب، وهذه الصيغةُ إذا وردت من الأعلى فهي أمرٌ يُجبِرُ المخاطبَ على الفعلِ والتنفيذِ، وإذا وردت من الأدنى فهي دعاءٌ، وإذا وردت من النِّدِّ للنِّدِّ تُسَمَّى "الْتِماسًا".

وكلمة "اهْدِ"في موقِعِها هنا إنما هي مِنَ النوع الثاني؛ فهي تضرُّعٌ ودعاءٌ من الأدنى إلى الأجلِّ الأعلى.

والهداية هي الدلالة على المقصود، فنحن نسأل الله ﷻ أن يُعِينَنَا، ويدلَّنا على الطريق الصحيح، ويأخذَ بأيدينا ويلطفَ بنا، ولا يَكِلنا إلى نَزَواتِنَا وأحاسيسِنا طرفةَ عين، ولا يُطغينا ولا يُضِلّنا ولا يتركَ لنا فرصةً سانحةً لأن نَضِلَّ أو نَطغَى، فهذا هو ما يسمّيه المفسّرون "الدلالةَ الموصلة".

**ب. أنواع الهداية**

إن كلمة "الهداية" تُستَعْمَلُ في اللغة العربيّةِ متعدِّيَةً ولازمةً، وفي هذا نكتةٌ لطيفةٌ ترمزُ إلى أن الهداية نوعان: ما يكون بالواسطة، وما يكون بدون واسطة؛ فأحيانًا ما تكون كلّ الوسائل والوسائط متأتّية جاهزة، ولكن الإنسان لا يحرزُ الهدايةَ؛ في حين أنه قد يمكن أحيانًا إحرازُ الهداية في ظروفٍ غير متلائمةٍ بالمرّة.

فابنُ سيدنا نوح عليه السلام لم يكن له نصيب من الهداية مع أنه وُلد وترعرع تحت رعايةِ نبيٍّ من أنبياء الله، وهذا بينما تربّى سيدنا إبراهيم عليه السلام في بيت "آزر"، وموسى عليه السلام في قصرِ "فرعون".

فهذه الأمور تُبين لنا الهدايةَ بنوعيها؛ فإن الله جل جلاله ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ (سورة الرُّوم: ١٩/٣٠).

إن الله هدانا، وهدايتُه على أنواع شتّى، فبادئ ذي بدءٍ لقد منحَنَا ما تتطلَّبه إراداتُنا الروحانية والجسمانية. نعم، توجد بين جنبينا إرادةٌ روحانيّة وإرادة جسمانية، إذ إننا نتكوَّن من روحٍ وجسمٍ، وكلٌّ منهما من عالَمين مختلِفَين، ولكلٍّ منهما مطلبٌ وميزةٌ تخصّه، وإنهما إنما يجتمِعان بهداية الله جل جلاله، ولا يجد الإنسانُ الطريقَ إلى السكينة والسعادةِ إلا باجتماع هذه الأمور وانسجامِها.

والله يهدي الإنسان فيجمع بين قوَّتِهِ العقليّة وقوَّتِهِ الطبيعيّة، وإلا لطغى العقلُ؛ فكم من عاقل سليم في محاكماته العقلية لا يعرف الله ولا رسوله ولا كتابه، ويتقلّب متنقِّلًا من فرعونيّةٍ إلى أخرى، وأما الذين هدى الله عقلَهم فليسوا كذلك، فالهدايةُ بالنسبة إليهم هي أن يوصِلَ اللهُ عقلَهم إلى ما خُلق له.

ولنا جانب آخر يتعلّق بالطبيعة، قد هدى اللهُ هذا الجانبَ أيضًا إلى

غايَتِهِ، فلم يجعلنا مثل الحيوان والنبات، وهذا نوعٌ آخر من هداية الله ﷻ.

ومن ضروبِ الهدايةِ ما ساقه الله ﷻ لنا من التفريق بين الحقِّ والباطل، وقولُه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البَلَد: ٩٠/١٠) يُبيّنُ أنه قد مَيَّز الحقَّ عن الباطل والصلاحَ عن الفساد والخيرَ عن الشرِّ بوضوحٍ وجلاء، وبيَّن السبيل إلى الأمرين، فقد تحقَّقت الهداية به.

وإنزالُ الكتب وإرسال الرسل أيضًا من أشكال الهداية، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسْرَاء: ١٧/٩) وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢١/٧٣)، يدلَّان على أن الرسل والكتب من وسائل الهداية.

فمِن كل ما سبق نفهم أننا مُنِحْنا أنواعَ الهداية الإلهيَّة في كلِّ مرحلةٍ من مراحِلِ رحلتِنا في عالم الأرواح، وعالم الذرات، وعالم الإنسانية، فَمِن الحقيقِ بنا أن نقفَ عند هذه النقطةِ ونقول: "إن هدايةَ الله في حقِّ الإنسان مستمرّة لا نهايةَ ولا حدودَ لها.

والوحيُ والإلهام وحلُّ رموز الأسرار، وظهورُ حقائق الأشياء، وإبلاغُ بعض الأمور عن طريق الرؤى الصادقة... إلخ كلُّ ذلك من أنواع الهداية، ولكن هذه الأنواع تخصّ بعضَ الناس دون بعضٍ.

فنحن إذ نقولُ: ﴿اهْدِنَا﴾ سنستوعِبُ هذه المعاني كلّها وسنحاوِلُ أن نفهمَ الهدايةَ بكلِّ ما تعنيه، وسنستَشْعِرُ مدى عظمةِ لطفِ الله بنا ونعمتِه علينا؛ حيث إنه ﷻ في ضمن تربيَتِهِ التي شملت كلَّ الموجودات، هدانا من بين العديد من الطرقِ الملتويةِ والمعوجّة المنحرِفة إلى طريق الإسلام الذي هو الطريق الصحيح.

نعم، فنحن مَرَرْنا ببرازخَ وعقباتٍ كثيرة بدءًا من عالَمِ الذرّات، إلى

عالـم الحيوانـات، إلـى أن وَصَلْنـا إلى عالَمِ الإنسـانيّة، لكن لـم يكن لنا أيُّ دخـلٍ ودورٍ حينمـا كنّا نمـرُّ بكلِّ ذلك، وكنّا دائمًـا على الهداية، وفي حين أن هناك ملايينَ من بني الإنسـان ممّن هم أعقلُ منّا وأكثرُ اسـتعدادًا وقابليّـةً، ولكنهـم يتخبَّطون في الضـلالاتِ، إذا بنا وقـد تَداركَنَا نوعٌ آخر من الهداية، فتَشَـرَّفْنا بدين الإسلام، وصرنا أمةً لسيدنا محمد ﷺ الذي هو أشرف المخلوقات.

فنحـن بدورنـا نقدم له تعالى الحمدَ، ونسـبحُه مقابلَ هذه وغيرها من أنواع الهداية اللانهائية.

### ج. كلمةُ ﴿الصِّرَاطَ﴾

وردت كلمة "الصراط" هنا مُـعَرَّفة باللام، وهذا يفيد أن الصراط الذي نطلـبُ الهداية إليه صراطٌ معهـودٌ معلومٌ، أي اهدِنا ذلك الصراط المعلومَ الـذي سـار عليه مِن قَبْلنـا آلافُ الأنبياء وملايينُ مـن أوليائك الصالحين، فهذا الصراط هو طريقٌ معلومٌ يَعرف الجميـعُ المقصودَ منه، وشارعٌ واسـعٌ يستطيـع كلُّ أحدٍ أن يسلُكَه.

والصادُ في كلمة "الصراط" أصلُهُ السين، ولكنّها قُلِبَتْ صادًا لتُجَانِسَ الطـاءَ في الإطبـاق، وكتبوه بالصاد في المصحفِ الإمام (مصحفِ سـيدنا عثمان ﷺ الذي كتبه للناس واعتُمِدَ كنسخَةٍ أمٍّ).

إن طلبَ الهداية إلى الصراط المسـتقيم في الآية يذكّرنا بوجودِ طُرُقٍ أخرى ضيّقةٍ أو واسـعة وبصعودها ونزولها، ويُذكِّرنا أيضًا بالصراط ذلك الجسـرُ الممـدودُ على متـنِ جهنَّم، والـذي لا بدَّ لمن يريد دخـولَ الجنّة من أن يمرَّ بِهِ.

وقـد يكـون من المفيـدِ أن نسـتطرِدَ قليلًا فنقـول: لا بدَّ لِفَهْـمِ معاني

القرآن الكريم فهمًا تامًّا من فهمِ المفردات القرآنيّة والمعاني الجانبيّة لهذه المفردات بالإضافة إلى ما تَرمز إليه من المعاني، فإذا تَحقَّق فهمُ هذه الأمور، أصبحتْ كلُّ آيةٍ من آيات كلام الله تعالى كأنها منظومةٌ سماويّة أو نجمةٌ تغمز لنا بطرْف العين، فإذا كان سيدنا أبو بكر ﷺ يقرؤه إلى وقت الفجر وهو يَذْرِف الدموع، وإذا كان سيدنا عكرمة بن أبي جهل ﷺ يضعُ القرآن على وجهِهِ وعينيه ويُبدي احترامه وتبجيلَه للقرآن في أنينٍ وحنينٍ قائلًا: "كتاب ربي، كتابُ ربّي"... فإنه ليسَ من الصحيحِ أن يُحمَل كلُّ ذلك على أنه تعظيمٌ لمجرَّدِ الظَّرف، بل لا بدَّ من أن يُناطَ ذلك بما في كلمات القرآن من العمق، وما في معانيها من السعة والشمولِ، وباعتبار أنه "كلام الله" ﷻ.

إن الله "حكيم"؛ فكما أنه خلقَ الكون بالحكمةِ، ووضعَ في كلِّ شيءٍ آلافًا من الحِكَمِ، فلا بدَّ من أن كلَّ كلمةٍ من كلمات كتابه تنطوي على معانٍ عدّة وحِكَمٍ شتى، فهو يقول: ﴿**حم ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ (سورة الْجَاثِيَة: ٤٥/١-٢)، يعني -والله أعلم- تَنَبَّهُوا! فإني سأحدِّثكم عن أمرٍ ذي أسرارٍ غامضة؛ إن هذا القرآن قد نزل من عند الله الذي هو العزيز الحكيم"، فمن الحقيق إذًا أن يتعمَّقَ الإنسان في كلام الله ويبحثَ عن الحِكَمِ المكنونةِ فيه دائمًا.

ففيما نحن فيه من الآية الكريمة يَرِد تعبيرُ "الصراط" في حين أن هناك في اللغة العربية كلماتٍ مرادِفةً لها مثل: السبيل، الطريق، النهج، وغيرها... فلِماذا اختيرت كلمةُ: "الصراط"؟ وكذلك الأمرُ في: "المستقيم"؛ حيث نلاحظُ أنها فُضِّلَتْ على سائرِ الكلماتِ المرادِفَةِ لها، فلا بدَّ لنا من أن نفهمَ السببَ وراءَ اختيارِ "الله الحكيم" لهذه الكلمات بالذات في كتابه

المشحون بـ"الحكمة"، حتى ندركَ المرادَ الإلهيّ.

فالقرآن الكريم حينما يُعَبِّرُ عن أمرٍ ما بأيَّةِ كلمةٍ، فتلك الكلمةُ لها معنى باعتبار سياقِها الذي وردت فيهِ، بالإضافة إلى معانيها الكثيرة الأخرى التي تنطوي هي عليها، فأحيانًا نُضطَرُّ إلى حملِها على معنًى خاصٍّ من معانيها، وأحيانًا أُخرى إلى تناولِها بكلِّ معانيها، فحينما نقول: "الصراط المستقيم" فعلينا أن نتبيَّن كيف نتعاملُ مع معاني كلمات هذا التركيب، فإذا فهِمْنا ذلكَ فإننا سنرى أن عبوديَّتَنا لله، وطلبَنا الهدايةَ منه، وعيشَنا على هيئةِ الجماعة، وغيرِ ذلك من النِّعَمِ...كلّ هذه الأمور تستندُ إلى آيات القرآن الحكيم.

### د. الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيم

إننا نلاحظُ في تفسير "الصراط المستقيم" معاني كثيرة منها: الطريق الوسط، الطريق الحقّ، الإسلام، طريق الرسول ﷺ وأصحابِه، طريق الجنة، الجسر الممدود على متنِ جهنم...

ومنها: القرآن، فقد روى الترمذي بسَنَدِهِ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سمع رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ القرآنَ وقال: "**هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**"(٦٣).

فبناءً على هذا يكون القارئ كأنه يقول: اللهم اهدني إلى كتابك، ووفقني إلى فهمِ مقاصِدِهِ، فأنتهج نهجَه.

ونستنتج من هذا أن "الصراط المستقيم" حبلٌ نورانيٌّ أتانا من الله العزيز الحكيم، أي إنه حبلٌ ممدودٌ إلى أيدينا من عالم الغيب؛ إذا تَمسَّكْنا به حظينا بالسعادة، وارتقينا إلى سماء الإنسانيّة، وحصلنا على الرشد الإنساني. أجل، القرآنُ هو الصراط المستقيم، به يتيسر للإنسان فهمُ

(٦٣) سنن الترمذي، فضائل القرآن، ١٤.

المقاصدِ الإلهية، والتحرُّكُ حسب مقتضاها، والفوزُ بدخول الجنة بلطف الله ﷻ.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن النَّوَّاس بن سَمْعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اُدْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإنسان أن يفتحَ شيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ.. فالصِّرَاطُ: اَلْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذٰلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ** (أي الوجدان)"[٦٤].

إن الوجدان الإنسانيَّ يَرى ما في ماهيّة الأمور التي حرَّمها الله من القبح، فيَعافُها، ولا يَشعر بمدى ما يعانيه القلبُ الكافرُ في دواخِلِهِ من القلقِ والألَمِ إلا هذا الوجدان. نعم، إن الإنسان حينما يُطِلُّ برأسِهِ نحوَ الضلالِ والكفرِ إذا به يسمعُ صوتَ الأنين الذي يُطلِقه الوجدانُ، فعليكم أن تستمعوا -من جانبٍ- إلى نداء القرآن الكريم، وأن تُصغوا -من جانب آخر- إلى وجدانكم، وتحاولوا السيرَ تحت ضوءِ القرآن في هذا الصراط الذي ضربَ الله لكم به مثلًا، من دون أن تنحرفوا يمنةً أو يسرةً، ومن دون أن تُطِلُّوا برؤوسِكم وتخرجوها من الأبواب التي تنفتح على الحرام، ومن دون أن تزيحوا الأستار التي أَسدَلَها الله، ومن غير أن تحوموا حول الحِمى المحرّمة.

ويُفهَم من هذه الأحاديث الشريفة التي سردناها آنفًا أنّنا حينما نُطلِقُ

(٦٤) سنن الترمذي، الأمثال، ١؛ مسند الإمام أحمد، ٢٩/١٨١-١٨٢ (واللفظ للإمام أحمد).

مصطَلَحَ "الصراط المستقيم" فإن ما نقصدُهُ منه ليس إلا معنًى من معانيهِ.

وإنَّ مِـن معاني "الصراط المسـتقيم": الطريق المتَّـزِن المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط.

وإن بدا في الظاهر أن الصراط المسـتقيم يحتمل معاني مختلفة، لكن الحقيقـة أنهـا ليسـت مختلفةً متنافـرة، وغايةُ ما في الأمـر أن هناك إطلاقًا وتقييـدًا، أو تعميمًـا وتخصيصًـا بيـن المعاني، إذ إن "الصراط المسـتقيم" هو الطريق القويم، والإسـلامُ هو في حدِّ ذاته الطريقُ القويم، وهو مصونٌ عـن الإفراطِ والتفريطِ، لأنه عبـارة عن مجموع القوانين الإلهية، ومصدَرُهُ الأصلُ هو القرآن الكريم...

إن الصـراط المسـتقيم هو الجـادة الكبرى التي يسـتطيع كلُّ أحد أن يسـلكها.. ومـن جانب آخر هو معنى وجدانيٌّ؛ إنـه طريق علميٌّ وعمليٌّ، نظريٌّ وتطبيقيٌّ يؤدي بأفكارنا وميولنا إلى الخير الذي نحتاج إليه ويتطلَّبُهُ طَبْعُنا.

عندما نقول ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ نكون قد طلبنا منه سبحانه معونةً مطلَقَةً، حيث إن المعاني التي تدورُ في خَلَدِ الإنسان مجرَّدَةٌ، وفي ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ**﴾ يتحـوَّلُ الـمُجَـرَّدُ إلـى أمرٍ مشـخَّصٍ، ومن وراء هـذا التعبير المشـخَّص طلبٌ كالتالي: اللهـم وأوصِلْنا بأفكارِنا ومشـاعِرِنا إلى أفضلِ آمالِنـا وأكثرِهـا خيرًا، وبلِّغْنا إلى بغيتنا عِلمًا وعَمـلًا، ولا تُعثِّرنا في حياتنا الدنيا، وارزقنا الثباتَ والدوامَ على نهج الاستقامة الذي يبلّغنا إلى رضاك.

ومـن له أدنـى نصيب من البلاغة والأدب يتذوَّقُ ما بين هاتين الآيتين من التناغم والانسـجام، ويشـعرُ في روحِهِ بِسَـكِينَةٍ عميقةٍ، وفي ضوء هذه السكينة يدرِك الماهيةَ الحقيقية للدعاء والتضرّع.

والحقيقة أن أيَّ طريقٍ ينتهي إلى الله، إما إلى رضاه وإما إلى غضبه، فهناك طريقٌ يَشرَب سالكُه الخمرَ، وآخر يزني سالكُه، وطريقٌ آخر سالكُه يقتل الناس، وثمة طرقٌ أخرى يقوم سالكوها بالأعمال الصالحة، فهذه الطرق بعضُها يؤدي بسالكه إلى غضب الله وسخطِه، وبعضُها يؤدِّي إلى رضاه ﷻ، وهذا كلُّه من سُنَنِ الله.

في الكون سننٌ وقوانين وضعها الله، إلا أنها قد تُسند إلى مواضعها، أو كيفيةِ وضعِها، أو تسمى باسم الشيء أو الحادثة التي تتعلَّقُ بها، ومن الناس من ينسب هذه القونين إلى الذين اكتشفوها كأنهم واضعوها، والحال أن كلَّ الكائنات وكلَّ القوانين الجارية في الكون تشهدُ أن الواضعَ والموجِدَ الحقيقيَّ لكلِّ شيءٍ هو الله وحده ﷻ، ولا يمكن بتاتًا أن يُسمَّى مَن أخبَر بوجود هذه القوانين "مُوجِدًا"؛ فهذا خطأٌ فادحٌ، والحقُّ أنه لا يسمَّى "مكتَشِفًا" أيضًا؛ لأنَّ الذي وفقه إلى هذا الاكتشاف هو الله، ولكنْ إن كان لا بدَّ أن يُسمَّى بشيءٍ، فأخفُّ الأخطاء وأهونها وأقربُها إلى الصواب هو أن يسمَّى "مُكتَشِفًا"؛ لأن الذي وَضَع الكون على هيئةِ مَصنعٍ، وسيَّره وأعملَهُ في انتظامٍ دقيقٍ كالساعةِ، والذي وضعَ هذا الطريقَ الذي يمتدُّ إلى الموت وإلى القيامة هو الله ﷻ.

فلماذا يموت الإنسان الذي قُطع رأسه؟ لأن هذه سنة الله وقانونُهُ، والقانونُ مبدؤُهُ من الله، ونهايتُهُ إلى الله، فالصلاةُ والصدقةُ وأعمالُ البِرِّ كلُّها تؤدِّي إلى رضا الله، والسيئاتُ تؤدّي إلى سخطِ الله، وهذه سنَّةُ الله، فنحن نشاهد في الدنيا الخيرَ والشر، والحَسَن والقبيح، والأمور التي تؤدِّي إلى سعادة الإنسان وفرحِه متداخلةٌ متشابكةٌ مع ما يتسبَّبُ في اشمئزازه وحُزْنِهِ، فهي متشابكةٌ بعضُها إلى جانب بعض، ونلاحظ أن وراءَ هذه الأمور المتداخلة تَصَرُّفَ الله ﷻ.

أجل، إن القوانين وُضعت من قِبَلِ الله تعالى، وبذلك نصلُ إلى النتيجة التاليـة: إن بجانـبِ كلِّ خيـرٍ شـرًّا، وبجانب كلِّ شـرٍّ خيرًا، وفـي كثيرٍ من الأحيانِ نرى أن ما نسـمِّيهِ خيرًا يسـتندُ إلى شـيءٍ نسمّيه شـرًّا، وما نسمِّيه شـرًّا قد نجده مسـتندًا إلى خيـر، والذي وَضـع هذه القوانيـن التي تَداخَلَ فيها الخيرُ والشرُّ هو الله.

واللهُ تعالى يقول: ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ٢٣/٣٧)، في الآية دلالة واضحة على أن "الهداية" قد تكون إلى شرٍّ، لذا نطلبُ من الله أن يهدينـا إلـى الخيـر المطلَقِ، ونلتمسُ منـه أن يوصلنا إلى مقصودنا، وإلا فـإذا لـم يكـن في نهاية الطريـق خيرٌ، ولم تكن نتيجـة هذا الخير هي رضـا الله تعالـى، فذلك نقمةٌ لا نعمة، ومن يسـلك ذلـك الطريق يتعرض لمصائبَ لا حصرَ لها.

### هـ. روح الإنسانِ والصراطُ المستقيم

إن البنيـةَ المادِّيَّةَ للإنسـان تتكـوَّن من عناصر مختلفـة، فمِن بين هذه العناصرِ ما هو محبوبٌ لدى طبيعةِ الإنسان وما لا تألَفُهُ طبيعة الإنسان بل تعافُهُ، ولكن لكل واحدةٍ منها حكمةٌ وغاية معيَّنة، وحدوثُ أيِّ نقصٍ منها يؤدِّي إلى ضعفٍ في بنية الإنسان، ولكن كما قلنا آنفًا قد تكون هذه المادَّةُ التي لها أهمّيّة بهذا المستوى مقززة ومُعافة بالنسبة للطبيعة الإنسانيّة.

فكمـا أن الجانـبَ المـادِّيَّ للإنسـان بهـذا الشـكل؛ كذلـك الجانبُ المعنوي والروحيّ؛ فمِن بين الأحاسـيس والمشاعر التي تشَكِّل جانبًا من الإنسانِ أنواعٌ ممقوتَةٌ ظاهرًا ومثيرةٌ للغَثَيَان؛ فالشهوةُ والغضبُ وغيرُها قد تبدو شـرًّا وتُقْلِقُ البالَ، والحالُ أنها عبارةٌ عن أنواع من الشرور تخلْخَلَتْ بيـن الجوانـب الخيِّـرة، وهي أدواتٌ ضروريّةٌ للمسـير فـي الطريق ضمنَ دائرة السُّنَنِ الكونيّة التي وضَعَهَا الله تعالى؛ حيث إن المسير سيتحقَّقُ بهذه

الأمورِ؛ فإن كان السيرُ متوجّهًا إلى الخير فسيسيرُ السالكُ بها نحو رضا الله، وإن كان متوجّهًا إلى الشرّ فنحوَ غضبِهِ ﷻ.

واللهُ مَنحَ الإنسانَ حِسَّ الشهوة؛ به يميل الرجل إلى المرأة والمرأةُ إلى الرجل، وكذلك حسَّ التملُّكِ والمحبة والغضبِ، ومنحه أيضًا العقلَ الذي إذا أُسيءَ استخدامُهُ أدَّى إلى انحرافِ الملايين من الناس.

فالله هو الذي مَنح الإنسانَ كلَّ هذه الأمور، والإنسانُ يستطيعُ أن يَستخدمَ كلًّا منها في الخير والشرّ، وقد أُعطيت الحيواناتُ أيضًا قسمًا من هذه الأحاسيس، إلا أنها مختلفة عن التي يملِكُها الإنسان في الكيفيّة اختلافًا لا يُستهان به؛ لأن هذه الأحاسيس في الإنسان "إنسانيةٌ" وفي الحيوانات "حيوانيّة"، ولم يوضع لما لدى الإنسان مِن حدٍّ، في حين أنها في الحيوانات قد حُدَّتْ بحدودٍ معيَّنَةٍ، ولذلك فمشاعر الإنسان قابلةٌ للإفراط والتفريط.

لو لم يُوْدَع في الإنسان "الشهوة" مثلًا لما رغبَ في الأكلِ والشربِ والنومِ، ولما فكَّرَ في الزواج، حيث لا يشعر بميلٍ نحو الجنس الآخر، ولما حصلَ التناسُلُ والتوالُد، وفي نهاية الأمر لَانْقَرَضَ النوعُ الإنسانيّ.

وهناك إفراط في القوة الشهوية؛ وفي هذه الحالة يكون الإنسان متهوّرًا عدوانيًّا ينتهكُ الحرمات ولا يقفُ عند حدٍّ، وكما ورد في الحديث الشريف الذي أوردناه آنفًا: يفتحُ النوافذَ المطلَّةَ على الحرام، ويهتك الأستار، ويتخطّى الحدود، ويدخل في دائرةِ الحرام، وينتهكُ حدودَ الله ويدوسُ عليها بِقَدَميهِ.

فـ"الصراط المستقيم" هو الطريق المنزه عن كلِّ هذه الأنواع من الإفراط والتفريط، والذين يجعلون هذا النظام الإلهيَّ دستورًا لهم هم الموصوفون بأنهم أصحاب الصراط المستقيم.

فمَن هؤلاء؟

إن هـؤلاء هـم عباد الله الذين يكرهـونَ الحرامَ ويجتنبونَهُ، ويشـتهونَ الحلالَ ويأتونَهُ، وقد يتركون الحلالَ إذا وقـعَ في أنفسِهم الشكُّ فيه خوفًا من الوقوعِ في الحرام.

فهؤلاء كما أنهم يسـيرون في الطريق الوسـطِ في الشهويّات، فكذلك ينتهجونه في سائر المشاعر والأحاسيس.

فالـذي لا يثـورُ غضبُـهُ بل يظلُّ سـاكتًا خامـلًا أمام انتهـاك الأعراضِ والمقدَّساتِ، فهو يعيش حالةً من التفريطِ في مشاعر الغضبِ، في حين أن الـذي تثورُ ثائرتُهُ لكلِّ صغيرةٍ وكبيـرةٍ، ويُثيرُ زوبعةً كبيرةً تجاهَ كلِّ حادثةٍ؛ فهو على "الإفراط"، أما أصحاب الصراط المسـتقيم فيَغضبون في الأمور التي تستحقُّ الغضب، ويتحلَّون بالصبر والأناة فيما دونه.

نعم، إنّ حسّ الغضب لو لم يُودَع في الإنسان، لوقـع شرٌّ وفساد كبير، فهـذا الإحسـاسُ قد يبدو ظاهره فيه الشـرُّ، إلا أن باطنـه ينطوي على خيرٍ كثير.

وخيرُ مثالٍ لهذا هو رسول الله ﷺ:

روى البخـاري بسـنده عن أنس بـن مالك ﷺ، قَال: كُنْتُ أَمْشِـي مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْـهِ بُـرْدٌ نَجْرَانِـيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِـيَةِ، فَأَدْرَكَـهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِـهِ جَبْـذَةً شَـدِيدَةً، قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَـرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِـقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِـيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِـدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ(٦٥).

(٦٥) صحيح البخاري، الأدب، ٧١؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٨.

فـي حيـن أننا نراه ﷺ يزأرُ مثلَ الأُسـود إذا انتُهِكَ حقٌّ من حقوق الله، فيَتَّخـذ مـن الأمر موقفًا صارمًا، ولا ينصاعُ لأيِّ محاولةِ إيقافٍ أو شـفاعةٍ إلى أن يُحْكَمَ بالحقِّ.

وتُفْصِـحُ سـيدتُنا عائشـة ﵂ عن هـذه الحقيقة باختصـار: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلهِ ﷻ"(٦٦).

ولذلك فإن سـلطان الرسـل ﷺ هـو الذي يقول بـكلِّ وجدانه وكيانه: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، ويقول بكل وجدانه: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾. نعم، إن الرسول ﷺ قد صارَ بِكُلِّ ماهيَّتِهِ العُلويّةِ مَظهرًا ومَعكِسًا لهذا الأمر.

أجـل، إن أصحاب الصراط المسـتقيم لا يَثورون غضبًـا تجاهَ الأمور الصغيـرة التافِهَـةِ، ولكنهـم لا يظلّـون غيـر مبالِيـن أمـام الهجمـات التي تسـتهدف دينَهـم وأوطانَهم ومقدَّسـاتهم، فإذا اختلَّ هذا التـوازُنُ وانقلبَ رأسًـا علـى عَقِـبٍ، فإنَّ هذا يعنـي أن أصحابَ الصِّراط المسـتقيم لم يعُد لهـم وجودٌ على السـاحة، وليس هناك جماعة منتظِمة تقـول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، وأما من يَظهَرون بمَظهر "الجماعة" فليسوا إلا حشودًا من الناس، وهذا يعني أن تلك الحشود لم تؤمن بعدُ بـ"مالك يوم الدين" الذي يجـازي يومئـذٍ كلًّا بعملـه، وليس لديهـا معرفة بـ"الرحمـن الرحيم" الذي جعلَ وجهَ الأرضِ بِنِعَمِهِ مائدةً لِعِبَادِهِ، وبالتالي فليس لديها علم عن "ربِّ العالمين" الذي يربّي كلَّ شيءٍ.

والنتيجـةُ هـي: أن هؤلاء لا يُعتَبَرون مؤمنين بـأن الله مهيمنٌ على كلِّ شـيء. أجل، إننا نسـتطيعُ أن نتابـعَ كلَّ هذه الأمورِ في الفاتحة واحدةً تلوَ الأخرى، وبشكل تسلسليٍّ، وكأنها كلمةٌ واحدةٌ.

(٦٦) صحيح مسلم، الفضائل، ٧٩.

ومـن القـوَى التي أودِعت في الإنسـان "القوَّةُ العقليّـة"، فالإفراط في هـذه القـوّة يؤدِّي إلى الجَدَلِ، وبذلك تُوجَّه حشـود النـاس وتُجرَف نحو السُّـبُلِ الخاطئَةِ، ويُـزَجُّ بالإنسانية في الضلال، وتتدفّقُ سيولٌ من الكَذِبِ، فتنجرِفُ الحشـودُ وراءَ هؤلاء من دون شـعورٍ وإحسـاسٍ وكأنها أجسـام جامـدة هامـدة، فالمنطِـقُ الذي لـم يخضَـعْ للتعديـلِ منطقٌ يُسـتَخدَم في الخداع، وأما صاحب المنطق السـليم المنصف فيقول: "ضَعُوا قولي على المحـكّ؛ فإن ظهر أنه خاطئ أو سـيّئ فاضربوا به عـرضَ الحائط"، يقول ذلـك ويبيـن للآخرين كيف يُسـتخدم العقـلُ والمنطِقُ، ويوضـح الطريق المستقيم لهما.

وهنـاك بالمقابـل تفريـط في القوة العقليـة، ألا وهو "البَلَـه"، أي عدمُ الفهمِ حتى في أبسطِ المسائل وقلَّةُ التعقُّل والخَرَفُ.

أمـا الاعتـدالُ في هذه القوة فهو "الحكمة"، فهي وضـعُ كلِّ شـيءٍ في موضِعِهِ، فـ"الحكيم" من يستخدمُ عقلَهُ ومنطقَهُ في مكانِهِمَا المناسبِ لهما، إنه لا يَخدع ولا يَغش أحدًا، ولا يُظهِرُ الخيرَ بمظهرِ الشرِّ، ولا الشرَّ بمظهرِ الخيرِ، ويَظهر أمام الآخرين كما هو، وبِفِطْرَتِهِ التي هو عليها.

هـذا هو طريق المؤمن، ونحن إذ نقول فـي اليوم الواحد أربعين مرة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإننا نقصد بذلك هذا الطريق الوسط.

### و. الصراطُ المستقيمُ والنظرةُ الصحيحةُ إلى الطبيعة

مـن القـوَى التي أودِعت في الإنسـان "القوة الطبيعية". نعم، الإنسـانُ ثمرةٌ لشـجرة الخلقة التي نسـميها: "الطبيعة"، فهو قد نشأ من الطبيعة التي هي مَعرض ومَشهر للصنائـع الإلهية.

قـد يكون الإنسـانُ عابدًا للطبيعـة ومؤَلِّهًا لها، ويبحث عن كل شـيء فيها، ويربط كلَّ شيءٍ بها لأنها مَنْشَؤه، ويشاهد الكائنات ويقوِّمها بحسب لون النظارة التي يرتديها، ففكرُ المادّية الجدليّة والتاريخية والفكرُ الطبيعيُّ قد نشـآ وترعرعا في أحضان هذه الأسـس الخادعة، والحقيقةُ أن هذا نوعٌ من أنواعِ الانحراف، صحيح أن الإنسان من حيث إنه انبثق بجانبيه المادي والمعنوي عن هذا العالم، فمن الطبيعي أن يكون متعلّقًا به، ولكن لا بدّ أن يكون على دراية بأن الإفراط في هذا سـيؤدّي إلى أضرار؛ فكلُّ التيارات، بـدءًا من أقدم الأنظمـة الكومونالية، ومنها إلى اليهوديـة المؤلِّهة للطبيعة، ومنهـا إلـى المادية التاريخية، ومنهـا إلى الوجودية، وحتـى من الطبيعيين الجدد، إلى تأليهِ منتسـبي الحزب الأخضر للطبيعة، كل هؤلاء قد انحرفوا نحو الإفراط في أمر الطبيعة وخَلخَلوا الانسجام والموازينَ.

نعم، إن هؤلاء قد قالوا: "دَعُونَا نعُدْ إلى الطبيعة، ونعِشْ كما يحلو لنا، ولْنعتصِمْ بالفطرة، ونأكلْ أكلًا بسيطًا، ونشربْ شربًا بسيطًا، ونَدَع القوانين السـماوية والبشـرية، ونتحرر من كل القيود والشروط..."، فانحرفوا بمثل هـذه الأقوال والأفـكار إلى "طبيعية" مفرطة، وقلبـوا العلاقة والتوازن بين الإنسان والطبيعة رأسًا على عقب.

وبالمقابل هناك تيّارٌ آخر يترُكُ أَتْباعُه الطبيعةَ بالمرة، بمعنى أنهم "ضدّ الطبيعـة" تمامًـا. نعـم، إن الذيـن يُفكرون علـى هذا المنوال، سـواء كانوا شـكوكيّين، أو سوفسـطائيّين، أو غموضيّيـن، هـم يكونـون منغلقين تجاه الطبيعة والكون، ويتناسـون فطرتهم ومَبدَأهم ومَنشـأهم، ويعيشون موَلّين وجوههم عن الوجود والأشـياء وجميـعِ الشـؤون، فهؤلاء مِن حيث إنهم يكونون غير مبالين لقوانين الفطرة التي نشؤوا فيها، قد يأتي يوم يصطدمون فيـه بدواليب الفطرة، وينمحون عن الوجـود، والحال أن الصانـع الأعظم

الـذي نظَّـم كتاب الطبيعـة على هيئةِ مصنع وسـاعة وحَرَّكَهَـا، قد وضـع مناسـبةً بين بني الإنسـان والكونِ، ولذلك نقول: إن المنطويَ على نفسِـهِ، والهاربَ عن الطبيعة والكونِ يكون قد فرَّط من هذه الناحية.

والواقـع أنـه في كثيـرٍ من الأحيان يُنتـج الإفراطُ التفريـطَ، كما ينتج التفريـطُ الإفـراطَ، فقد أنتج تـركُ الطبيعة وهجرُها تمامًـا، التعلُّقَ بها لدى آخريـن بـكلِّ ما أوتوا من قوّة، وبهـذا الاعتبار نقـول: إن كلًا من الإفراط والتفريط في تعلق الإنسان بالطبيعة مذمومٌ، وأما الصراطُ المستقيم الوسطُ في هذا الباب -وفي كلِّ مسألةٍ- فهو ما سار عليه الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ.

لقد فهِمَ سيدُنا عمر ﷺ موضوعَ الطبيعة فهمًا جيّدًا، فكان يَعرف كيف تُـدار الدولةُ؛ كان عسـكريًّا ومجاهـدًا، وكان في الوقت نفسِـهِ ربانيًّا عابدًا زاهـدًا، فهِـمَ الدنيا فهمًا صحيحًـا، وكان مُطَّلِعًا على طبيعة الأشـياء واقفًا عليها، ويُجري معها علاقةً متوازنة، كانَ ذا علاقةٍ وطيدةٍ مـع الكون؛ يأكلُ ويشـربُ بِقـدرِ حاجتِهِ، ويأخذُ حظَّه من الاسـتراحة، يتزوَّج ويبني أسـرة، ولكنه مـع ذلك كلِّه لا يجعلُ حياتَهُ البدنيّة مهمتَه الأولى وغايتَه الأساسيةَ، فحينما ذهب لتفقد أحوال أهل ولاية الشـام ركبَ راحلةً مسـتأجَرة، وكان السرجُ الذي على ظهر الراحلة من الخشونة بحيث إنه قد أثَّرَ في سرواله، ولم يكن لدى عمر العظيم خيط يخيطُ به سرواله، فذهب إلى سوق شعبي هناك فاشترى الخيط وتنحَّى جانبًا فخاطَ سروالَهُ بنفسِهِ، ومن المحتمل أنه لم يكن له سروال آخر ليلبسه، مـع أنه كان على رأسِ دولةٍ تزيد مساحتُها عن مساحةِ تركيا بعشرين ضِعْفًا.

نعم، إنه كان في أحضان الطبيعة ولكنه لم يكن يتوجَّه نحوها بشـكل مبالَـغٍ فيه ومتجاوِزٍ للحدِّ، ولم يكن في الوقت نفسِـهِ في زهدٍ غير متوازن

بحيث يترك الطبيعة ويعصي الله ويناطح قوانينه وسننَه، فهؤلاء هم أرباب الصراط المستقيم.

إن الله ﷻ خلقَ الإنسان ورباه بصفته "التربية" وساقَه نحو الكمال، وتجلَّى بصفة "الرحمة" فرقَّى الإنسانَ برحمانيَّتِه ورحيميَّته إلى مستوى الكمالات الإنسانيّة، فنحن نحسُّ ونشعر كيف أن الله ﷻ غمرنا بالرحمة منذ أن كنّا أجنّة في بطون أمهاتنا إلى أن نكبُر ونترعرع، ونلمسُ كيف أنه يقدم لنا على مائدة الأرض التي كأنها مأدبةُ ضيافةٍ أنواعًا وألوانًا من النِّعَمِ والآلاء، وكيف أنه بما أنعم علينا من الفواكه التي تُطِلُّ برأسِها من فوق الأشجار يَلفِت أنظارَنا إلى نِعَمِ الجنة، فنستشعر بكلّ هذا أننا سنحاسَب مِن قِبل "رب العالمين"، فنلجأ إلى "مالك يوم الدين" ونطلبُ منه الهداية.

### ز. التنوُّع في طلب الهداية

إن طلبَ الهداية لا بدَّ أن يكون جامعًا دائمًا لكلِّ أنواعِ الهداية.

ما الذي يعنيه طلبُ الهداية بالنسبة لجماعةٍ اصطفَّت خلفَ الإمام، وتوجهتْ نحو الكعبة، وجددتْ بيعتَها متصوِّرةً بخيالها كأنها واقفة خلف النبي ﷺ؟ نعم، ما المقصود بطلب الهداية بالنسبة لجماعة اتَّبعت النبيَّ ﷺ بكل مشاعرها وكيانها، أَلسنا على الهداية؟ ألم نصطفَّ خلف الرسول ﷺ وأَلَمْ نولِّ وجوَهنا شطرَ المسجد الحرام؟ ألم نعلن على الملإ أننا نؤمن برب العالمين إذ قلنا: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؟!

نعم، قد فَعَلْنا كل ذلك، ولكن لماذا نطلبُ الهداية مع كلِّ ذلك ونقولُ: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، وكنْ رفيقنا في الدرب، واذهبْ بنا إلى آخر المراحل؟

فيُفهم من هذا أن كلمةَ الهداية لها معنى آخَرُ غير المعنى الظاهري، أو أن للهداية أنواعًا ومستويات؛ أوّلها التخلُّص من الكفرِ إلى الإيمانِ، والضالُّون حينما يقولون: "اهدِنا" فإنهم يطلُبُون التخلُّص من ضلالِهم، وأما الذين آمنوا إيمانًا تقليديًّا فيقصدون بذلك: "اللهم خلِّصْنا من التقليدِ، واسقِنا شرابَ التحقيق الذي هو ماءُ الحياة، وأَطْلِعنا على حقائقِ الأشياء"، فهؤلاء يطلبُون كمالَ الهداية التي نالوها، وأما الكاملون، فإنهم إذ يقولون: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ فإنهم يعنون بذلك: "اللهم أَدِمْ علينا هدايتك، وارزقْنا القيامَ بحقِّ الأمانة إلى آخرِ لحظةٍ، وإلى أن تبلُغَ الروحُ الحلقومَ، ووفِّقْنا لأداءِ الأمانةِ".

وقد تختَلِجُ في صدورنا أفكارٌ كفريّة فتحيط بأرواحنا، وقد تتفلَّتُ من ألسنتِنا فتجرح قلوبنا وأفئدتنا، ومَن يدري كم مرة في اليوم الواحد ينحو خيالُنا نحو الفسق فيَجْرفُنا من ورائه؟ ومن يدري كم مِن مرّة تتعلَّق وتتبعثَرُ مشاعرنا العُلْوية السامية بالكلاليب التي يعلّقها الخيال، فننساق بها هادرين؟ وإذ ننجرفُ وننساقُ؛ نُطفئُ مشاعرَنا العُلْوية ومَلكاتِنا وقابلياتِنا، فالإنسان الذي يكون في حالةٍ كهذه، حينما يردِّدُ في اليوم الواحد أربعين مرة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾، آخِذًا كلَّ هذه الأحوال بعين الاعتبار كأنه يقول: "يا ربِّ! أحمدك لأني على الهداية، وهذا يتطلّب مني إبداء مشاعرِ الشكر والثناء، ولدوام هذه الهداية لا بدَّ لي من النقاء من شتى أنواع الخلل والأدرانِ، وينبغي عليَّ الابتعاد عنها، والحال أنني من بني الإنسان المفطورِ على النسيان، وأكبو وأتعثَّرُ على الدوام، فكذلك أطلبُ منك الهداية في كلِّ دقيقةٍ حتى لا تُغرِقني أخطائي تلك وحتى لا تؤدّيني ذنوبي إلى الكفر"، يقول ذلك ليُزيل ما عَلق بحياته وكيانِه المعنوي وعالمِه الروحيّ والقلبيّ من السخام والصدإِ والغبارِ والترابِ.

فلذلـك فإننا نحـن المؤمنين ملزَمون ومكلَّفون بأن نقول على الدوام: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

نعـم، "الصراط المسـتقيم" هو الطريق المـؤدّي إلى الحقِّ، وقد تكون لطريـق الخيـر مُنْعَرَجَاتٌ ومحطَّات بهـا أنواع من الشـرور هي بالمرصاد للإنسـان، وخَلْـقُ هـذه الشـرور أيضًـا ينطـوي علـى جوانب مـن الخير؛ لا شيء يخرج من إطار قوانين الله خيرًا كان أو شرًا، وأحد جانبي الصراط المسـتقيم هو معرفة الشـرِّ والحـذر والاجتناب منـه، والجانب الآخر هو معرفة الخير والتواصي به وتهيئةُ المناخِ لإحياء الخير.

## آيةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

الإنعام: هو إيصال الإحسان إلى الغير، وفي تعديته بـ"على" إشارةٌ إلى أنـه ينـزلُ من عَـلٍ، وفي هذه الآية أنه ينزل مِن لـدُن مَن هو حاكمٌ وغالبٌ علـى كلّ شـيءٍ، وأن علينا نحن العباد الشـكر على هـذا الإنعام. نعم، إنه بحرف الجر هذا (على) حصل التنبيه إلى ما نحن مكلفون به ومسـؤولون عنه، مـع بيان عظمة الله وربوبيَّتِهِ ﷻ.

### أ. الإنعامُ، ونعمةُ الاستفادةِ من النعمة

"الإنعـام" يتضمَّنُ أيضًا اسـتفادة الإنسـان وتلذُّذَه بالنعمـة، إن الله ﷻ يعطينـا النعمـة ونحن بدورنا نتنعم بتلك النعمة ونتمتَّـع بها، فها هي ماهية "الإنعام"، أي الإنعامُ ذلكَ الفعلُ الذي فاعلُه هو اللهُ مندمجٌ فيه تمتُّـعُ الذين أُنعِـمَ عليهم بهذه النعمـةِ، والتلذُّذ إنما تحصَّلَ بالنعمةِ ذاتِها، ولذلك نعتَبِرُ الاسـتفادة مـن النعمة نعمةً، فكـم من صاحبِ نعمةٍ لا يسـتفيدُ من النعمة التـي يملكهـا؛ فترى الرجلَ يملك الخبزَ والزيتَ والملحَ والسـكَّرَ، ولكن ذائقَتَـهُ مفقـودةٌ، وترى الشـخص يملك المال والثروة ولكـن في حنجرتِهِ وَرَمًا خبيثًا، فلا يستطيـع أن يأكلَ ويستفيد من الطعام إلا ما كان مائعًا مثل العصيدة ونحوها، وكم من أناسٍ وُلدوا وترعرعوا في بلدٍ إسلاميٍّ ولكنهم فـي الحقيقة عُمْيٌ غافلون عـن الحقائق التي يرونها أمامهم منذ أن وُلِدُوا، وأمرُهم كما ورد في المَثَلِ: "كم من سمكٍ يعيش في البحر لكنه لا يدري عن البحر شيئًا".

إن أعظـمَ النِّعَـمِ هو الإسـلام؛ فهو مـن العظمة بحيث إنـه نعمةٌ ليس فوقهـا نعمـة، ولكن يا لها من فجاعة أن يكون الإسـلامُ يَعرِض نفسَـه كلَّ يومٍ مراتٍ عديدة بكلِّ عَظَمَتِهِ وشمولِهِ، وبالمقابل ترى هناك مَن تربَّى في ظلِّ المآذن وتحت قبب المساجد ولكنه لا يستفيد من هذه النعمة الكبرى؛ فتراهم يسمعون دويَّ الصرخات التي تهتف بـ"الله"، ولكنهم يا للأسف لا يعيرون لها سـمعًا، وكم من "أبي طالب" أشَـعَّتْ بمقرُبة منه الشـعلةُ التي لا تخبو والتي أنارها سـلطانُ الأزل والأبد، لكنك تراه لم يسـتفدْ من هذه الشـعلة ولـم يقتبس منها ولو لمعةً، مـع أنه احتضنـه أربعين عامًا، ولذلك نقـول: إن وجودَ النعمة ليس هو كلّ الأمر؛ فالاسـتفادة من النعمة بجانب النعمة ذاتِها لا تقلُّ عنها من حيث الأهمية والخطورة.

إن الأمـور التـي تَجري في الكون متداخلةٌ ومعقَّـدَةٌ بحيثُ إن الإنعامَ إذا لم يُسنَد إلى الله ﷻ فلن يمكن فهمُ أيِّ قضيّة، فلذلك نُسنِد فعلَ الإنعامِ إلى الله تعالى ونقولُ: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾، فالأمر لله لا لأصحاب السلطان والملوك، إنما هو لله صاحب الملك والملكوت الذي بيده مقاليدُ كلِّ شـيءٍ، والذي ليس الزمان والمكان بالنسـبة لعرشِـهِ العظيم إلا بمنزلةِ حلقةٍ صغيرةٍ أُلقيت في فلاة، فنحن إذ نقول: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ نستشعر هذا بكل أحاسيسنا ومشاعرنا، ونحاول أن نُسمِع ذلك أرواحَنا.

وبمـا أننـا نحتاج إلـى نِعَمٍ لا متناهيـة أعطانا اللهُ ﷻ نعمًـا لا متناهية: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَـأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ (سـورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٣٤)، فنحن لن نسـتطيـعَ جَلْبَ هذه النعم من شتى جوانـب الكـون لا باسـتحقاقنا ولا بقُدُراتِنـا؛ فـكلُّ ذلك إنما يتـمُّ بِلُطْفِ الله ﷻ بنـا، وكمـا أن إتيـان النِّعَمِ لطفٌ منـه تعالى فكذا تحقيق اسـتفادتِنا من تلك النعم لطفٌ منه ﷻ.

**ب. أنواع النِّعَم**

يمكـن تقسـيم النعم التـي حبانا الله بها إلى قسـمين: دنيويّة وأخرويّة، كما يمكن تقسيمها من ناحيةٍ أخرى إلى وَهْبيَّة وكَسْبيَّة، ومن ناحية أخرى إلى مادِّيّة ومعنويّة.

فـالله ﷻ مَنَحَنـا الحياةَ باعتبارها نعمـةً معنويَّة؛ حيث إننا، على خلاف الكائنـات الحيّـة الأخـرى التـي لا تسـتطيع أن تُجـري المناسـبة إلا مـع محيطها المكاني، متحرِّرُون من ذلك، ولذلك نسـتطيـعُ أن نعقد المناسـبةَ مـع كلِّ الأمكنة وندخلَ في علاقةٍ مـع وجه الأرض ذي الألوان المتعدِّدَةِ، فهذه ثمرةٌ خاصّةٌ نفخها الله فينا، وأثرٌ من آثارِهِ، ونفحةٌ من نفحاتِهِ.

ومن بين النعم المعنويّة التي حبانا الله بها: العقلُ والشعور والإدراك، بالإضافة إلى نعمةٍ نستطيـعُ أن نستشعرَ بها كلَّ ما ذكرنا من النعم، ألا وهو "الوجدان" الذي هو أصلُنا وجوهرُنا.

وأما النِّعَمُ المادِّيَّةُ، فإن الله ﷻ قد أعطى كلَّ واحد منَّا -مثلًا- عينين وأذنيـن وأنفًا وفمًـا ونحو ذلك من الأعضاء، فبكلِّ هذه الأعضاءِ نسـتفيدُ من النِّعَمِ الظاهرة التي يُنعِمُ الله بها علينا، فنسـتفيدُ بأفواهِنا من النعم التي يسـتفاد منهـا بالفـم، ونسـتفيد بأعيُنِنَا من النِّعَـمِ التي يُسـتفاد منها بالعين، وهكـذا... وكذلـك فقد أسَّـسَ الله ﷻ بفضلِهِ تناسـبًا بيـن الأصوات التي تَمُـوج فـي الكون وبين آذاننا، فلا تـؤدِّي الأصواتُ بِصَخَبِها الشـديد إلى خرقٍ في أغشيةِ آذانِنا ولا تضربُها.

وبعـض هـذه النعم وَهْبيَّةٌ قد أعطاناها اللهُ ﷻ؛ فليس لنا أيُّ دخلٍ وأيُّ دورٍ فـي تحصيلِهـا، فـكلُّ الأعضاءِ التي تتشَـكَّلُ عنها أبدانُنـا، والملكاتُ الروحيّة التي مَنَحَنا اللهُ إيّاها وهبيَّةٌ، وليس للإنسـان فيها إلا أن يكون سـببًا فـي تطـوُّرِ هذه النعم أو ازديـاد بعضها، ومهمَّتُه في هـذا المجال ليس إلا الدعاء والشُّكر.

ومن النعم التي أنعم الله علينا مغفرةُ الله ﷻ لأخطائنا التي نرتكبها من أمثال إفراطِنا وتفريطِنا، وتقصيرِنا في عبوديَّتِنا، وتجاوُزِنا للحدِّ، وإساءتنا لاستخدام قُدُراتنا، فمغفرة الله لنا عن كلِّ ذلك من باب النعم الأخرويّة، وكذلك تهيئةُ الله قلوبَنا لقبول الإيمانِ، وكونُ الجنَّة مُعَدَّةً لنا، ووجودُ شوقٍ عارمٍ في جوانحنا تجاه الجنة؛ كل ذلك من النعم الأخروية.

إنك -أيها الإنسان!- كما تُحِبُّ الزهرةَ والربيع وتشتاق إليهما تشتاق إلى الجنة ومشاهدةِ جمالِ الله -ذلك الجمال الذي ليست الجنةُ إلا جلوةً واحدةً من جَلَواته-، إن هذا الشوقَ نحوَ الخلودِ والبقاءِ لا يمكن أن يكون نابعًا منكَ أنتَ الفاني؛ فهذا الشوق لا بدَّ إلا وأنه قد أتى من باقٍ لا فناءَ لِذاتِهِ وصفاتِه وهو الله ﷻ، وهذا يعني أن ما في قلبك من الشوقِ العارِمِ نحو الجنّة، وانعكاسَ قولِه تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ**﴾ (سورة يُونُس: ٢٥/١٠) على روحك، وإحساسَك بصداه في فؤادِكَ، وسيرَك في الطريق نحو دارِ السلامِ بأملٍ ورجاءٍ، ووصولَكَ إلى هذا الهدف بأمان؛ كل ذلك من هدايا الله لَكَ وألطافِهِ، وليس لك في أيٍّ من ذلك دَخْلٌ.

والنعم الأخروية أيضًا منها ما هو مادّيٌّ وما هو معنويٌّ؛ فبعضُ هذه النعم تكون على هيئة المعرفة الإلهيّة بحيث إننا نحسّ بلذّتِها في وجداننا ونتذوَّقها في ضمائرنا؛ في حين أن البعضَ الآخر منها قد أُعِدَّت بحيثُ تُلَبّي رغباتِنا الجسمانيّة.

فنحن إذ نقول: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ فإننا نقصد بذلك: اللهم اهدِنا طريقَ تلك الزمرةِ الصالحة التي حَظِيَتْ برضاك وأحْرَزَتْ كلَّ هذهِ النِّعَم والألطافَ الدنيويّة والأخرويّة؛ والماديّة والمعنويّة، والوهبيّة والكسبيّة.

ونحـن نحظى على الـدوام بآلاف من نعم الله التي تنهَمِرُ علينا، وكثيرٌ من هذه النعم ذات قيمة كبيرةٍ بالنسبة لنا.

إن حـقَّ الحياة الذي مُنحَ لنـا، والوعيَ الفرديَّ والاجتماعي، وكذلك المجتمـع الذي يتشـكَّلُ بوازعٍ مـن هذا الوعي، وصلاحَ هـذا المجتمـع؛ كلّ ذلك من النعم العظيمة التي نعجزُ عن أداء شكرِها، ومن جانب آخر، بالإضافـة إلـى النعم التي لن نحصيها والتـي تتحلَّى بها حياتُنا، قد فُتح لنا المجال لأن نُزيّن حياتَنا بالعِلم والعمل الصالح، كما أن بانتظارِنا في نهاية المطاف التشـرُّفَ بالجنة والجمال السـرمديّ، وغيرها من النعم التي تَبثُّ فينـا مشـاعرَ التقدير والانبهـار، وبالأحرى فإن الله قد مَنَحَنـا بِلُطْفِهِ وكَرَمِهِ "حُريةَ الإرادة" التي نَصِلُ بواسطتها إلى هذه السعادة، فهذه نعمة تعجز عن وصفها الكلمات.

نعـم، إن الحريَّـةَ نعمـةٌ عظيمـةٌ، وأبهـى أشـكال هذه النعمـة إنما هو العبوديّـة لله؛ فنحـن إذا سـلَّمْنا أنفسـنا للحـقِّ ﷻ فحينذاك نُحْـرِزُ الحريّة الحقيقيّة، وما أحسنَ ما يعبّرُ مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة حيث يقول:

*كلُّ رقيقٍ يسعدُ حينما يُعتَق*

*وأنا وجدتُ سعادتي في الرِّقِّ*

إن الله ﷻ قـد منحَنـا الحرّيَّةَ حينما رَبَطَنـا بِذاتِهِ، فالحريَّةُ عبارةٌ عن أن يكونَ الإنسـانُ مالكًا لحقوقه، والإنسـانُ الذي لا يملك ما يدبّرُ بهِ شؤونه أسـيرٌ ورقيقٌ، فلذلك نقول: إن السـعادةَ والحرية فـي اتباع قوانين الله، أما القوانيـن والأحـكام التي تخالف أحكامَ الله فتأسِـرُ الإنسـانَ وتقيّده بقيودٍ تسـلبُ السعادة منه، فإن الذي لم يذقْ طعمَ العبودية لله لا يمكن الحديثُ عـن حريته، فإذا كان المرء يسـتطيع أن يقـول: "أنا حرٌّ لأني عبدُ الله"، فها هو التوحيد.

إن الحريـة لا يمكـن تصوُّرُها بمعزلٍ عن العبوديـة لله؛ فبينهما تلازمٌ؛ بمعنى أن الذي لم يَستشـعر حقيقةَ العبوديَّة لله استشـعارًا تامًّا، ولم يتشبَّع بهـا، فلـن يَعـرف -بتاتًا- ما هي الحريّـة، فقلبُه مشـحونٌ بعديد من الآلهة المتوهَّمـة، بحيـث إن كلَّ من يملكُ القوَّة يسـتطيع أن يكون إلهًا له؛ لأنه لم يستطع الوصول إلى التوحيد في قلبه، ولم يركز قلبه على نقطةٍ واحدة، ولـم يتنفَّـسْ أجواء الحريّة، والأدهـى والأمرُّ في هذا الأمـر أنَّ المجتمع الـذي يتشـكَّل من أمثال هـؤلاء الأفراد يكـون مجتمعًا دائبًا على الأَسْـر، والسبب في هذا هو كفرانهم لنعمة الحرية. نعم، إن الله يسلب نعمة الحرية عن الذي لم يُقدِّرْها حقَّ قدرِها.

### ج. صراطُ الذين أنعمَ الله عليهم

يمكن أخذُ "أنعمتَ عليهم" على إطلاقه كما يمكن أخذُه على "صراطَ الذين أنعمتَ به عليهم" بتقدير "به" أي "بذلك الصراط" فتكون النعمة هي الصراط نفسه.

ومهما كان المراد فإننا نفهم من الآية الكريمة أن هذا الطريق طريقٌ قد بزغ فيه مِن قَبْلِنا أشـهرُ الناس وأقواهم صِيتًا ولمـعَ نجمُهم ثمّ غابوا، فهم نجومُ الإنسانية وشموسُها، إن هذا الطريق سلكه آلافٌ من المنوَّرين، وهو الطريق الذي أدَّى إلى مئاتٍ من الدول التي أُسِّسَتْ على الأصول الدينيّة، إن هذا هو الطريق الذي سـارَ عليه الأنبياءُ من لدن آدم إلى سـيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام...

إننـا نتوجَّـهُ إلى الله بكلِّ كياننا قائلين: اللهم إننا نسـألك طريقَ أولئك الذين لا ندرك ماهيَّتهم ومدى سموِّهم، ولكنهم يَحْظَوْن لديك بقيمةٍ فائقةٍ إذ إنهـم يحظَـون بنعمةٍ منـك، فاهدنا إلى طريقهم حتـى إذا تحدَّثَ الذين سيأتون مِن بعدِنا عنهم، نكون نحن أيضًا مندرجين في عِدادهم.

إنني أريدُ أن أركِّزَ على هذه النقطة بالذَّات؛ وهي أنه سيأتي يومٌ، وسيُذكر الذين يَملؤون المساجد في أيامنا هذه، فإذا قيل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فسنكون مندرجين ضمنهم، فالإنسان حينما يلهجُ لسانه بهذه الجملة؛ يهيج بداخله شوقٌ واشتياقٌ، وكأنه يقول فيما بينه وبين نفسه: ينبغي أن أخلِّف لمن بعدي ميراثًا بحيث يمكن الاستفادة من ذلك العمل الذي لا ينقطع خيرُه، حتى يَذْكُروني بالخير، ويَدْعُوا لي.

وآيةُ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سورة النِّسَاء: ٦٩/٤) تعيِّنُ المرادَ من قولِهِ "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم"، أي اهدِنا صراطَ النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وفي حديث المعراج يتحدَّثُ الرسول ﷺ عن رؤيتِهِ للأنبياءِ كلًّا على هيئتِهِ الخاصَّةِ به، وأنهم أعلنوا علاقَتَهم بالنبيّ ﷺ، وهذا المشهدُ ذو أهمّيّة فائقةٍ من حيث بيانه لمدى نورانيّة الكوكبةِ الذين نتبع خطاهم، وفي هذا تحفيزٌ على الاقتِداءِ بهم والسيرِ خلفَهم.

إن هذا المشهدَ من الروعةِ بحيث إن الجماعات المؤمنة إنْ أدركتْ معناه بروحِها وخيالِها، فإنها ستؤدّي عبوديَّتَها لله بذوقٍ وشوقٍ، لأنها ستحسّ بأنها تسير على خُطَى النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين.

### د. صراطُ غيرِ المغضوبِ عليهم

الغضبُ حالةٌ نفسيَّةٌ يُرادُ منه هنا لازمُهُ وهو إنزالُ البلاءِ والعذابِ، فـ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم﴾ يعني "صراط الذين لم ينزلْ عليهم البلاء، ولم يُعَرَّضوا لعذابِ الله"، لكن الغضبَ لا يلزمُ منه البلاء والمصيبة دائمًا، فقد يكون غضبٌ ينطوي على رحمة، فلا يَبدأ الغضبُ دائمًا من النقطة

التي تنتهي فيها الرحمة، كما لا تنتهي الرحمة دائمًا من حيث يبدأ الغضب، بل قد يكون ضمنَ الغضب رحمةٌ، فمثلًا يَقتلُ إنسانٌ إنسانًا؛ فالشريعة تقف من هذا القاتل موقفَ الغضب -إن صحَّ التعبير- وتَأْمُرُ بِقَتْلِهِ، ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾، فنحن كذلك نغضبُ على ذلك القاتل باسم الشريعة، لكن لا يعني هذا الغضبُ عدمَ الرحمةِ؛ لأن هذا الحكمَ ينطوي على رحمةٍ تجاه المظلوم ومهضومِ الحقّ، وكذلك المجتمعِ والحياةِ الاجتماعية، أي إن في هذا الغضب رحمةً خفيّة، وسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ الرَّحْمَةَ وَالْغَضَبَ!

وما دام الإنسان متوجّهًا إلى الله بحياتِهِ الروحيّة وعالَمِهِ القلبي يكون الغضبُ بالنسبة له عينَ الرحمة، نذكر في هذا الصدد قول الرسول ﷺ: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**"(٦٧).

فنحن إذ نقول ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عليهم**﴾ نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الذين تعرَّضوا لِغَضَبِ الله، وانحرفوا عن سبيله ﷻ.

### هـ. صراطُ غير الضالين عن الحقّ

وأما ﴿**الضَّالِّينَ**﴾ فهو من الضلال وهو الانحراف، والضلالُ عَمًى وعدمُ إعمالٍ للعقل ووقوعٌ في الحيرة، هذه الأمور قد تكون سببًا للضلال وقد تكونُ نتيجةً له، إذ قد يقعُ الإنسان في الضلال وعلى إثر ذلك يتعرَّضُ للسَّفَهِ والعَتَهِ والخَرَفِ والحيرة، فكأنّ بين الضلال وهذه الأمورِ تلازمًا، هذا يستلزم هذه وهذه تستلزم هذا. نعم، إننا إذ نقول: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ نتضرَّع إلى الله ﷻ ونسأله أن لا يزجَّ بنا إلى سبيل الذين يتخبَّطون في الضلال في حيرةٍ وارتباك، ولا يبصرون الوجه الناصعَ للحقِّ والحقيقة.

(٦٧) صحيح مسلم، الزهد، ٦٤.

وحـرف التعريف (أل) في كلمتَـيْ ﴿**الْمَغْضُوبِ**﴾ و﴿**الضَّالِّينَ**﴾ إذا كان للاسـتغراق يكـون المقصـودُ جميعَ الذيـن تعرَّضوا لِغَضَـبِ الله وجميعَ الذيـن وقعوا في الضلال، ونكون قد التجأنا إلى هداية الله حتى لا نسـقط في الطريق الذي سَلَكَهُ هؤلاء.

ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: "**إِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَـارَى ضُلَّالٌ**"(٦٨)، لكن هـذا الحديث لا يفيد حصر المغضوب عليهم والضاليـن في هاتيـن الطائفتين، وقد قُصد بهما في القـرآن الكريم اليهودُ والنصارى وغيرُهم، فكأن الحديث يفيد أن أقرب المعارضين للمسـلمين هـم اليهـود والنصارى، ونعوذ بك اللهم مـن أن نُدفـع ويُزَجَّ بنا إلى طريق مَن تعرَّضوا لغضبك وضلُّوا.

ومـن هذه الزاوية يمكن أن يقـال: إن جميـع الكفار -مِن أَهونهم إلى أَشَـدِّهم- تعرَّضُوا نوعًا ما لغضبِ الله، وانحرفوا إلى الضلالة بشـكلٍ من الأشكال.

فكيـف كان حـالُ اليهودِ والنصـارى في العهدِ الذي نـزل فيه القرآن، ولمـاذا وُصفوا بأنهـم مغضوبٌ عليهم وضالُّون؟ فالآن لِنُلْقِ نظرةً سـريعةً على ذلكَ:

إن بعـضَ اليهـود كانـوا قد حرّفوا التـوراةَ، وكانوا يقولـون عمَّا كتبوه بأيديهـم: "هـذا كتـابُ الله"، وكان زعماؤهم الروحانيّون يشـرحون كتابَ الله علـى حسـب أهوائِهم، ويقدّمون شـرحَهم للناس علـى أنه "كلامُ الله"، وكانـت الأنظـارُ متوجّهـةً تمامًا نحو المـادّة؛ فكانوا يحاولـون أن ينتزعوا الإيمان من القلوب ويُحِلُّوا الرفاهَ المادِّيَّ والسـكينةَ والسـعادةَ المادِّيَّتَين محلّـه، وكان الأنبيـاءُ الذين يحاولون بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ أن يحوّلوا هذا

(٦٨) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢.

الوضـعَ المنحـطّ بهـذه الدرجةِ، ويوجّهـوه من الكثرةِ إلـى الوحدةِ، ومن الباقـي إلى الفاني يُقتَلون بأيدي أولئك شـرَّ قتلـة، وتُداهَمُ منازلُهم، وتنفَّذُ فيهم أحكام الإعدامِ بكلِّ سهولةٍ، ويُنشَرون بالمناشيرِ نِصْفَين.

والواقـع أن اليهودَ كانوا قد انمحوا عن السـاحة المعنويّة عقبَ مُلْك سيدنا سليمان عليه السلام وقُوِّضتْ أركانُهم وأفلَسوا، فأعقبَ هذا الدمارَ المعنويَّ الدمارُ المادِّيُّ، حيث إن المادَّةَ تتبعُ المعنى، فلم يَعُد الحكّامُ الذين جاؤوا بعد سـليمان عليه السلام يسـتطيعون أن يواصلوا السـيطرةَ على اليهود، فإذا بهم تتعاقَبُ عليهم فترات الأَسْرِ، وكان اليهوديُّ يُستَحقَر ويُستذَلُّ حيثما ارتَحلَ أو حَـلَّ، ولذلك كان يحاوِل أن يحافظَ على وجوده عن طريق الجمعيات السِّـرِّية التي أَسَّسَـها، ولكنه جرَّاءَ سـلوكِهِ هذا المسـلَكَ الخاطِئَ كان يُثيرُ الريبـةَ والشـكَّ حتـى في أقربِ المقرَّبيـن إليه، وبذلـك كان يَفقد الجدارةَ بالرحمة وحقَّ الاستفادة منها، سواء على المستوى المادِّيّ أو المعنويّ.

فانظروا إلى هذا المشـهد، ولاحِظـوا كيف لازَمَهم هذا العار والتصقَ بِجَبِينِهِم، وإياكم -يا أمةَ محمد ﷺ- أن تستبدلوا المادَّة بالمعنى؛ فتتورَّطوا في الهاويات التي سـقطت فيها تلك الأمة السـالفة، ولا تنحازوا إلى تربُّعِ المـالِ والاقتصادِ والرفاهِ المـادِّيّ والدعةِ ورغدِ العيشِ على أفئدَتِكم بدلًا عن الله جل جلاله، وحاوِلوا إرشادَ الناس إلى الطريق المستقيم الذي هو الطريق الحـقّ، سـائرين على نهج الرسـول الأكـرم ﷺ وفي إطار ما جـاء بها من الحقائق، لأن الناس يُلدغون دائمًا من نفسِ الجحور، ويفسُدون بالمفاسد نفسها، ويتعرضون لغضب الله تعالى بالأسبابِ نفسِها...

والنصارى أيضًا حرّفوا الإنجيل، وأوصلوا عدد الأناجيل إلى المئات. نعم، فإلى حين اجتماع "إزنيق" وإنزالِ عدد الأناجيل إلى أربعةٍ كان هناك مئـات مـن الأناجيل يناقـضُ بعضُها بعضًـا، وكان الصراعُ بيـن المذاهب

والشجارُ يُنهِكُ النصرانيّة، كيف لا وقد كان المنطِقُ معزولًا عن منصِبِهِ، والعقلُ سجينًا!؟ وكان قد ضُرِبَ ختمُ: "ممنوع" على قفا كلٍّ من المنطِقِ والعقْلِ، فكلاهما لم يكن يستطيع دخول المعبد، والذي يأتي إلى الزعيمِ الروحاني ما كانَ بإمكانِهِ إصحابُ عقلِهِ ومنطِقِهِ معه، بل يرميهما بعيدًا ثمَّ يأتي، وكانت النصرانية تؤمن بالتثليث من دون الاستناد إلى أيِّ برهانٍ عقليٍّ، وكان الإلَـهُ عندهم واحدًا وثلاثة في الوقتِ نفسِهِ! وكان الزعماء الروحانيون الذين حادُوا عن الطريق إلى هذا الحدِّ يبيعون أراضي الجنة في المعابِدِ بكلِّ سهولَةٍ، ويدَّعون أنهم يُنقِذون الناسَ من نارِ جهنّم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا، وكان "الصراط المستقيم" قد صار منذ أمدٍ بعيدٍ طَيَّ النسيان، وهُجِرَ سبيلُ سيدنا عيسى عليه السلام، وبالتالي فإن هؤلاء كانوا في الانحراف والضلال ولو كانوا غارقين في جميع نِعَمِ الدنيا.

فنحن نتضرع إلى الله تعالى أن يحفظَنا من الانحراف والانجرافِ إلى طريق هؤلاء ونقولُ: "اللهم لا تدفع بنا إلى طريقهم"، ونستصرخُ قائلين: "آمين"، طلبًا لاستجابة هذا الدعاء الشاملِ العام.

# "آمِين"

كلمـة "آميـن" معناهـا: "اللهـمَّ اسـتَجِبْ"، ونعنـي بقولنا: آميـن، أننا بالفاتحـة نقـدِّم إلـى الله عبوديَّتنا، ونسـأله ﷻ أن يُحَقِّقَ لنا مـا نحتاج إليه ونتكفَّفُه.

فـي الصحيحيـن عن أبـي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: "**إِذَا أَمَّنَ الإِمَـامُ فَأَمِّنُـوا، فَإِنَّـهُ مَنْ وَافَـقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِيـنَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَـا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**"[٦٩].

وفي سـنن ابن ماجه: كان رسـول الله إذا قال: ﴿**غَـيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّـينَ**﴾ قـال: آميـن، حتى يسـمعها أهـل الصـفِّ الأول فيرتجّ بها المسجد[٧٠].

---

(٦٩) صحيح البخاري، الأذان، ١١١؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٧٢.

(٧٠) سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٤.

## الخلاصة

والآن لنُلَخِّصْ ما سردناه من بداية الكتاب إلى هنا فنقول:

كما أن القرآن الكريم جامعٌ لجميعِ الكتب والصحف السابقة، فكذلك سورةُ الفاتحة الجليلة جامعةٌ وحاويةٌ لملخَّصِ ما في القرآن الكريم، وإننا إذ نقول هذا لا نقوله لأن القرآن كتابُنا الذي نؤمن به ونعظِّمه، فمن يمعنِ النظرَ في كلماتِ القرآن ويقفْ عندها بحساسيّة ودقّةٍ بالغةٍ، فسيشاهدُ ترابُطَها المحكمَ الوثيق، وهذا الأمر كما هو موجود في القرآن موجودٌ في الفاتحة أيضًا؛ فالفاتحةُ مع أنها تتحدَّثُ عن حقائق عميقة جدًّا، وواسعةٍ للغايةِ، ومتفرقةٍ بعضها عن بعض لكنها في الوقت ذاتِه تبدو وكأنها آيةٌ واحدةٌ؛ فلو قرأنا من: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وانتهينا إلى ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ وقلنا عقب ذلك "إننا قرأنا آيةً واحدةً"؛ لا نُعَدّ من الكاذبين.

أجل، إن الفاتحةَ مع أنها سبعُ آياتٍ لكنها في انسجامِ آيةٍ واحدةٍ وتناغمِها؛ فإذا كانت آيةٌ منها سببًا فالآيةُ التي تليها نتيجةٌ مترتبة على هذا السبب، وإذا كانت آيةٌ منها تتحدث عن حكمةٍ، فإن الآية التي تليها تُبين سبب تلك الحكمة وغايتَها، وإذا كانت آية منها تتحدَّثُ عن قضية لها علاقة بالحياة الاجتماعية، فإذا بالآية الأخرى تشرح قوانين تلك القضيَّة وأُسُسَها، وبالتالي فسواء كانت الحقائقُ التي يتمُّ تناوُلُها أخرويّةً أو دنيويّة؛ فبينما تُبيِّنُ آيةٌ ما وجهًا معيَّنًا، تُبيِّنُ الآية التالية الوجهَ الآخر.

وختامًا تعالوا بنا لنتطرَّقْ باختصار إلى شرحِ هذه الأمور واحدًا تلوَ الآخر، ولو على شكل نقاطٍ صغيرة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه هو الله، فالمناسَبَةُ بين "الله" و"الحمد" قويّة إلى هذا الحدّ، ولماذا الحمد "خاصٌّ" بالله؟ لأنه "ربُّ العالمين"، إنه مربّي كلّ شيءٍ، فمثلًا إنه لم يَدَع الإنسانَ في مرحلة الجُزَيْئات، فأَبلَغه بالتربية إلى مرتبة الكمال، ثم أَوصله إلى مرتبةٍ بحيث سجدَتْ له الملائكةُ، ألا يُحمد اللهُ الذي يربي الإنسان بالتربية القرآنيّة العظيمة؟!

إنه ربُّ العالمين، والحمدُ خاصٌّ به ﷻ؛ لأنه هو "الرحمن الرحيم". نعم، إن آثارَ رحمتِهِ تُشاهَدُ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ الوجود؛ ففي سيماء الإنسان، وفي تصرُّفاتِ الإنسان وعيشِهِ، وفي كلِّ ذرَّةٍ من ذرّات معنى الإنسان وماهيَّتِهِ يُشَاهَدُ أثرٌ من آثارِ رحمتِهِ ﷻ، فهل من المعقولِ أن لا يُصدَّقَ بأنه ربُّ العالمين مَن جعلَنا نُحِسُّ بآثارِ رحمتِهِ في كلِّ شيء ومِن وراءِ كلِّ حدثٍ؟ وكيف لا يُسلَّم بربوبيّة الله في كلِّ حادثة مع أنه الذي يُرِي رحمتَه في كلِّ ذرّة؟ فالحمد مخصوصٌ بِهِ جلَّ شأنه.

فأنت في هذا المقام ستَشعُر وتحسّ بالحمد، وستعرفُ الربّ، وتولي وجهك وتسير نحوه. نعم، كما أنه ربَّاك، فهو الذي سيحاسبك على ما أسدى إليك من الإحسانات؛ فإنه "مالكُ يوم الدين"، فعليك أن تحمده هو ﷻ.

نعم، إن تَسلسُل الآياتِ وتَعاقُبها يوجّهُ الأنظارَ إلى "الرحمن الرحيم" قبل أن يوجِّهها إلى "مالك يوم الدين"، فيوقظُ في القلب الإحساسَ بالرجاء، وكأنَّه يقول: انظر إلى "الرحمن الرحيم" قبل أن تنتَقِلَ إلى "مالك يوم الدين"، واملأ قلبَك بنسائمِ الرحمة، ثم استذكِرْ المحكمةَ الكبرى، فخَفْ عذابَه، وفي ضوء ذلك اخطُ خطواتِك...

فهـذا هـو الطريق الوجداني المرتبط بالعوالـم الربانية، طريقٌ ذو آفاقٍ ماورائيّـةٍ يـؤدّي إلـى التربيـة والكمـالاتِ الإنسـانيّة في ظـلِّ رحمانيَّة الله ورحيميَّتِهِ.

نعم، إننا هكذا نعرف الله بآثاره كما نشاهدُ في أنفسِنا وفي الآفاق نِعَمَهُ وتربيتَهُ وقربَهُ منّا، وعلى قدرِ ما نكتَسِبُهُ من هذا الشعور نفهمُ ونُدرِكُ معنى مفهـوم "الجماعـة"، وعلى إثرِ ذلك نُرَكِّزُ بكلِّ مشـاعِرِنا وعالمنا الداخلي، ونجمـع فـي أذهاننا المُلك والملكـوت، ونقول بكلِّ كياننـا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾، وهكذا نسـتذكرُ أنه ليس لنا أن نقابلَ اللهَ العظيمَ الجليلَ بعبودِيَّتِنَـا الفرديـةِ، وإنما يمكننا أن نقدِّم له عبوديَّتَنا ضمنَ الجماعة، فنأتي بضمير الجمـع (نعبدُ... نستعينُ) وكأنه انعكاسٌ للوجدان الجَماعيّ.

نعـم، إنـه هو اللهُ الـذي يُربّي كلَّ شـيءٍ؛ من الذرَّاتِ إلـى المَجَرَّات، ويُرينا كلَّ حينٍ وفي كلِّ شيءٍ رحمانيَّتَه ورحيميَّتَه، فنحن بِدَورِنا من حيث إننـا لا نسـتطيعُ أن نُقابِلَ عظمتَهُ وجلالَـهُ بعبوديَّتِنا ونحن فرادى، نجتمـع فيما بيننا، ونصطفُّ خلف الإمام، ومِن بعدِ ذلك نعتبرُ الكرةَ الأرضيَّةَ أيضًا مصطَفّـةً مثلَنا، ثم نَتَخطى الزمـان ونَصِلُ إلى العصور مِن قَبْلنا، ثم نذهبُ بخيالِنـا إلـى العصـور الآتية، ونتصـور جميـع الناس على الكـرة الأرضيّة متّفقيـن فـي دائرة التوحيد.. وإذْ نفكر هكذا، نتصـورُ أننا جميعًا متحلِّقون حـول الكعبـة المعظّمة، ومعنا كلُّ الأنبياء والمرسـلين على مدى العصور القديمـة، وجميـعُ المجتهديـن والمجدِّديـن والأوليـاء والصالحيـن فـي العصور التالية، مصطفّين وراءَ سـيدنا محمد ﷺ الذي هو الدليلُ الأكملُ، وقدوةُ الجميـع، والإمامُ الوحيدُ، الفردُ الفريدُ من بين عباد الله ﷻ، نتصوَّرُ هـذا، بل نتخطَّى هذه المرحلـة فنجمـع بين كل الخلايا ترابطت فيما بينها وشـكَّلت فـي جسـمنا جماعةً وبين سـائر الـذرات التي تُشـكِّل الكائناتِ

الأخـرى ونعتبر كلًّا منها جماعات أخرى ونقول معهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فـإذا نظرنـا مـن هنا إلـى الوراء نلاحظُ مـدى ما بين الآيـات بدءًا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى هنا من الانسجام، بحيث إنك إن سَحَبْتَ من بينها جملةً من إحدى هذه الجُمَلِ رأيتَ أن هناكَ ثغرةً خطيرةً قد حصلت، وكذلـك إن أضفـتَ إليهـا جملـةً رأيتَ هناك نشـازًا يُـؤذي العين ويصكُّ الأذنَ؛ فمِن "الحمد" إلى "التربية"، ومن التربية إلى "الرحمة"، ومن الرحمةِ إلـى انتهاءِ كلِّ شـيءٍ إلى أبعـادٍ أخرويّة، ومنها إلى اجتماع إرادة الإنسـان بالعنايةِ الإلهيّة، كلُّ هذا يَرِدُ في انسجامٍ لطيفٍ بحيث إنه مِن غير الممكِنِ أن لا ينبهرَ الإنسـانُ أمامها مسـحورًا مأخوذًا، ومِن بعد ذلك فإننا بقولِنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ نكون قد سألْنَا اللهَ ﷻ "العنايةَ" في أقدسِ الأمورِ وأسماها؛ حيـث إننا نسـألُهُ الهدايةَ إلـى طريق أولئك الذين هداهـم إليه، مِن أولئك الذين سـبقونا من الأنبياء والأولياء والصلحاء، ذلك الطريق الذي سـمّاه: "صراطي".

لقد مُنح الإنسانُ صلاحيَّةَ الطلَبِ من الله تعالى ما دامَ على قيد الحياة، وإن الإنسان الذي وصلَ إلى مستوى شعورِ الإيمان بالله، وأحسَّ بذلك في ضميرِهِ، ونالَ "الفناءَ في الله" بكل كيانه، حينما يقدم عبوديته ضمن جماعة مـن النـاس، يعيش "فنـاءً (أي في الله)" ويعيش في نفـس الوقت "بقاءً (أي بـالله)" ويَظهـر بذاته بيـن الناس، بمعنى أنه ينمحي عن سـاحة الوجود من جانـبٍ ويتمتَّـع بوجودٍ ضمنَ مجتمعٍ من جانبٍ آخر بأن يكون جزءًا من ذلك المجتمـع. نعم، إن تقديمَ الإنسان عبوديَّته لربِّهِ ضمنَ ذاتيَّة الجماعة، وتوجهَـه إليه ﷻ بشـعورٍ جمعـيٍّ لَمِنَ الحلاوة بحيـث لا يمكن الحديث

عن حلاوةٍ تضاهيها، ففي أثناء هذا التوجُّهِ يمنحُك الله صلاحيّة الطلب منه ﷻ؛ ويقـول لـك: "اطلبْ مني يا عبدي!"، فأنت في هذا الآن القصيرِ جدًّا بقدر قِصَرِ طرفة العينِ، تقول بكلِّ كيانِك ومستشفعًا لدى الحق تعالى بجاه الجماعة التي أنت من ضمنِها: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

نعـم، فكأنَّـك تقول: "يـا رب! إننا الآن على مفتَـرَق طُرُقٍ؛ فقد يكون طريقنا الذي سنسلكه طريقَ المغضوب عليهم والضالين. نعم، إن لم تَجِشْ قلوبُنا، فلم تسألك ما ينبغي سؤالُه فمن المحتمَلِ بقوَّةٍ أن تنجرف إلى تلك الطـرق، ومـن جانب آخر قد يكـون طريقُنا طريقَك أنت وطريقَ رُسُـلِكَ، فذلك الطريقُ واسـعٌ معبَّدٌ ومسلوكٌ مجرَّبٌ، فبالأمس كان حبيبُك الكريم ﷺ قد جرَّبَ ذلك الطريق، وسلكه مـع صحابته وأحِبَّتِهِ الصادقين، فبذلك أسـمـعَ جميـعَ الأقطار صوتَك ونداءَك، وأَرغَـم إمبراطورياتِ العالم، فها هو طريقٌ واسـعٌ كلَّ السـعة ومُضيءٌ بأبهى الأنوار، سـلكَه ويسلكه آلافُ الأعلام من الناس، ذلك الطريق الذي يوصِلُ سـالكيه إلى جنابِكَ العالي، والحـقُّ أن مَن لم يأتِكَ مِـن هذا الطريق فمِنَ المحال أن يصِل إليك، لأنه لا يُتصـوَّرُ بيـن نقطتيـن إلا خـطٌّ واحدٌ، فهـذا الخطُّ هو طريقـك، إن كان بيـن النقطتيـن خطـوطٌ أخرى ففـي كلِّها نوعٌ مـن الاعوجاج قَـلَّ أو كَثُرَ، ونعتبر اليهودية والنصرانية من هذه الخطوط، فنسـمِّي بعضَها: المغضوب عليهم، والبعضَ الآخر: الضالين، فنسألك يا ربِّ أن تهدينا إلى ما سَمَّيتَهُ: "الصراط المستقيم"، والذي هو الطريق الوحيد في استقامتِهِ من بين آلاف الطرقِ المعوجّة ولو كان بعضُها قريبًا من المستقيم...".

نقول ذلك ونتضرَّعُ إلى بارئِنا بهذه الكلمات.

إن سـورة الفاتحةِ التي حاوَلْنا تفسـيرَها، كما قلنا سابقًا مـع أنها سورةٌ تتكوَّن من سبـع آيات، لكنها مِن شدَّةِ انسجامِها وتناغُمِها تبدو وكأنها آية

أو جملـة واحـدة، والحقيقة أن هذه الخاصيّة موجودة فـي القرآن الكريم من بدايتِهِ إلى نهايَتِهِ، من سـورةِ الفاتحة إلى سـورةِ الناس، وقد حاوَلنا أن نُثْبـت هذا الأمر في سـورة الفاتحة باعتبارِها السـورةَ المفتاحيَّةَ من حيث الترتيب، ولكن إذا كان هناك من ينبري لهذا ويتناول هذا الجانب بالبحثِ الجادِّ لِيُجلِّي هذا الوجه الإعجازي في القرآن الكريم، ويركّز عمله لإثباتِه وإيضاحِه؛ فسيسدُّ فراغًا مهمًّا في مجال التفسير.

وإننـا إذ نَعتبـر عملَنا هذا بمثابةِ فاتحةٍ لسـورة الفاتحة، ونُخلي مجالَ الـكلام وندعُهُ لأربابـه؛ نتضرع إلى الله ﷻ أن يجعل القرآن المعجزَ البيانِ شفيعًا لنا.

اللهـم اجعـل القرآن هـدفَ حياتِنا وغايتَهـا، ووفِّقْنـا لأن نجعله حياةً لحياتنا وروحًا لنا...

آمين...

# مصادر


**أبو داود**، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

**أبو حيان**، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)؛ **البحر المحيط في التفسير**؛ تحقيق: صدقي محمد جميل؛ دار الفكر - بيروت، (١٤٢٠هـ) .

**أبو يعلى**، أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المعجم**؛ تحقيق: إرشاد الحق الأثري؛ إدارة العلوم الأثرية - فيصل آباد، بيروت، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

**أبو نعيم**، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ السعادة - مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة (١٤٠٩هـ) بدون تحقيق)].

**أبو الشيخ الأصبهاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **العظمة**؛ تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري؛ دار العاصمة، الرياض، ١-٥، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .

**ابن أبي حاتم**، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (ت: ٣٢٧هـ)؛ **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: أسعد محمد الطيب؛ مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، بيروت، ط ٣، (١٤١٩هـ).

**ابن أبي شيبة**، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان ابن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد - الرياض، ١-٧، بيروت، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

**ابن حبان**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

**ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

**أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

**الألوسي**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: ١٢٧٠هـ)؛ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**؛ تحقيق: علي عبد الباري عطية؛ دار الكتب العلمية - بيروت، ١-١٦، بيروت، (١٤١٥هـ).

**الإمام مالك**، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ **الموطأ**؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

**بدر الدين العيني**، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الحنفي (ت: ٨٥٥هـ)؛ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**؛ دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١-٢٥.

**البيهقي**، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **دلائل النبوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية - دار الريان للتراث، ١-٧، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ـــــــ، **السنن الصغير**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان، ط ١، (١٤١٠هـ-١٩٨٩م).

ـــــــ، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-١٤، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **الزهد الكبير**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط ٣، (١٤٢٣هـ/١٩٩٦م).

**البخاري**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

**الدارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ)؛ **مسند الدارمي (سنن الدارمي)**؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١-٤، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

**الزركشي**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: ٧٩٤هـ)؛ **البرهان في علوم القرآن**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١-٤، ط ١، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

**الطبراني**، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

**الطحاوي**، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (ت: ٣٢١هـ)؛ **شرح مشكل الآثار**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٦، بيروت، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

**المناوي**، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**؛ المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١-٦، بيروت، ط ١، (١٣٥٦هـ).

**مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

**النسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥)؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

**السيوطي**، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ **شرح سنن ابن ماجه**؛ قديمي كتب خانة - كراتشي.

**عبد الرازق**، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **المصنف**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

**عبد الله بن المبارك**، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق لابن المبارك**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

**العجلوني**، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

**القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)؛ **الجامع لأحكام القرآن**؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ دار الكتب المصرية - القاهرة، بيروت، ١-١٠، ط ٢، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

**الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

**الغزالي**، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٤، بدون تاريخ.

ـــــــ، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**؛ تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي؛ الجفان والجابي - قبرص، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).